سلسلة المئويات

من أعمال

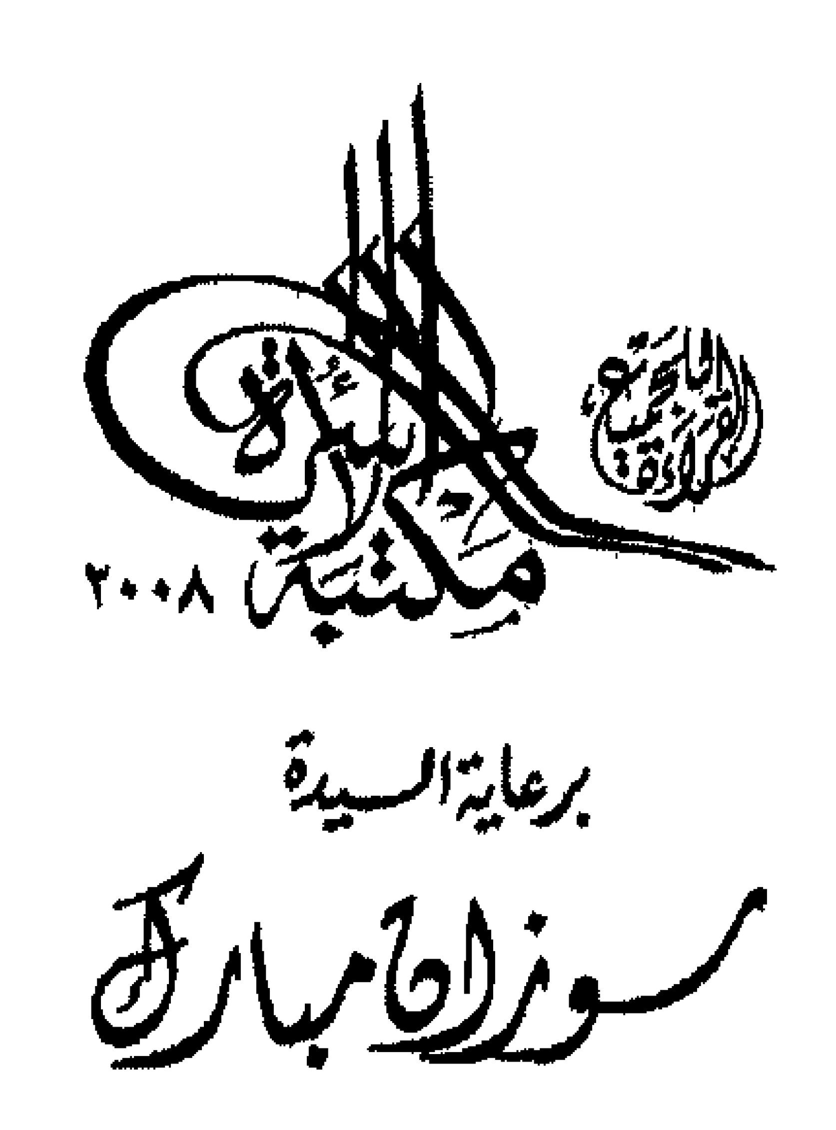
درية شفيق



مكتبة الأسرة
القراءة للجميع
٢٠٠٨

من أعمال

درية شفيق



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د. إيناس حسنى

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

من أعمال

درية شفيق



٢٠٠٨م

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : يوسف كامل

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

شفيق ، درية .

المرأة المصرية : درية شفيق . . ط ١ . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٢٤٠ص ؛ ٢٤ سم. (أسرة ٢٠٠٨)

تدمك : ٧ - ٤٤٠ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ المرأة فى مصر.

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٩٣٣ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978-977-420-440-7

ديوى ٣٠١,٤١٢

توطئة

منذ ثمانية عشر عامًا انطلق مهرجان القراءة للجميع على جناح فكرة أن الكتاب هو عماد المعرفة الرئيسى، والثقافة الرفيعة، وأن الكتاب ينفرد عن غيره من أدوات التثقيف ومصادر المعرفة بقدرته على تنمية الفكر وصنع العقول المستنيرة، وتكوين الشخصيات المتميزة، وفتح آفاق الاستنارة أمام الملايين، والإسهام فى تشكيل وجدان الأمة، وحفظ تراثها، والوصول إلى رؤى مستقبلية لنهضتها.

ولقد حرصت مكتبة الأسرة طوال أعوامها السابقة كرافد رئيسى للمهرجان على تحقيق الهدف النبيل من تأسيسها.. ذلك الهدف الذى تحدد فى طرح العبقرية الإبداعية والفكرية والعلمية للمجتمع المصرى المعاصر، وفتح نوافذ على الفكر والإبداع العالمى، وإقامة جسور بين الحضارات المختلفة، والتعرف على ثراء التاريخ الفرعونى والإسلامى، وأخيرًا تحفيز الأجيال الجديدة على القراءة حتى تصبح عادة، بل ضرورة ملحة تترسخ أهميتها فى الأذهان من خلال كتب عظيمة الفائدة، تباع بأسعار رمزية فى متناول الملايين.

ولأن وصول الكتاب إلى كل مكان فى مصر سيظل حلم السيدة الفاضلة سوزان مبارك، راعية القراءة للجميع. فلقد أعلنت هذا العام مبادرتها الجديدة بإهداء مليون كتاب مجانًا للمجتمع، ولأن مهرجان القراءة للجميع يتخذ شعارًا مختلفًا كل عام يتواءم مع الرسالة التى يهدف إلى تحقيقها وتنوعها وتطورها عامًا بعد عام، فإن مكتبة الأسرة تتخذ توجهًا عامًا فى اختياراتها للكتب، يستهدف دائمًا تحقيق وعى عام متجدد يطور القوى الاجتماعية، ويقوم على

منظومة قيم تتلخص فى تعميق دور العلم والتفكير العلمى، وتعزيز الديمقراطية، والتعددية وترسيخ قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وتأكيد قيمة التسامح وثقافة السلام، وترسيخ قيمة دور المرأة، وقيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وإبراز تواصل الإبداع المصرى. ولقد تم استحداث قيمة جديدة هذا العام هى تعزيز تجليات الوطن وقضاياه، وذلك لمواجهة متغيرات خرائط الصراع المضاد، الذى يسعى إلى التفتيت بإشعال الفتن والانقسامات التى تحول الانتماء الوطنى إلى ولاءات لأعراق وعقائد ومذاهب، وفق تصنيفات قاطعة تعمل على تعبئة الناس وقولبتهم لكى تضعهم فى موقف التضاد بعضهم لبعض على سبيل الاستبعاد والاستعداء للنيل من سيادة الدولة الوطنية، وانتهاك دعمها للمواطنة والديمقراطية والمجتمع المدنى ومشروعية التعايش؛ ولذا ستظهر تجليات الوطن وقضاياه وتتجسد فى الإبداعات التى ستطرحها مكتبة الأسرة هذا العام.

لقد نهض صرح مكتبة الأسرة على أعمدة المكتبة العربية، وثراء تحفها الإبداعية والفكرية، واكتشاف الأقلام الموهوبة الشابة، فالتف الجميع حوله كواحد من أكبر المشاريع الثقافية فى تاريخ مصر الحديث، نأمل دائمًا أن يحقق أحلامه العظمى، وأن يساهم مساهمة فعلية فى نهضة المجتمع.

مكتبة الأسرة

تقديم

درية شفيق (١٩٠٨ ـ ١٩٧٥) ـ بنت النيل ـ رائدة من رواد الحركة النسوية المصرية، وهى من تلميذات لطفى السيد، رحلت إلى فرنسا لتحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة السوربون، اشتغلت بالصحافة فتولت رئاسة تحرير المجلة الثقافية الأدبية (المرأة الجديدة) ثم تركت العمل بها، لتصدر مجلة خاصة بها وهى «بنت النيل» والتى تعد أول مجلة نسائية باللغة العربية موجهة لتعليم المرأة المصرية والعربية، وتشكيل وعى نسائى جديد فى الصحافة المصرية، ينهض على إدراك المرأة بحقوقها الأساسية ومسئولياتها، مطالبة بضرورة السماح للنساء بالاشتراك فى الكفاح الوطنى والسياسى، وداعية إلى إصلاح قانون الأحوال الشخصية، وقد أغضبت آراؤها لتحقيق هذا الإصلاح بعض الأوساط فى ذلك الوقت، أولئك الذين رأوا أن آراءها تنطلق من جذور حركة تحرير المرأة نحو العلمانية الغربية، وأنها حين شكلت حزب «بنت النيل» فى عام ١٩٤٩، كان بدعم من السفارة الإنجليزية والأمريكية.

ولقد أعلنت درية شفيق عن برامجها للإصلاح الاجتماعى والسياسى بجرأة وحماس شديدين، إذ كافحت من أجل محو الأمية المتفشية بين النساء فى مصر، كما قادت مظاهرة صاخبة فى البرلمان للمطالبة بحقوق المرأة، ونظمت أول فرقة عسكرية نسائية (اتحاد بنت النيل) لإعداد الشابات للنضال مع

الرجال، ولتدريب ممرضات ميدان وتمرين، وذلك حين تصاعد الصدام المسلح بين فرق المقاومة المصرية ووحدات الجيش البريطانى فى نهاية عام ١٩٥١.

وفى كتابها «المرأة المصرية» استعرضت تاريخ كفاح المرأة المصرية بدءًا من المرأة الفرعونية ومرورًا بحقوق المرأة فى الإسلام ووصولاً إلى دور المرأة المصرية والحركات النسائية فى تاريخنا الحديث والمعاصر. وفى هذا الصدد عرضت صورًا ونماذج لدور المرأة المصرية فى الحياة الاجتماعية والعلمية وفى نضالها الوطنى، مثل دور شجرة الدر فى معركة المنصورة، كما أرَّخت لدخول المرأة المدرسة لأول مرة فى تاريخ مصر، واقتحامها أيضًا الحياة الحزبية، ومشاركتها فى الثورات الشعبية (الحركة العربية وثورة ١٩١٩) وإلى نزول المرأة إلى الميدان الانتخابى، ومطالبتها بحقوقها السياسية ودعوتها للتحرر الاقتصادى والمساهمة فى الحقول الاجتماعية، كما ترصد أيضًا تحقيق المرأة للعديد من المعجزات فى ميادين العمل، كما تسرد مجموعة من السيدات اللاتى كافحن من أجل المرأة، وعددًا من المصلحين الذين ينتصرون للمرأة وقضاياها، والذين كان لهم بصمات واضحة فى تاريخ الحركة النسائية.

وبذا تكون درية شفيق قد تمكنت من رسم صورة واضحة للمرأة المصرية ولمسيرتها من أجل أن تظفر بحقوقها الطبيعية فى كافة الميادين.

ومكتبة الأسرة تقدم هذا الكتاب عن طبعته الصادرة عام ١٩٥٦ احتفاءً بمرور مائة عام على ميلاد درية شفيق.

تقديم

هذا الكتاب:

قد يتساءل القارئ ما هدفى؟ وما غايتى من إصدارى هذا الكتاب؟

وأنا أبادر بدورى فأرد على هذا السؤال أو التساؤل بأنى أهدف فى هذا الكتاب إلى أن يكون سجلاً لكفاح المرأة وعرضًا شاملاً لأدوار الحركة النسائية فى مصر منذ أيام الفراعنة الأولى حتى يومنا الراهن.

وأهدف أيضًا من هذا الكتاب إلى توضيح رعاية الإسلام للمرأة وعنايته بحقوقها وتوضيح هذه الحقوق للمرأة بما ترنو وتسعى إليه من التمتع بهذه الحقوق وجناء ثمرها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو غير هذين.

وأبادر فى هذه المقدمة فأسجل حقيقة حاول البعض طمسها وإخفاء نورها حتى لا تصل المرأة إليها وتتمسك بها.

هذه الحقيقة فى جوهرها تتلخص فى أن الإسلام لم يحارب المرأة ولم يحلْ دون تمتعها بحقوقها كما يزعم هذا بعض من ينتسبون إلى الإسلام.

ولعل القارئ يدرك الآن أنى قصدت بهذا الكتاب تحقيق هدفين:

الأول: ـ عرض كفاح المرأة المصرية والحركة النسائية منذ عهد الفراعنة إلى يومنا هذا.

والثانى: ـ توضيح موقف الإسلام السمح من مطالب المرأة وحقوقها وأنه لا يعارض فى أن تتمتع المرأة بحقوقها السياسية والاجتماعية ولا يقف حجر عثرة فى سبيل تقدمها.

ومن أجل تحقيق هذين الهدفين وغيرهما مضيت أجوس بين صفحات تاريخ مصر قديمها وحديثها، استنطقها جميعًا حقيقة رأيها فى المرأة المصرية.. وأستوحى تجاربها وأحداثها لإنارة طريق كفاحنا النسائى المرير!

وما كنت لأسلك هذا الطريق الطويل فى تقديم هذه الدراسة عن «المرأة المصرية» لولا أننى أؤمن بأننا نحن النساء أحوج ما نكون اليوم إلى التسلح بوعى نسائى جديد يقوم على أساس قوى من الدرس والعلم والتجربة.. فلا يكفى أن ترفع المرأة صوتها بطلب حقوقها بل عليها أن تعرف أولاً ما هذه الحقوق؟ وما مدى حيويتها بالنسبة لكيانها ووجودها؟ وعليها أن تعرف ثانيًا ما السبيل الإيجابى لاستخلاص هذه الحقوق؟ وهى لن تستطيع ولا شك التعمق فى تفهم ذلك كله إلا إذا عرفت كيف بدأت المصرية حياتها حرة مستوفية الحقوق.. وفى أية ظروف خسرت حقوقها وحرياتها. لتدرك بعد ذلك أى مجتمع هو الذى يعترف بحقوقها؟ وأى مجتمع ينكرها؟ ومتى أدركت ذلك لم تجد كبير عناء فى فهم الحقيقة الكاملة.. وهى أنه لا وطنها ولا مواطنوها هما اللذان يسلبان حريتها بل إن حريتها ليست إلا حلقة فى مجموعة الحريات التى خسرها الوطن يوم فقد استقلاله ونكب بتآمر المستعمرين على حضارته وحقوقه وحرياته جميعًا..

أما كيف بدأت المرأة المصرية المناداة بهذه الحقوق التى يكلفها استردادها اليوم الكثير الغالى من الجهد والعرق، بل الدم الذى لن تتردد فى سفكه لحسم المعركة؟. فذلك ما سأوضحه بالتفصيل فى مكانه من هذا الكتاب.

ـ أما فى هذه اللمحة السريعة فيكفى أن أقول: إن شهادة التاريخ عن تحرر المرأة الفرعونية صريحة مؤيدة بعشرات الأدلة المادية الرابضة فى بطن الوادى الحبيب لملكات الفراعنة والتماثيل المقامة لهن رمزًا لإجلال المصريين القدماء

للمرأة، وصور الحضارة المصرية التى نسجتها أيدى الفرعونيات وعقولهن وحكمتهن.. وقد كان الفراعنة هم أول من اعترف بحقوق المرأة كاملة ومساواتها للرجال فى مجالات السياسة والعمل والالتزام...

نعم كان الفراعنة هم أول من رفع المرأة إلى مقاعد الحكم، وارتضى رجالهم فى فخر واعتزاز أن تحكمهم ملكات كانت عهودهن رمز العدالة والتقدم والاستقرار... ولقد وصلت المرأة الفرعونية إلى هذه المكانة العالية فى قومها بغير معارك وبدون اعتراض.. وما كان ذلك إلا لأن المجتمع الفرعونى كان هو المجتمع المتحضر الذى رسم للبشرية بأجمعها طريق الحضارة والعلم والحكمة.. فكانت حضارته هى وحدها سر احترامه لنسائه والاعتراف بحقوقهن كاملة غير منقوصة. فاستطاع بذلك أن يبنى مجده من تمجيد المرأة فيه إلى حد وصل إلى تقديسها واعتبارها منبع الخير والرحمة والقوة والعدالة..

* * *

هكذا عاشت المرأة الفرعونية بحقوقها وتمتعت بحريتها..

أما كيف خسرت بعد ذلك حقوقها وحريتها وصارت إلى حالة العبودية والتأخر؟ فقد كان ذلك فى عهود الاحتلال اليونانى لمصر وعهود الاحتلال الرومانى من بعده.. فإن هذه المرحلة من تطور الحركة النسائية هى حجر الزاوية التى يجب أن تقوم عليها دراستنا للقضية النسائية لنعرف جميعًا ـ نساء ورجالاً ـ أن المساواة التى تمتعت بها المرأة آلاف السنين فى مصر الحرة المستقلة المتحضرة قد أهدرت لأول مرة برماح جنود الاحتلال الغاصبين وديست تحت أقدام الغزاة المعتدين على كل مقدسات شعبنا المصرى أعرق شعب عرف الحرية. وهذا ما يضاعف اهتمامى بهذه المرحلة القاسية فى تاريخ المرأة العصرية واعتبارها نقطة مهمة فى دراستنا لقضيتها.. لأنها تبرر مدى هذا الارتباط الحقيقى بين حرية المرأة وحرية الشعب كله. وبالتالى بين القضية النسائية والقضية الوطنية..

والإحاطة بهذه الحقائق المرة يجب أن يكون أساس كفاح المرأة المصرية فى هذه الفترة الحاسمة فى استقلال الوطن وتحرره. فإن إدراكها لأسباب ضياع

حريتها هو الذى يوجهها ويرشدها إلى وسائل استعادة هذه الحرية.. وبمعنى أدق أن على المرأة المصرية التى تجاهد اليوم فى سبيل حريتها أن تؤمن بأن هذه الحرية التى خسرتها ضمن خسارة الوطن لحريته واستقلاله لا سبيل إلى استردادها إلا باسترداد الوطن لحريته واستقلاله، ومن هنا تبرز أهمية ربط حالة المرأة فى أى مجتمع بحالة بلادها من ناحية تحررها أو استعبادها.

وهذا هو الشعار الذى أنادى دائمًا بأن يكون أساس كفاحنا النسائى الحديث. وهو أن لا حرية للمرأة فى وطن مستعمر ولا عبودية للمرأة فى وطن متحرر.

* * *

ولقد اقتضت متابعتى لتطور حالة المرأة المصرية تركيز جهد أكبر لعرض مرحلة الفتح الإسلامى لمصر. فقد كانت هذه المرحلة هى نقطة التحول فى حياة مصر عامة والمرأة فيها خاصة. لأن دخول الإسلام مصر لم يكن مجرد فتح أو احتلال على مضض من أهل البلاد حتى يستهدف مناوأتهم وينتهى إلى الجلاء عن ديارهم ليتولى الزمن إعادة ما قوضه من قوانين البلاد الأصلية وطبيعة حياتها..

لم يكن فى طبيعته شىء من ذلك ولكنه كان غزوًا روحيًا بل كان مرحلة من مراحل التطور. فلم يدخل الإسلام ليقيم احتلالاً زمنيًا ولكن ليشعل قوة فكرية تفرض ما يتفق مع إرادة الزمن من القوانين والتقاليد وفقًا لرسالة الإسلام وتشريعاته وأحكامه.. وهكذا امتزجت الدماء المصرية بالدماء العربية وتوحدت حضارتاهما لترسيا أساس الدولة المصرية ذات المبادئ والقيم الإسلامية الجديدة. الجديدة فى حياة أبناء الفراعنة، العريقة فى ضمير الإنسانية بأهدافها السامية لتحرير البشرية، وتحقيق العدالة ونصرة المستضعفين من بنات وأبناء آدم على السواء.

وإذا كنت قد حرصت على بيان موقف الإسلام الصريح من تحرير المرأة وتثبيت حقوقها وحفظ آدميتها. فما الجانى لهذا الحرص إلا ما لمسته فى خلال

اشتغالى بالحركة النسائية من التجنى على حقوق المرأة ومحاولة النيل من مكانتها باسم الإسلام. والإسلام برىء مما يفترونه عليه.. لأنه وهو دين الإنسانية والحرية والعدالة، ما كان له أن يستعبد المرأة نصف الأمة وهو الذى جاء ليحرر أمة الإسلام جميعًا من العبودية والظلم والاستبداد..

لذلك لم يكن غريبًا أن تنتعش معنوية المرأة المصرية بعد رسوخ قواعد الدولة الإسلامية فتعود تسعى إلى استرداد ما سلبتها عهود الاحتلال والطغيان من الحقوق والحريات.. وتمضى قدمًا فى سبيل غايتها المقدسة حتى تصل حالتها إلى أوج الازدهار.

* * *

وتنتهى هذه المرحلة من حياة المرأة المصرية بقيام الحكم التركى فى مصر والعصور التى تلته وقيام أسرة محمد على فتدخل المرأة فى طور آخر من أطوار استغلالها لحساب الإقطاعية المصرية والاحتكارية الاستعمارية.

ولكن عجلة التطور تعود لتدفع بها من جديد فى طريق التقدم المرموق.. حين يبلغ استغلال أسرة محمد على والاستعمار ذروتيهما ضد الشعب المصرى الأبى فتتفجر براكين سخطه وحقده فى ثورة وطنية عارمة هى ثورة سنة ١٩١٩ ..

وهنا يقف التاريخ دهشة وإكبارًا.. حين يرى المصرية المحجبة قعيدة الدار تندفع بقوة إلى الشارع لتنظم المظاهرات وتحمل راية الجهاد، وتنادى بالاستقلال والحرية لبلادها غير آبهة بما ينالها بسبب هذا الكفاح. كانت بنات المدارس لابسات «التزييرة» و «اليشمك» يسقطن صرعى فى المظاهرات وهن يهتفن بحق وطنهن فى الحرية والاستقلال.

.. وأخيرًا تتدخل الرجعية المصرية لتخميد نيران الثورة الوطنية ولكن بعد أن تكون المصرية قد اشترت جزءًا من حريتها بقطرات حمراء غالية من دمائها الزكية التى روت بها أرض الوطن فى معركته المقدسة. التى طال بها عهد الضيم والاستبداد ـ فلم تلبث القيود أن بدأت تتحطم من حول أقدامها المغللة..

هذه هى الحقيقة التى أود أن ألفت إليها الأنظار مع ملاحظة أن المرأة المصرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من نجاح وفوز فى أكثر الميادين إلا بفضل جهادها وبعد معارك حامية كانت تنتهى كلها بنصرها وفوزها.. وهذا فى اعتقادى هو سر اعتزاز المرأة المصرية بنجاحها الذى استخلصته بالجهد والعمل ولم تنله على سبيل الهبة أو الصدقة.

ومن أجل ذلك ومن أجل إبراز هذه الحقائق واضحة خصصت أكثر من باب فى هذا الكتاب لتسجيل بعض نواحى النشاط النسائى فى مصر فى الميادين العامة من اجتماعية وإنسانية وسياسية..

وعندما أشرق عهد التحرير وقام الشعب، جيشه وعماله وشبابه، يدك صرح الطغيان والظلم والاستبداد كانت المرأة فى مقدمة من استبشر ببزوغ هذا الفجر الجديد، فأملت أن يكون فيه نهاية لذلك الليل الطويل للمرأة التى هى نصف الأمة ومنشئة الجيل الجديد والتى لن تتمكن من تأدية رسالتها فى المجتمع الجديد إلا إذا كانت متحررة مستوفية الحقوق كما هى ملزمة بتأدية الواجبات.

وهأنذا أعد أصول هذا الكتاب فى الوقت الذى تجهز فيه المرأة المصرية على البقية المثقلة من أغلال الرجعية، بما تسجله كل يوم من انتصارات فى مختلف ميادين العلم والعمل والكفاح!!. بل فى الوقت الذى ترفض فيه الاستسلام لأية مؤامرة على حقوقها الدستورية وتقف فى صلابة وعناد لتناضل من أجل حقوق كاملة وحريات شاملة بلا قيود ولا شروط ولا تحفظات!

درية شفيق

المرأة الفرعونية
كانت لها حقوق الرجل

عندما تتحدث المرأة المصرية اليوم.. امرأة القرن العشرين.. فتقول إنها تطلب استرداد ما كانت تتمتع به جداتها الفرعونيات من حقوق فهى لا تتجاوز الحقيقة أبدًا، ذلك أن المصرية بدأت تزاول حياتها منذ القدم بهذه الحقوق التى تحرم منها الآن فى القرن العشرين!

فقد شهدت مصر القديمة بزوغ فجر نهضتها يشرق ويزدهر وتشع حضارته على العالمين فى مجتمع متحضر، كان تحرر المرأة فيه هو أساس حضارته وانعكاس صور تقدمه.. مجتمع عرف قدر المرأة ورفعها إلى أسمى مكان واعترف بحقوقها كاملة فى مساواة تامة مع الرجل.. فكانت عهود الفراعنة الأولى تعطى المرأة حق اختيار زوجها.. وحق الاحتفاظ بما تمتلك بعد الزواج وحق اقتسام الميراث فى مساواة مع رجل أسرتها إلى آخر هذه الحقوق المدنية والاجتماعية، بل لقد تميزت المرأة على الرجل فى هذه العهود.. فكانت تملك حق تطليق زوجها بعد أن تدفع له تعويضًا.. وكانت تسمى أولادها باسمها!

كان المجتمع المصرى فى ذلك الحين يتمتع بظروف طبيعية تؤهله للاستقرار الذى لم تكن سائر مجتمعات العالم قد عرفته بعد.. هنا، كان النيل ـ أهم أنهار العالم ـ قد أوحى للقبائل الهائمة على وجهها أن تستوطن شطآنه ووديانه لتزرع الأرض، وترعى الماشية.. وفى خلال ذلك تكتب سطور تاريخ المدنية وتشيد صرح الحضارة حجرًا فوق حجر.

ولم يشأ ذلك المجتمع الذى كان يستشعر حاجة إلى البناء والتعمير، أن يحرم نفسه من جهد المرأة، فلا يبقى نصفه معطلاً ومشلولاً عن الحركة.. ولم يكن الإنتاج بعد يسمح بأن يعيش نصف المجتمع عيالاً على النصف الآخر، ومن هنا كانت المرأة تعمل وتنتج، سواء كانت فى صفوف السادة أو فى صفوف العبيد، فكان لها أن تنعم بذات الحقوق التى ينعم بها الرجل من نفس الطبقة.. وكانت تتميز على الرجل أحيانًا، لأنها كانت تنجب الأبناء الذين يعملون فى مجتمع كانت ظروفه تجعله دائمًا فى حاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة، ولعل ذلك هو سر المبالغة فى احترام المرأة إذ ذاك إلى حد التقديس!

ويقول هيرودوت فى معرض الحديث عن تميز المرأة على الرجل عند الفراعنة.. : «إن المرأة فى مصر القديمة أكثر نشاطًا من رجلها، فالنساء يذهبن إلى السوق يبعن ويشترين فى حين أن الرجال يلازمون بيوتهم حيث يقومون بنسج الأقمشة»!.

وكانت الحقوق السياسية للمرأة فى مقدمة ما تتمتع به نساء الفراعنة فى عهود الحضارة التى خلدها التاريخ.. فكانت النساء ترتقى العرش لتحكم بلادها حكمًا مباشرًا سواء بمفردها أو بمشاركة زوجها أو أخيها.. وهذا لعمرى أخطر وسائل استعمال الحق السياسى!!

ولقد سجل التاريخ.. وصدقت عليه آثار الفراعنة الخالدة فى بطن الوادى الحبيب صورًا متعددة لهذه الفرعونية الحاكمة والمتحررة والمقدسة فى شخص بعض ملكات مصر القديمة أمثال «تى» زوجة أمينوفيس وأم «أخناتون» و«نفرتيتى» زوجة «أخناتون» التى حملت لواء حركة الانقلاب الدينى.. وهى الحركة التى قامت فى عهد حكم زوجها واشتركت نفرتيتى معه فى وضع أسس الدين الجديد الذى توحدت فيه لأول مرة فى تاريخ الأديان جميع الآلهة فى إله واحد هو «أتون» إله الشمس.

وهذا العمل الخطير الذى تولته هذه الملكة يدل دلالة قاطعة على مدى تقدير المجتمع الفرعونى المتحضر لنسائه بائتمانه «نفرتيتى» على أن تضع له دينه وتقيم له عبادته!.

وإذا مضينا فى تعقب نساء السياسة فى عهود مصر القديمة، التقينا بالكثيرات اللوائى سجلن أسماءهن فى تاريخ مصر المجيد.

وهكذا سارت المرأة الفرعونية المتحررة تنتقل من مجد إلى مجد، تشارك الرجل المسئوليات وتتبادل معه مقاليد الأمور وتقدير سياسة بلدها فى دقة ومهارة وقوة كانت تضاعف من تقدير الرجال لها وإفساحهم المجال أمامها لترقى أعلى مناصب الحكم وأسمى مراتب القداسة.

وكانت أبرز النساء اللائى حكمن البلاد كليوباترة التى لعبت أخطر الأدوار فى حياة شعبها ووطنها..

كليوپاترا :

ويجدر بنا هنا أن نقول من هى كليوباترا؟

إنها سيدة جبارة من سلالة الفراعنة نفاها أخوها ليبعدها عن العرش.. ولكنها لم ترتض حياة المنفى وهوانها.. فغامرت بالعودة للوطن وتمكنت من العودة إلى مصر واسترداد حقها على العرش.

وكليوباترا هى المرأة والملكة التى طارت باسمها القصص والأساطير فى جهات العالم الأربع وبكل اللغات.. ولكن تضارب الأقوال حول شخصيتها وتطاول المؤرخين والقصاصين على حياتها الخاصة وسيرتها كل ذلك لم يستطع طمس الحقيقة الساطعة فى تاريخها وهى أنها عرفت بدهائها وقوة شخصيتها كيف تقاوم أطماع قياصرة الرومان فى وطنها.. إلى حد إنها تمكنت بسحرها وشخصيتها من إخضاع القادة الغزاة لتنقذ مصر من أطماعهم الاستعمارية.. بل كانت ترسم الخطط، وتضع الوسائل لتجعل من روما التى فتحت العالم ولاية تابعة لمصر بدلاً من أن تكون هى إحدى ولايات روما..!

وهكذا سجلت هذه الملكة الداهية كيف تلجأ المرأة إلى كل الأساليب والوسائل من أجل وطنها وحياة شعبها..

بل يكفينا دليلاً على قوة «كليوباترا» فى الدفاع عن وطنها أن موتها كان نهاية عهد الحرية والاستقلال لمصر.. إذ ما كاد الميدان يخلو منها حتى تمكن الاحتلال الرومانى من السيطرة على بلد الفراعنة الذى كانت كليوباترة تحميه فلم يجد بعدها من يحميه.

تقديس المرأة

لم يقف تقدير الفراعنة للمرأة والاعتراف بكامل حقوقها عند حد رفعها إلى العرش وتسليمها مقاليد الحكم وإدارتها سياسة البلاد. بل لقد رفعوها إلى مرتبة الالهية فى أساطيرهم وعبادتهم.. فقد سووها فى شخص الإله «مات» إله العدل.. وإيزيس وهاتور.. ولإيزيس أسطورة مشهورة تصور شخصية المرأة فى هذا العهد القديم ومكانتها فى قومها.. إذ يحكى عنها إنها كانت زوجة الملك أوزيريس وكانت تشاركه فى حكم مصر وتحضير وتمدين البلاد.. ولكن أخاه (ست) يقتله غدرًا ويستولى على العرش وينفى إيزيس وطفلها.. وهنا تبرز عزيمة هذه المرأة إذ تلجأ إلى مستنقعات الدلتا وتعكف على تربية ابنها تربية عالية وتلقنه العلم، والحكمة، وأصول الحكم حتى يشتد ويكبر فيعود إلى العاصمة ويسترد عرش أبيه الذى اغتصبه عمه، وأما إيزيس فإنها تمضى فى ذرف الدمع على زوجها وحبيبها الراحل الذى لم تجف دموعها عليه منذ غدر به أخوه وقتله.. وتظل ايزيس تبكى.. وتبكى حتى تحفر دموعها المنسابة مجرى تتدفق فيه المياه وتجرى نهرًا عذبًا يفيض بالخير على الوادى وهو نهر النيل الذى نسبه قوم ايزيس إلى دموع وفائها على زوجها فضربوا بذلك أروع الأمثلة على تمجيدهم للمرأة واعتبارها مصدر الحياة والخير!

الإسلام يحرر المرأة
من عبودية الرجل

«ستدخلون مصر إن شاء الله. فأوصيكم بقبطها خيرًا فسيكون لكم منهم ذمة ونسب» بهذه العبارة الكريمة والتوجيه الإنسانى السامى بشر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ العرب بدخول أرض الفراعنة وأوصاهم بأهلها، وبارك اندماج العنصرين العربى والفرعونى لاستحداث نسل جديد تمتزج فيه الدماء العربية بالمصرية وتتمثل فيه أمجاد العرب وحضارة المصريين.. وهكذا كان النسب الذى تحدث عنه الرسول ولايزال.. وصرنا نحن ـ المصريين ـ سلالة خليط أجناس أشرفها وأمجدها الفرعونية والعربية.. ومن هنا أصبح التعرض لتاريخ المرأة العربية أمرًا لابد منه.

وتاريخ المرأة العربية يمر بمرحلتين مهمتين حتى يتصل بتاريخ المرأة المصرية ويندمج فى حياتها على أرض النيل.. أما هاتان المرحلتان فهما يمثلان عصر الجاهلية وعصر الإسلام..

المرأة العربية فى الجاهلية

قال أحد المؤرخين العالميين : إن المرأة العربية كانت منذ قديم الزمان تتداول مع الرجل سياسة الأمة وولاية الأمر وتنظيم العمل وشئون الحياة، فى الوقت الذى كانت المرأة الرومانية فيه تدين بالعبادة للرجل، وكانت تعبده من دون الله إلهًا قهارًا!

ويصدق التاريخ على قول هذا المؤرخ إلى حد كبير فى عديد من القصص التاريخية الشهيرة عن نساء عصر «ما قبل الإسلام».. وقد تولت الكتب السماوية

تقديم نساء ذلك العصر وقوة شخصياتهن التى تركت أعمق الأثر فى حياة مجتمعهن وتاريخه.. ويضرب القرآن الكريم لنا أروع الأمثال فى هذا السبيل بقصة بلقيس ملكة اليمن العربية.. التى وصفت آياته الكريمة عرشها بقولها ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (النمل ٢٣).

وكانت بلقيس تحكم اليمن حكمًا ديمقراطيًا قائمًا على الشورى برغم الثقة المطلقة التى كان قومها يضعونها فيها لما كانت تتحلى به من الحكمة والعدل والذكاء، وقد تجلت حكمتها وديمقراطيتها عندما جمعت شعبها لتستفتيه رأيه، وتطلب مشورته فى ردها على رسالة سليمان عليه السلام التى بعثها إليها يدعوها ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل ٣١). فقد وقفت تخطب فى قومها قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (النمل ٣٢). فجاءها صوت أفراد شعبها يجمع على تفويضها للتصرف باسمهم واضعين أرواحهم رهن إشارتها قائلين: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل ٣٣). وكانوا رجالاً أقوياء متحضرين أولئك الذين دعوها أن تأمرهم ليصدعوا فلم يرتفع من بين صفوفهم صوت رجل واحد يعترض على تفويض هذه المرأة للتصرف فى هذا الأمر السياسى الخطير ولم يوجد بينهم من يعترض بأن تقاليد العرب تقف بين المرأة وسياسة بلادها، فقد كان رجال العرب هم الذين رفعوها فى اعتزاز إلى مقعد الحكم لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الحضارة وارتفاع المستوى بالنسبة إلى العصر الذى كانوا يعيشون فيه.. ونستطيع أن ندرك الأثر الذى تتركه ثقة الرجل فى نفس المرأة عندما نتابع قصة بلقيس لنرى كيف تصرفت فى هذا الموقف الدقيق وكيف كان اتجاهها.

لقد كان أول ما عناها هو التفكير فى تجنيب شعبها شر الحروب، وهو الذى حملها أمانة حمايته والذود عن رفاهيته واستقراره. فعمدت إلى اختبار نوايا سليمان أولاً بأن أرسلت إليه رسلها بهدية ثمينة غالية ردًا على رسالته لترى إذا كانت أغراضه فى بلادها مادية تهدف إلى الربح وتقوم على الطمع.. أم أنها مجرد دعوة دينية تبشر برسالة روحية خالصة من الشر، وكان هذا التصرف منها عين الحكمة ولا شك، لأنها تمكنت بعد ذلك من أن تأمن جانب سليمان وتهتدى

بالحق. فكانت بلقيس بذلك تمثل أهم خواص المرأة السياسية عندما تضطلع بالخطير من المسئوليات، وتواجه الدقيق من المواقف التى تمكنها من اكتساح أشد العقبات فى تعقل وبصيرة فطرية سليمة، وإذا تركنا بلقيس ملكة اليمن التى اختبرت الأنبياء وخلدتها آيات القرآن ورفعت قدرها.. فإننا نجد أن بلقيس لم تكن أول سيدة تحكم فى الوطن العربى أيام الجاهلية.. فهناك أيضًا زينب ملكة تدمر العربية التى نهضت بأعباء بلدها وأدارت سياسته وقادت حروبه ونجحت فى توسيع رقعته حتى امتد ما بين مجاهل أفريقيا ومعالم أنقرة أو قفز بفضل رعايتها وإدارتها إلى مصاف الدول القوية. وكانت تمتاز بشخصية قوية صلدة أهلتها للزعامة بين قومها وانتزاع التقدير من خصومها. ويحكى عنها أنها كانت تقود بنفسها المعارك الحربية التى يخوضها جيشها فتنزل إلى الميدان كاملة الزينة باهرة الجمال، ممتطية جوادها شارعة سيفها تتقدم الصفوف تستثير الهمم وتدير المعركة. فلا تعود إلى بيتها حتى تطمئن إلى سلامة رجالها وانتصار وطنها.. وزينب هذه كانت تسمى «بالزباء» نظرًا لغزارة شعر حاجبيها وسعة عينيها وهما من علامات الجمال عند العرب. وهى أيضًا صاحبة القول المأثور «بيدى لابيد عمرو» عندما أيقنت من تآمر عمرو بن عدى على قتلها فى أخريات أيامها انتقامًا منها لأسرها خاله ملك الحيرة فى إحدى المواقع الحربية.

وهكذا أبت شجاعتها وكبرياؤها أن تعطى عدوها فخر قتلها بيده فآثرت قتل نفسها بيدها وهو ضرب من الأباء والشجاعة التى تميزت بها المرأة العربية، وكانت من صميم تقاليدها!

وإذا كانت هذه هى أمثلة تغلغل المرأة العربية فى حياة بلادها السياسة وممارستها حقوقها السياسية فى أوسع نطاق.. فإن نشاطها فى مختلف مجالات الحياة العامة لم يكن يقل عن ذلك خلودًا ومجدًا.

وكانت البلاغة هى الظاهرة التى تميزت بها المرأة العربية عن نساء العالم جميعًا وهى بلاغة فطرية أصيلة فى نفسها بسبب ظروف البيئة العربية وطبيعة انطلاق الحياة البدوية.

والرواية التالية تبرز مدى بلاغة المرأة العربية واتساع أفقها الفكرى.

اختصم امرؤ القيس أمير شعراء العرب يومًا مع منافسه فى دولة الأدب «علقمة الفحل». واحتدمت بينهما المساجلة الشعرية ففكرا فى الاحتكام لعلامة أديب وقال علقمة: إنه يرتضى تحكيم أم جندب زوجة امرئ القيس فجلسا إليها حيث بدأ زوجها امرؤ القيس ينشد قصيدته التى مطلعها:

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

ورغم هذه الرشوة الغزلية التى حاول زوجها أن يستميل بها قلبها لتنصفه على غريمه فقد وجدت أم جندب فى نفسها الشجاعة الأدبية التى قضت بها بتغليب شعر علقمة على شعر زوجها.. ولم تكتف بإصدار حكمها بذلك بل أيدته بحيثيات وتدليلات شعرية أدبية كانت فى ذاتها مثلاً للبلاغة والتعمق وإرهاف الحس. إلى جانب ما سجلته بموقفها الصريح من شعر زوجها عن قوة الشخصية واستقلالها.

وبرغم اقتحام المرأة العربية لميادين السياسة والأدب وارتيادها الأسواق والخروج إلى الحروب واعتلاء العروش فإن أحدًا فى قومها لم يتهمها بالانصراف عن تأدية رسالتها كاملة كأم وكزوجة. بل كان ينسب إليها فضل صنع أبطال العرب بتنشئتهم وتوجيههم وهذه نصيحة أم عربية لابنتها فى ليلة زفافها تدلنا على بلاغتها وحكمتها وتعمقها فى فهم الطبائع البشرية.. فاسمع وصية امرأة عوف الشيبانى إلى ابنتها: -

أى بنية - إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها. كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال..

«أى بنية» إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت، إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه. فكونى له أمة يكن لك عبدًا، واحفظى له خصالاً عشرًا يكن لك ذخرًا أما الأولى والثانية:

فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح. وأما

الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله ورعاية حشمه وعياله.. إلخ.

«واعلمى إنك لا تبلغين ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت والله يخير لك».

ولكن هل يعنى تفوق المرأة العربية فى كثير من الأحوال قبل الإسلام إنها كانت تتمتع بحقوق شرعية تمارسها فى شكل قانونى معترف به؟ كلا لم تكن للمرأة قبل الإسلام صفة قانونية لذلك فقد كانت تلجأ لاكتساب بعض حقوقها بفرض شخصيتها فرضًا على طريق النبوغ الذاتى وقوة العزيمة وفى بعض مجتمعات معينة. هى المجتمعات التى تكون قد بلغت حدًا من التمدين، يستسيغ ظهور المرأة وإفساح المجال أمامها لإثبات جدارتها فى الميادين العامة دون التقيد بحدود تقاليد الجاهلية الرجعية التى كانت تطبق فى أضيق الحدود وفى المجتمعات العربية البدائية كما كان إلى حد ما فى شبه جزيرة العرب قبل البعث الإسلامى. فقد كانت المرأة فيها تلعب دورها فى أهم وأدق شئون المجتمع ولكن من وراء ستار وبدون صفة شرعية. لذلك فقد كان مركزها الظاهر هو العبودّية التى كانت تتخذ أشكالاً متعددة ومتباينة تبعًا للظروف والبيئة.

فى ذلك الزمن، كان العالم يتطور من عصر العبودية إلى عصر الإقطاع فكنوز العالم وخيراته لاتزال إذ ذاك بكرًا لم تكتشف بعد، وظروف الإنتاج محدودة وشاقة، لعل أيسرها الزرع والرعى والصيد، وكلها أعباء يستطيع الرجل - بحكم قوته البدنية - أن يتولاها خيرًا من المرأة ومعنى هذا أن يشترك الرجل فى الإنتاج والاستهلاك، بينما المرأة تستهلك فقط ولا تنتج.. إلا أحيانًا، وفى أضيق الحدود.

ومعنى هذا، إن الرجل كان يشعر بأن المرأة تعيش عيالاً عليه، وكان طبيعيًا أن يؤدى خوفه من الفقر إلى الاكتئاب كلما ولدت له زوجته أنثى.. أنثى تستهلك ولا تنتج!

فإذا أضفنا إلى ذلك، أن جمال ابنته قد يكون سببًا فى غارة إحدى القبائل الأقوى على أرضه، ليتمكن سيد تلك القبيلة من ضم هذه الحسناء الجميلة إلى نسائه أو جواريه.. إذا أضفنا هذا السبب إلى السبب السابق، أدركنا سر ما كانت تعانيه المرأة إذ ذاك من اضطهاد وما كانت تلقاه منذ طفولتها من الأب أو الأخ أو العم.. إلخ. الذى يضيق ذرعًا بنفقات طعامها.. إنها فى نظره «متطفلة» لا حق لها ـ على الأقل ـ فى أن ترث من ماله شيئًا!

وعبارة «على الأقل» لا نطلقها هنا جزافًا، فقد كان البعض من أولئك الآباء يتخلصون من بناتهم، بمجرد ولادتهن، بوأدهن أحياء!!

وبديهى أن مركز المرأة كان يختلف دائمًا باختلاف الظروف الاقتصادية حتى لقد كان للبعض منهن مكان الصدارة فى قبيلتها لما تمتاز به من قوة الشخصية وذكاء فطرى.

ومع ذلك فإنها على وجه الإطلاق، لم تظفر بحقوق قانونية يعترف بها المجتمع. وهكذا ظلت بين عوامل التقدم والتأخر. تبعًا لظروف البيئة واختلاف الفرص وهو ما لا يمكن معه وضع قاعدة ثابتة لتحديد مكانة المرأة قبل الإسلام سوى أنها كانت قوية بالفطرة مستعبدة بتقاليد الجاهلية الوثنية. حتى جاء الإسلام. وكان أن استهدفت ثورته الإصلاحية إنقاذ المرأة من هذا الوضع الشاذ المتناقض المهدر لآدميتها المجحف بحقها الطبيعى فى التساوى مع الرجال، لأنه وهو دين الحق والعدل والمساواة ما كان له أن يظلم المرأة ـ نصف الأمة ـ أو يتجاهل حقها الطبيعى فى أن يكون لها كل ما للرجل وهما من فصيلة بشرية واحدة كما أنهما على قدم المساواة أمام الله فى تأدية الفروض الدينية، وأمام الوطن فى تأدية الالتزامات المالية والقضائية. فجاءت أحكام القرآن ونواهيه صريحة فى تأكيد حقوق المرأة وفصلت السنة من أمر ذلك ما لم يأت مفصلاً فى القرآن الكريم. وبذلك رد الإسلام للمرأة حقوقها، وسجل لها هذه الحقوق فى أول قوانين شرعية صريحة.

وكان إنصاف الإسلام للمرأة بتقدير حقوقها والدفاع عن آدميتها وأهليتها يهدف إلى غايتين ساميتين هما إحقاق الحق. الذى يقوم عليه منح هذه الحقوق لها من ناحية.. والعمل على رفع مستوى الأمة الإسلامية وحمايتها وتأكيد تحضرها عن طريق رفع مستوى المرأة المعنوى والقانونى والأدبى من ناحية أخرى. فلم يكن غريبًا أن يبادر الإسلام إلى إنقاذها من الهوان والاضطهاد فقضى بتحريم وأد البنات تحريمًا باتا كما جاء فى القرآن الكريم «وإذا الموءودة سئلت. بأى ذنب قتلت» (التكوير ٨١) فحفظ لها بذلك إنسانيتها، ولم يكتف الإسلام بحماية آدميتها بل رفعها فورًا إلى مستوى الرجل إذ سوى بينهما فقال الرسول عنها فى حديث شريف: «إن النساء شقائق الرجال» ونزلت آيات الله الكريمة فى تسجيل هذه المساواة وردها إلى مصدرها الحقيقى الواقعى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (النساء: ١). وهذه الآية كما هو واضح تضع لنا أساس هذه المساواة بين المرأة والرجل باعتبار أن انفصالهما من رحم واحد يؤكد تساويهما فى حمل نفس الخصائص الطبيعية التى تكون ذات كل منهما. ويعود القرآن الكريم فيدعو إلى فرض احترام علاقة أخوية الرحم بينهما فى آية كريمة أخرى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١). وحكم الشريعة الإسلامية فى استقلال شخصية المرأة وتحريرها من عبودية الرجل يقضى على فرية تبعيتها له وهو ما تقطع به الآية الكريمة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل ٩٧). وهذا ولا شك هو المنطق السليم المتمشى مع طبيعة الأشياء. فكل نفس مسئولة عن ذاتها فى عملها، متحكمة فى مصيرها، متصرفة بإرادتها مادامت هى التى ستختص بالجزاء عما قدمت من أعمال. ولن يحمل غيرها وزرها..

حُقوق المرأة
فى الإسلام

وأتحدث الآن بشىء من التفصيل عن حقوق المرأة فى الإسلام ووضوح هذا الحق غاية الوضوح، وأنبه إلى أن الضجة القائمة التى يصطنعها البعض والتى يزعمون معها أن الإسلام يقف من حقوق المرأة موقفا سلبيا، لا صلة بينها وبين الإسلام وإنما هى ضجة مفتعلة يتزعمها البعض باسم الدين وباسم الشريعة الإسلامية. والدين فى أصوله وفروعه ينصف المرأة ولاينقصها حقا من حقوقها.

نعم. ليس عجيبًا من الإسلام وهو دين العدالة والإنصاف أن ينصف المرأة ويعترف بمكانتها ومنزلتها ويوفر لها ما تنشده من حياة كريمة عزيزة.

وهذا كلام لا ألقيه على عواهنه. وإنما أسوقه مؤيدا بالأسانيد الشرعية القوية التى تنطق فى وضوح وصراحة بما كفله الإسلام للمرأة من حقوق.

تحديد الزواج وتقييد الطلاق

ونحن ننادى بالتزام ماجاء فى كتاب الله تعالى وشريعة الاسلام الزاهرة من تحديد الزواج وتقييد الطلاق. ونحن حينما ننادى بهذا ننادى به لأنه دين الله وشرعه أولا. وننادي به وقاية للمجتمعات الإسلامية من الانهيار ثانيا. وننادى به على أنه حق للمرأة ثالثا. وننادى به لأنه دفاع عن الإسلام وتعاليمه فى نظر من لم يدرسوه من الغربيين رابعا.

ولكن خصوم المرأة الذين دابوا على محاربتها ابوا أن يسلموا بأن الإسلام يوجه إلى تحديد الزواج ويحسنه وإلى تقييد الطلاق ويزينه وقالوا: إن الإسلام لا يوجه إلى هذا أو ذاك.

والفيصل بيننا وبينهم فيما يزعمون. هو كتاب الله الكريم وسنة نبيه الكريم. وهما أساس الدين ومصدر التشريع.

فالقرآن الكريم فيما يتعلق بأمر تعدد الزوجات يقول ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٢]ويقول فى آية أخرى من هذه السورة أيضا ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩] .

***

والناظر فى هاتين الآيتين من ناحية ظاهرهما يفهم أنهما تهدفان إلى الآتى: ـ

١ـ أن تعدد الزوجات ليس فرضا ولا واجبا فى الدين.

٢ـ أن التعدد لايكون إلا عند أمن الخوف من عدم العدل.

٣ـ للتعدد تبعات جسيمة أقلها ما أشار إليه القرآن من ثقل تكاليف الحياة والأعباء بكثرة العيال.

٤ـ أن العدل غير مستطاع «وإن كان بعض الفقهاء والمفسرين يذهبون إلى أن المراد بالعدل غير المستطاع هنا هو العدل فى المحبة والمنزلة القلبية. أما العدل فى الحقوق والواجبات بين الزوجات فإنه ممكن ومستطاع».

***

هذا مايستفاد من ظاهر النص فى الآيتين ومع وضوحه فى التضييق فى أمر التعدد والحث على تركه إلا أن بعض الفقهاء يرون أن التعدد مباح إلى أربع بشرط أمن الخوف من الجور أو عدم العدل. ولايعلقون كبير أهمية على تحقيق هذا الشرط ولايسألون كيف يتحقق، ولم يقولوا بصراحة رايهم، ماهو الحكم فى التعدد عند عدم تحقق هذا الشرط ولايسألون: كيف يتحقق؟ ولم يقولوا بصراحة رأيهم، ما الحكم فى التعدد عند عدم تحقق هذا الشرط الذى ربط القرآن أباحة التعدد؟ مع أنهم فى

غير هذا الموضع يكثرون من القول فى التفصيل ويبحثون عن الحكم إذا لم يتحقق الشرط الذى اقترن بأمر ما من المباحات.

ولندع هذا الفريق من الفقهاء عند موقفهم الذى ارتضوه لأنفسهم وظلوا عنده لنرى موقف غيرهم من المدركين لأسرار التشريع والباحثين فيما وراء النص.

وهؤلاء يفهمون من الآيتين أن التعدد محرم عند احتمال الظلم والظلم فى التعدد لا مفر من وقوعه خصوصا فى عصرنا الحاضر ووقتنا الراهن الذى كثرت فيه مشاغل الناس بحياتهم وضعف سلطان الدين على الناس جملة من الأسباب لا مجال هنا لتفصيلها.

ومن هنا نظر هؤلاء الفقهاء إلى التعدد كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح للمضطر ويغتفر فى هذه الحالة مافيه من ظلم محقق ما لايغتفر فى غيرها من الحالات التى لم تدع إليها ضرورة ولم تلجىء إليها الظروف.

وهذا الرأى نادى به كثير من المجتهدين والفقهاء والعلماء الأعلام فالإمام محمد عبده يقول فى تفسير هاتين الآيتين(١):

«إن من تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الاسلام أمر مضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور، وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضيق مايترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لايمكن لأحد أن يربى أمة نشأ فيها تعدد الزوجات فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لايستقيم له حال، ولايقوم فيه نظام، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة».

ويمضى الإمام محمد عبده إلى أن يقول: «أما والأمر على مانرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع نشر تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر فى هذه

---

(١) الجزء الرابع من تفسير المنارة تفسير سورة النساء.

المسألة ـ خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ـ فهم لاينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة. وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل».

ومانذهب إليه الإمام محمد عبده نادى به المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الأسبق بل أكثر من ذلك أعد مشروع قانون فى هذا الشأن نادى به لوضع حد لتعدد الزوجات.

وذهب إلى هذا الرأى أيضا المغفور له فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الأسبق. وفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر الأسبق وفضيلة الشيخ علام نصار وأيدهم فى هذا الاتجاه جمهرة كبيرة من رجال الدين والفقه والاجتماع. وتجد آراءهم مبسوطة فى ملف الأسرة المودع بوزارة الشئون الاجتماعية.

***

ومع سلامة موقفهم واتفاق ماذهبوا إليه مع روح الإسلام وأسراره فلنفترض مع المفترضين أن الدين يأبى التحديد فى الزواج ويبيح التعدد إلى أربع كما يرون.

نفترض هذا ونتساءل: أليس من حق ولى الأمر أن يقيد مباحًا من المباحات أو يمنع منه إذا اقتضت المصلحة ذلك ودعت الحاجة إليه. أو أن هذا يكون بدعا فى الدين وخروجًا على أحكامه؟

الواقع أن هذا لايكون بدعا فى الدين ولا منافيا لشيء من أحكامه بل هذا هو ماجرى عليه العمل فى عصر الخلفاء الراشدين وعصور الإسلام الزاهية. ونجد هذا واضحا فى أعمالهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر حذيفة بن اليمان أن يطلق زوجته اليهودية وكان قد تزوج بها فى المدائن.

ومع أن الزواج بالكتابيات مباح وجائز بنص القرآن إلا أن عمر رضى الله عنه رأى أن المصلحة لا تتفق مع هذا الزواج فأمر بفصم عراه. وذلك لأن حذيفة كان أميرا يقود الجيوش وخشى عمر عليه أن تقاسمه حياته امرأة غير مسلمة قد تنقل أسراره وأسرار المسلمين إلى الأعداء فأمره بتسريح هذه الزوجة.

أليس عمر فى هذا قد قيد مباحا من المباحات التى أباحها الإسلام وهل بتصرفه هذا يقال عنه أنه خالف تعاليم الدين؟ أو أنه استعمل حقا له كولى للمسلمين فى تقييد مباح دعت المصلحة إليه؟

ومثل آخر غير بعيد عنا وهو عدم سماع دعوى الزوجية أمام المحاكم بدون وثيقة الزواج الشرعية.

فهذا أمر لم يكن منصوصا عليه فى الدين فالزواج فى العصور الأولى كان يكفى فيه مجرد العقد الشفوى وشهادة الشاهدين لكن لما كثرت دعاوى الزوجية أمام المحاكم وحار القضاء فى أمرها قيد ولى الأمر الزواج بضرورة إثباته فى وثيقة رسمية على يد مأذون ولا تسمع دعوى الزوجية أمام المحاكم بدون هذه الوثيقة.

أفليس هذا تقييدا لمباح من المباحات دعت إليه المصلحة وألجأت إليه الضرورة؟ وكان ذلك لمصلحة عامة للمسلمين.

إن الأمثلة كثيرة على إعطاء الحق لولى الأمر فى تقييد المباحات أو منعها لمصلحة الأمة الاسلامية.

وهل ينكر أحد اليوم مساوئ تعدد الزوجات لغير ماحاجة ملجئة؟ وهل ينكر أحد اليوم ماينجم عن هذا التعدد من آثار سيئة لا تعود على الزوج وزوجاته وحدهم وإنما يعود شرها على الأسرة والمجتمع كله؟

أعتقد أنه لاينكر هذا إلا جاحد أو معاند فكم من أسرة كانت سعيدة تحطمت بسبب تعدد الزوجات وتشتت أفرادها واضطربت أمورها.

أفلا تجيز هذه الحالة لولى الأمر أن يقيد الزواج إذا كانت مصلحة الأمة فى هذا التقييد على فرض أنه مباح بلا قيد ولا شرط كما يزعم البعض.

وأظن أنه هنا أولى وألف أولى أن يكون ذلك التقييد أمرا لابد منه ومصلحة لابد منها لأن التعدد اقترن به من الشروط مايجعله كالمحظور أو كالمحرم فيما سبق أن فصلناه.

***

والحق الذى لامراء فيه أن الشريعة الإسلامية شريعة سمحة قائمة على رعاية المصلحة ومن أهم قواعدها فى التشريع قاعدة « لا ضرر ولا ضرار» ومن أجل ذلك ننادى ولاة الأمور بسرعة إنجاز تشريع تحديد الزواج - حتى على فرض أن التعدد مباح - إقامة لحدود الله وحفظ لكيان المجتمعات الاسلامية ورحمة بالأبناء الذين يحرمون رعاية الآباء بانصرافهم عن تربيتهم والعناية بهم. وإعدادهم للحياة، إلى ملذاتهم وإشباع رغباتهم فى الزواج والتنقل بين النساء. فالزواج ليس متعة فقط كما يظن البعض وإنما هو شركة فى الحياة وتعاون وتضافر لإنشاء أسرة سليمة بالمعنى الذى أشار إليه القرآن الكريم إذا قال جل شأنه:

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة».

هذا هو مايوجه إليه الدين ومايدعو إليه الإسلام فى أمر تعدد الزوجات. وفى أثناء رحلتى الأخيرة دعوت إلى هذا وطالبت الحكومات الإسلامية بالعمل على تحقيق هذا الاتجاه وألقيت محاضرات وعقدت ندوات صحفية فى هذا الشأن لقيت كل تأييد واقتناع بضرورة تنفيذ التشريعات التى تستمد أحكامها من سماحة الإسلام وتعاليمه الحية ووعدت سيدات الإسلام فى كل من هاتيك البلاد بمواصلة السعى لدى الحكومات حتى تتحقق هذه التشريعات التى تصون كرامة المرأة الإسلامية أمام المجتمعات الأجنبية وتنفى عن الإسلام مايلصق به ظلما من تهم لا صلة لها من قريب أو بعيد بتعاليمه السمحة ودعوته الكريمة لخير الإنسانية.

وفى باكستان بالذات قامت ضجة حول آرائى فى حظر تعدد الزوجات إذ ماكدت أعلن هذه الآراء وأنادى بها حتى حظيت بالتأييد التام من سيدات هذا المجتمع ومن الطبقات المفكرة فيه ومن الرأى العام هناك بصورة واضحة عدا طبقة واحدة

عارضت آرائى لغرض فى نفسها أسفرت عنه الأيام فيما بعد. وهذه الطبقة هى طبقة العلماء وكان هدفها من معارضتى الانتصار لرئيس الوزراء هناك السيد محمد على فيما يهدف إليه من الاقتران بسكرتيرته على زوجته وقد تم هذا الزواج وباركه هؤلاء السادة الأعلام فى الوقت الذى استنكرته طوائف باكستان وقابلته بعاصفة قوية من الاحتجاج العنيف.

***

وقد أمعن السادة علماء باكستان فى تبرير رئيس وزرائهم فأصدر رئيسهم السيد محمد عبد الحامد البدايونى فتوى طبعها فى كتاب يرد فيها على وتفضل فحبانى بكثير من الأوصاف والنعوت كانت هى كل أسانيده ـ مع الأسف الشديد ـ فى الرد.

وفى أثناء زيارته لمصر فى نهاية هذا الشتاء قام بتوزيع هذه الفتوى وتيسر لى بطريق الصدفة المحض الاطلاع على فحواها وفى الحال كتبت ردا عليه وزعته على جميع أنحاء العالم الاسلامى وفيما يلى نص هذا الرد:

الرد على رئيس علماء باكستان في مشكلة تعدد الزوجات

وزع وفد علماء باكستان أثناء زيارته لمصر أخيرا رسالة صغيرة كتبها سماحة السيد محمد عبد الحامد القادرى البدايونى رئيس جمعية علماء باكستان ورئيس وفد علمائها إلى مصر، والرسالة عنوانها (درية شفيق وتعدد الزوجات) وقد تيسر لى الاطلاع على هذه الرسالة بطريق الصدفة المحض فوجدتها تضم بحثين هما فتوى من رئيس جمعية العلماء ومقال للسيد عبد الحميد الخطيب السفير السعودى هناك والفتوى والمقال كانا للرد على محاضراتى فى باكستان التى طالبت فيها بإصدار تشريعات فى البلاد الإسلامية تتفق مع شريعة الإسلام ومقاصدها فى عدم إباحة تعدد الزوجات إلا لضرورة ملحة لا لمجرد الزواج فى ذاته رعاية للأسر وإقامة لصرح مجتمع قوى سليم.

وإنى حينما قلت هذا وناديت وأنادى به - لم أخرج عما يتفق وسماحة الشريعة الإسلامية وروح التشريع الإسلامى فى شىء بل أن ماناديت به سبقنى إليه كثير من الفقهاء والمجتهدين من المتقدمين والمتأخرين وفى القرآن الكريم آيتان خاصتان بتعدد الزوجات هما قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣] والآية الثانية هى قوله تعالى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ» . [النساء ١٢٩]

قال الإمام محمد عبده فى تفسير المنار «إن من تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة من

الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور، وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضيق مايترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لايمكن لأحد أن يربى أمة نشأ فيها تعدد الزوجات فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لايستقيم له حال، ولايقوم فيه نظام، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر، يجىء الأولاد بعضهم لبعض عدو، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة».

ويمضى الإمام محمد عبده إلى أن يقول: «أما والأمر على مانرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع نشر تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة ـ خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ـ فهم لاينكرون أن الذين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة. وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل».

هذا ماقاله محمد عبده فى تعدد الزوجات ومتى يكون ومتى لايكون..

ويضيق بى المقام فى هذه العجالة لو ذكرت رأى غيره من العلماء الذين نهجوا هذا النهج وسلكوا هذا السبيل ولكنى أوجه النظر إلى ما استقر عليه رأى كثير من نوابغ العلماء والفقهاء إذ قالوا «إن المصلحة هى أساس التشريع والوقوف عند ظواهر النصوص ليس إلا نوعا من الجمود يمقته الإسلام ولايرضاه» وامتدحوا مسلك الخليفة عمر بن الخطاب فى تقدير المصلحة وحدها دون التمسك بظواهر النصوص حتى أنه منع صرف شىء للمؤلفة قلوبهم من الزكاة وإن كان القرآن قد جعل لهم نصيبا فيها لأن الحكمة من إعطائهم هذا النصيب قد انتهت بعز الإسلام ومنعته ولم يعد فى حاجة إلى هذا النوع من الناس.

على هذا النحو وهذا المسلك الواضح فى التشريع جرى عمل الصحابة وكبار المجتهدين حتى ابتلى الفقه الإسلامى بعصور التأخر فقعدت الهمم عن البحث

والتزم العلماء التقليد والوقوف عند ظواهر النصوص وإهمال روح التشريع والصالح العام.

ومما لاشك فيه أن التعدد قد أصبح الآن فاشيا لغير ضرورة ملحة والضرر المترتب على هذا التعدد الآن لا تلحق آثاره بالزوجين وحدهما ولكنه يتعداهما إلى الأولاد والبيئة والمجتمع ومشكلة الأطفال المشردين التى يضيق بها المصلحون ليست إلا أحد الآثار السيئة لتعدد الزوجات وما مشكلات الأسرة فى غالبها إلا أحد الآثار السيئة لتعدد الزوجات. أليس فى كل ذلك ضرر محقق وضربة قاصمة للمجتمعات الإسلامية التى تسعى للنهوض مما أصابها؟!.

إن ما أنادى به اليوم وأسعى لتحقيقه ليس من ابتكارى وإنما هو روح التشريع وحكمته نادى به من قبلى جلة العلماء والفقهاء وإنه من الظلم لهذا الدين السمح وشريعة الإسلام الغراء التى حبت المرأة بكل توقير وتكريم أقول إنه من الظلم بقاء هذه الأوضاع على ماهى عليه دون إصلاح وتنظيم.

وحرصا على سمعة الإسلام أمام خصومه وأعدائه ومنعا للفساد المتفشى المترتب على تعدد الزوجات ناديت ومازلت أنادى المسئولين فى كل بلد إسلامى بإصدار تشريع عاجل بمنع تعدد الزوجات لغير ضرورة ملحة يقدرها المختصون بتنفيذ هذا التشريع من رجال الفقه والاجتماع تمشيا مع روح الشريعة الغراء ومحافظة على كرامة المرأة الإسلامية وحفظا لكيان الأسر المسلمة من هذا الانهيار وبقاء على وحدة المجتمعات الإسلامية قوية سليمة من كل مايهدم كيانها ويقوض بنيانها.

تأييد من مولانا أبى الكلام آزاد في مشكلة تعدد الزوجات

وقد تلقيت من جميع البلاد الإسلامية كتبا لتأييد ردى على حملة جمعية علماء باكستان التى ظهر فيما بعد أنها لم تكن حملة بريئة لصالح الإسلام أو دفاعا عن دعوته وإنما كانت مجاملة لرئيس الوزراء وستر موقفه.

ويضيق بى المقام لو نشرت هذه الرسائل ويكفينى فى هذا المقام أن أنشر هذا الكتاب الذى تلقيته من مولانا «أبو الكلام آزاد» أحد علماء الإسلام الأعلام ووزير المعارف بالهند وصاحب ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية قال حفظه الله: ـ

«لقد اتفقت كل الاتفاق أراؤك ضد تعدد الزوجات مع روح الإسلام السمحة.. إن هؤلاء الذين يبيحون تعدد الزوجات بلا قيد ولا شرط أما أنهم جهلاء بتعاليم الإسلام، وأما أنهم يريدون عمدا من وراء ذلك تحريف هذه التعاليم».

***

وإن موقف هذا الرجل الفاضل وأمثاله من رجالات الإسلام فى كل بلد ليحفزنى على مواصلة سعيى وكفاحى لتحقيق مطالب المرأة العادلة التى كفلها الإسلام وحاولت تشويهها وطمس معالمها الغايات الشخصية وجمود المتزمتين.

الطلاق:

إذا وضح الرأى بالنسبة لتحديد الزواج فإن الأمر بالنسبة لتقييد الطلاق أشد وضوحا وأكثر بيانا.

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يخرج منهما بأن الطلاق لم يشرع ليعبث الأزواج به كما يفهم بعض العامة ويذهب إليه بعض الفقهاء ولكنه شرع مبغضٌ فيه ليكون وسيلة لفصم عرى الحياة الزوجية عن استنفاد كل الوسائل فى إصلاح مابين الزوجين وإنهاء مابينهما من شقاق.

يؤكد هذا كل التأكيد ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب من الذين لم يحسنوا فهم ماشرع الطلاق من أجله فقد روى أبو موسى الأشعرى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما بال أحدكم يلعب بحدود الله. يقول قد طلقت قد راجعت»: وإنه عليه الصلاة والسلام سمع أن رجلا طلق زوجته بغير ماأحل الله فقام مغضبا وقال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: «تزوجوا ولاتطلقوا فإن الله لايحب الذواقين والذواقات».

***

أظن بعد هذا البيان من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضيح الحكمة فى شرعة الطلاق لايحق لأحد أن يعارض فى ضرورة تقييد الطلاق والقضاء على الفوضى المتفشية الآن من إساءة استعمال هذا المباح «الطلاق» حتى أصبح خطرا على المجتمع وآفة من الآفات الفتاكة فى تقويض دعائمه وهدم كيانه.

واليس من صالح الإسلام نفسه اليوم العمل على العود بالطلاق إلى ماشرع من أجله وألا يقبل وقوع الطلاق من الزوج حتى يبدى عن الأسباب مايقنع القاضى فيوافقه على إيقاعه أو لا يقتنع بما قدمه الزوج من أسباب فيعظه بإمساك زوجه عليه كما فعل الرسول مع زيد بن حارثة حينما جاءه يعرض عليه طلاق زينب بنت جحش فيقول له أمسك عليك زوجك واتق الله.

***

إن الطلاق فى الأمم المتحضرة الآن مأخوذ فى أصله من الشريعة الإسلامية لأن ديانتهم لاتبيح الطلاق ومع ذلك فإن الزوج لايوقعه بنفسه بل لابد أن يرفع الأمر إلى القضاء ويثبت أمامه البواعث التى يقتنع بها القاضى حتى يوافقه على إيقاعه.

ونحن إذ نطالب بتقييد الطلاق وعدم قبوله إلا أمام القاضى لا نخالف فى هذا تعاليم الإسلام ولانحدث حدثا فى الدين وإنما نطالب بتطبيق تعاليم الإسلام فيما يهدف إليه من منع الفوضى فى وقوع الطلاق والحرص على أن يكون سبيلا لإنهاء الخلافات الزوجية لا أن يكون عبثا بالحياة الزوجية.

***

بيت الطاعة:

وقد تفتقت أذهان الفقهاء فى القرون المتأخرة عما يسمونه «بيت الطاعة» فأعطوا للأزواج بهذا التصرف سيفا مصلتا يستذلون به المرأة ويخرجون به الحياة الزوجية التى وصفها القرآن بأنها مودة وتراحم إلى حياة العبودية والرق وامتهان الإنسانية إلى أبعد الحدود فى نصف المجتمعات الإسلامية.

والإسلام فى أيامه الأولى وعصوره الزاهرة لم يعرف شيئا اسمه بيت الطاعة ولم يكن له وجود فى تلك العصور ولكنه وليد العهد التركى الذى كان ينظر إلى المرأة على أنها كم مهمل فى الحياة ومجرد متاع ولهو. وبقى هذا التقنين عندنا أثرا لهذا العهد البغيض الذى أفسد حياة الأمم الاسلامية وخيم عليها حينا من الزمان وصور حضارة الإسلام على أنها حياة رجعية تسلب المرأة كل حق لها فى الحياة.

ولايليق بنا أبدا وقد تخلصنا من هذا العهد البغيض أن تبقى آثاره جاثمة على صدورنا آخذة بخناقنا إلى اليوم.

وإن الواجب اليوم أن نعيد النظر فى هذا الوضع الشاذ وأن نسارع إلى تقويم الحياة الزوجية على ضوء تعاليم الإسلام التى لاتبخس المرأة حقها ولاتهضم حقوق الزوج وضعا للأمور فى نصابها ورعاية لعدالة الإسلام وإعطاء كل ذى حق حقه من الزوجين لأن هناك أزواجا فى الحياة لا هم لهم إلا الالتجاء إلى طلب زوجاتهم إلى «بيت الطاعة» لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تنازل زوجاتهم عن حق النفقة والسكن والكسوة عند الانفصال وعدم استطاعة إعادة الوئام بين الزوجين.

لابد من البحث عن وسيلة أخرى غير «بيت الطاعة» تحقق المودة والرحمة المنشودة فى الحياة الزوجية ولا خير فى حياة زوجية لا تكون الرحمة والوئام والإخلاص المتبادل رائدها..

اختيار الزوج:

ومن الحقوق التى كفلها الإسلام للمرأة حرية اختيار الزوج فلا يجوز إجبار المرأة بكرا كانت أو سيدة على التزوج بمن لاترضاه ومن لاتختاره شريكا لها فى حياتها.

فقد حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن جاءت فتاة إليه تبلغه أن أباها قد اختار لها ابن أخيه لتتزوجه دون أن يأخذ رأيها فى هذا الاختيار فغضب الرسول لذلك وفوضها أن ترد هذا الزواج مادامت لم تستأذن فيه، ولكن الفتاة ردت قائلة فى انتصار لقد أجزت أبى فى اختياره، ولكنى فقط أردت أن أعلم الناس أن ليس للآباء من الأمر شىء.

وقد خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها السيدة عائشة أم المؤمنين فلما فاتحت أختها فى هذا الأمر قالت لا حاجة لى فيه. ولما قالت لها أترغبين عن أمير المؤمنين قالت:

نعم. أنه خشن العيش شديد على النساء ولم تقبل التزوج منه وهو أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

ومن التقاليد التى كانت جارية فى الجاهلية المضاربة بالمهور على صورة أشبه ما تكون بعقد صفقات البيع والشراء فلم تكن المرأة فى نظرهم إلا سلعة تعرض فى مزاد فجاء الإسلام ليمحو عنها هذه الوصمة التى تهدر آدميتها وتؤذى إنسانيتها فحدد معنى المهور بأنها لا تعدو هدية زوج إلى عروس ورمزا معنويا قبل أن يكون ماديا لأقدس مايقوم بين البشر من علاقات وارتباطات وهى علاقة الزواج ورباطها الروحى. وفى ذلك قال الرسول وهو يضع للمسلمين مبدأ تقليد مهر الزوجة «خير الصداق أيسره» وكان عليه السلام يضرب فى ذلك الأمثال لقومه بقصة رميصاء التى جاءها أبو طلحة فتى العرب الثرى يطلب يدها ولكنها

رفضت الزواج منه لأنه مازال على كفره بينما هى سبقت إلى الإسلام ولما ألح عليها اشترطت لقبوله أن يكون مهرها هو كلمة التوحيد والشهادة بين يدى رسول الله.. فكان إسلامه هو المهر الذى عقد عليها به وباركه الرسول ودعا إلى الاحتذاء به أى أن لايخرج المهر عن كونه رمزا معنويا. وكان عليه السلام يقول كلما قل مهر الفتاة زاد قدرها. وهو يهدف بذلك إلى إخراج المرأة من الرق الذى كانت تسام فيه قبل الإسلام باسم المهر والزواج.

الحضانة:

ومن المشاكل التى فى حاجة إلى علاج سريع مشكلة الحضانة فالشريعة الإسلامية والحمد لله تحل هذه المشكلة حلا عادلا يحقق كل ما نرجوه لحلها، فالأئمة والفقهاء يتفقون جميعا على أن حضانة الصغير لأمه ولكن المشكلة تنجم عن السن التى تنتهى فيها حضانة الأم للصغير والعمل يجرى الآن فى قانون المحاكم الشرعية فى هذا الشأن وفق المذهب الحنفى وهو يجعل حضانة الأم للصغير تنتهى عند سبع سنوات إذا كان ذكرا وتسع سنوات إذا كانت الصغيرة أنثى.

ومن هذا تبدأ المشكلة فالصغير فى هذه السن شديد التعلق بأمه لايقوى على فراقها مهما تكن الدوافع والأسباب وهو فى هذه السن أيضا أحوج مايكون لعطف أمه وحدبها وشفقتها وانتزاعه من بين أحضانها فى هذه الآونة ليسلم إلى أبيه يسبب له صدمة قوية قد تؤثر على كيانه وأعصابه خصوصا وأن أباه ليس لديه من الوقت الكافى الذى يتوافر فيه على العناية بكل شئون الصغير كما تتوافر عليها الأم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الوالد يتسلم الصغير من أمه الحنون ليدفع به إلى زوجته التى لايعنيها من أمر الصغير شىء بل ربما بحكم كراهيتها لضرتها أو للزوجة الأخرى تتفنن فى إيذاء الصغير والانتقام منه فى شخص أمه أو على الأقل تهمل شئونه كل الإهمال ولايستطيع أن يشكو لوالده شيئا من هذا الإهمال خوفا من غضب زوجة أبيه. فضلا عن أن أمه لايهدأ لها بال ولايغمض

لها جفن شفقة على صغيرها الذى قد لاتدرى عنه شيئا منذ انتزاعه من أحضانها.

يحدث هذا باسم الدين، باسم الشريعة الإسلامية، والإسلام من كل ذلك براء فالفقهاء يختلفون فى السن التى تنتهى عندها حضانة الأم لابنها الصغير وكما يذهب الحنفية إلى تقدير هذه السن لسبع سنوات وتسع سنوات فإن غيرها يذهب إلى أن يظل الصبى فى حضانة أمه حتى سن البلوغ وفى مذهب مالك تبقى البنت فى حضانة أمها حتى تتزوج وهذا الرأى معمول به فى السودان.

والمعول عليه فى هذا الموضوع - موضوع الحضانة - هو مصلحة الصبى وإبقاؤه فى أحضان أمه إلى أن يصل إلى درجة الفهم والإدراك والاستقلال بشئون نفسه فهل الطفل الذى فى السابعة من عمره والبنت التى فى التاسعة من عمرها يقال إنهما قد وصلا إلى هذه المرتبة؟.

لايمكن أن يقال ذلك ولايقره عقل سليم وفهم مستقيم والمصلحة التى ينشدها الإسلام لاتتحقق أبداً مع بقاء هذا الوضع الذى يضر الأبناء والأمهات ويجر معه كثيرا من المشاكل والمتاعب التى لاداعى ولا مبرر لها.

ومادام لدينا من أقوال الفقهاء الآخرين متسع للقضاء على هذه المشكلة والآثار الناجمة عنها. فإننا نطالب المسئولين بتعديل سن الحضانة بحيث لايحرم الطفل من حنان أمه وهو من أهم العوامل فى تربية الأطفال إن لم يكن أهمها.

وبهذا نقضى على مشكلة من أخطر المشاكل فى حياتنا الاجتماعية وتتلافى آثارها السيئة وأخطاؤها العديدة ولانحرم الأبناء عطف الأمهات وحنانهن وحتى لانصدمهم فى عواطفهم صدمة عنيفة وهم فى مقتبل العمر وبداية الحياة.

حقوق المرأة السياسية:

وكما نرى موقف الإسلام الكريم من تأييد المرأة فى المساواة بالرجال والحقوق الأخرى المشتركة بينهم نراه لايمنع المرأة من التمتع بحقها السياسى والاشتراك فى الانتخابات ودخول البرلمان.

والذين يناهضون إعطاء المرأة هذا الحق لايستندون إلى سند من الدين ولكنهم يفسرون الدين على هواهم ووفق ميولهم كما يشاءون. كما حدث مثلا عند إباحة التعليم الجامعى للمرأة نهضوا يقاومون هذا الاتجاه ويحرمون عليها أن تنال قسطها من الثقافة وحظها من التعليم وكل هذه الضجة أحدثوها باسم الدين والدين منها براء.

ونصوص الإسلام نفسه ليس فيها نص واحد يمنع المرأة من مزاولة حقوقها السياسية بل الذى حدث كان عكس ماينادون به من أن الإسلام يمنع المرأة من التمتع بحقوقها السياسية. ففى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان النساء يخرجن فى الغزوات يقمن على خدمة المرضى ويشتركن فى القتال. فقد جاءت امرأة أبى ذر الغفارى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار فقلن: يارسول الله فقد أردنا أن نخرج معك ـ وكان الرسول يتأهب لغزوة خيبر ـ نداوى الجرحى ونعين المسلمين بما نستطيع. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم على بركة الله وخرجن معه.

ولما انتهت الغزوة أعطاهن الرسول صلى الله عليه وسلم من الفىء «الغنيمة». وزاد رسول الله فى تكريم امرأة أبى ذر بأن أعطاها قلادة وضعها بيده الشريفة حول عنقها تكريما لموقفها وبلائها.

كان هذا أول وسام لامرأة مجاهدة فى الإسلام.

وفى موقعة أحد دافعت أم عمارة بسيفها وبقوسها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جرحت.

وفيما رواه الإمام الحافظ بن حجر فى شرحه على البخارى أن أم عطية قالت سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول «يخرج العواتق وذوات الخدور وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين[1]».

(١) العواتق: جمع عاتق وهى البنت البالغة التي تستحق الزواج أو الكريمة الأصل.

أفليس هذا دليلا أبلغ دليل على أن الإسلام أباح للمرأة مزاولة حقوقها السياسية واستعمالها دون اعتراض عليها؟

إن الإسلام لايمنع أن تكون المرأة ناخبة ونائبة. وقد زعم البعض أن هذا نوع من الولاية كما زعموا أن الولاية لاتكون إلا للرجال وقد أباح بعض الفقهاء الأعلام للمرأة أن تتولى القضاء كما ذهب ابن جرير الطبرى وكما ذهب الإمام أبو حنيفة وفقهاء مذهبه فقد جاء فى شرح العناية على الهداية فى مذهب الحنفية فى الجزء الخامس صفحة ٤٨٥ «أن قضاء المرأة جائز عندنا فى كل شىء إلا فى الحدود والقصاص اعتبارا بشهادتها»

فإذا جاز للمرأة أن تلى القضاء فى مختلف الشئون. فى المال وفى الزواج وفى الطلاق وفى القسمة وفى غير ذلك مما أباحه لها الفقهاء أخذا من نصوص الدين أفلا يجوز لها أن تستعمل حقها فى إعطاء صوتها فى الانتخابات وفى اختيار من يمثلها فى البرلمان وفى جواز أن تكون نائبة تنادى بالإصلاح تحت قبة البرلمان؟

***

إن الأحاديث الصحيحة كلها متضافرة على جواز خروج المرأة من بيتها لقضاء مصالحها وكسب رزقها من عمل شريف وأن من حقها أن تشهد المواقع الحربية وأن تصلى العيدين والجمعة والأوقات المفروضة فى المسجد وأن تكون ناظرة ووصية وأنها تشهد الخير ودعوة المؤمنين.

فهل يجوز بعد هذا البيان من الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقائل أن يقول إن الدين يمنع المرأة من استعمال حقها فى الانتخاب والنيابة عن الأمة؟

إن الذين ينادون بحرمان المرأة من هذا الحق إنما يظلمون الدين ويقسون على أنفسهم بانتحال شتى الأسباب والمعاذير لتأييد رأيهم والانتصار له. غير أنهم لم يذكروا دليلا واحدًا يستندون إليه من الدين سوى الحديث الذى يرددونه وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ولى أهل فارس عليهم بنت كسرى «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وأين هذا مما نحن فيه..؟

ويقول الذين يعارضون فى مزاولة المرأة لحقوقها السياسية: إن هذا نوع من الولاية العامة وليس فى مصدرى الشريعة الإسلامية «الكتاب والسنة» أى دليل على ذلك.

وأنا لا أدرى كيف يجرؤ هؤلاء على تشويه الحقائق وطمس المعالم إلى هذا الحد؟! ألم يقرءوا قول الله تعالى «**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**».

والآية الكريمة تتضمن أن المؤمنات لهن من الولاية العامة فى شئون المؤمنين جميعًا مثل ما للرجال من هذه الولاية فى شئون المؤمنين والمؤمنات جميعا أى أن إصلاح هذا المجتمع وتدبير شئونه أمانة عامة يتحملها كل مؤمن وكل مؤمنة وكل منهما مسئول عن ذلك.

وهذه الآية تنطق صراحة بجواز مزاولة المرأة لحقوقها السياسية كالرجل سواء بسواء وأنها مكلفة بذلك فإن قصرت فى ذلك كانت مقصرة فى حق المجتمع الإسلامى وفى واجب فرضه عليها الإسلام.

إن الدين فى جانب المرأة وقد أوردت فيما أوضحت جملة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلها تتضافر على إعطاء المرأة حقها السياسى ولاتحول بينها وبين الاشتراك فى الانتخاب وعضوية البرلمان.

ومع هذا البيان الواضح فإنهم حينما يضيق أمامهم المجال يتذرعون بكلام بعيد عما نحن فيه. فهم يقولون إن الإسلام نقص حقوق المرأة عن حقوق الرجل ومن أجل ذلك لايجوز للمرأة أن تشترك فى الانتخابات ولاتكون عضوا فى البرلمان.

وإلى هؤلاء القوم أسوق تفسيرا علميا لأحد كبار أقطاب الدين فى مصر هو فضيلة الأستاذ علام نصار مفتى الديار المصرية السابق. وفيه يفسر للمسلمين حكم الإسلام فى المساواة بين المرأة والرجل ونظرته إلى مكانتها السامية فى المجتمع الاسلامى. إذ يقول:

«إن الإسلام ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى الرجل من الوجهة الإنسانية وكمال الحقوق والشخصية. وليست الأنوثة والذكورة فى نظر الإسلام فارقا فى تقرير الشخصية الإنسانية. إن للمرأة فى نظر الاسلام كل ما للرجل من الحقوق وعليها ما على الرجل من واجبات. وإذا وجد فارق ظاهرى فى بعض الأمور فإنما يكون مرجعه طبيعة الرجل والمرأة والفرق بينهما بحسب الفطرة والتكوين فالإسلام يقرر للمرأة حقوقها كاملة فى الملكية فهى حرة التصرف فيها كالرجل تماما وليس للرجل عليها أى سلطان على أموالها. ولعلى لا أكون مخطئا إذا قلت: إن بعض الدول المتحضرة الحديثة تجعل للرجل تدخلا فى التصرف فى أموال زوجته، ولكن الإسلام لايعطى للرجل هذا الحق، وهذا من أكبر الأدلة على احترام شخصية المرأة وأنها ليست أقل من شخصية الرجل فى الإسلام..

«والمرأة فى الشريعة الإسلامية ترث فى أبويها ومن أقاربها وغيرهم كما يرث الرجل وإذا كان مقدار نصيبها فى الميراث نصف مقدار نصيب الرجل فليس هذا لأن شخصيتها أقل من شخصية الرجل، ولكن روعى فى ذلك أن المسئوليات المالية كانت عند ظهور الإسلام قد ألقيت كلها على الرجل، ويكفى أن نقرر أنه فى مقابل ذلك نجد نفقة الزوجة على زوجها وأولاده على أبيهم لا على أمهم. فالاختلاف فى مقدار النصيب ناشئ من اختلاف التبعات التى ألقاها الدين الإسلامى على كاهل المرأة والرجل لا على أساس أن شخصية المرأة أقل من شخصية الرجل فى الاسلام. إن المرأة والرجل فى حكم الإسلام متساويان وفى القصاص يقتل الرجل فى المرأة كما تقتل المرأة فى الرجل فالشخصيتان متساويتان، كذلك الحقوق بين الزوجين مبنية على المساواة ولكل منهما على الآخر حقوق يقتضيها نظام الأسرة وحسن المعاملة وتأسيس المنزل على قواعد ثابتة توصله إلى السعادة ولم يوجب الإسلام على الزوجة أن تقوم بخدمة المنزل للزوجين. ولكن إذا اقتضت عواطف الزوجة والأمومة بالنسبة للأولاد أن تتقدم هى من ناحيتها لخدمة المنزل أو المساهمة فيه فلا ريب أن هذا يرجع إلى كرمها وطيب شعورها نحو كيان الأسرة. كذلك جعل الاسلام للمرأة حرية اختيار الزوج وحرية العقد ومباشرته مادامت وصلت إلى درجة الأهلية للزواج وهذا من براهين أن الإسلام يقرر شخصية المرأة فى أهم نواحى حياتها. هذا وقد أعطى الإسلام

للزوجة حق طلب الطلاق والفرقة بين الزوجين اذا ساءت العشرة أو اعتدى الزوج عليها اعتداء يتنافى مع سعادة الزوجية ويؤثر فى كيانها».

ويمضى الأستاذ علام نصار فى تفسيره فيشرح لنا معنى الآية الكريمة:

«الرجال قوامون على النساء»

فيقول «كل اجتماع وكل تكوين اجتماعى حتى نظام السماوت والأرض لابد أن يكون فيه مسئول أول. فهل معنى «الرجال قوامون على النساء» أن شخصية المرأة أقل من شخصية الرجل. ليس المعنى كذلك بل إن طبيعة الاجتماع فى كل مجتمع ومنه مجتمع الأسرة لا تنظم إلا بأن تكون المسئولية فيه والكلمة الأخيرة لشخص واحد. وليس إعطاء الكلمة الأخيرة للوزير فى وزارته أو لمفتى الديار المصرية فى دار الإفتاء أن الموظفين الآخرين الذين لديهم مؤهلات كمؤهلات الوزير أو المفتى منتقصون فى إنسانيتهم أو فى حقوقهم بل إن ذلك الاختلاف فى المسئوليات وجعل الكلمة الأخيرة فى يد شخص واحد تقتضيه طبيعة الاجتماع فى كل جمعية ومنها الأسرة. فإن النظام يقضى بأن تكون الكلمة الأخيرة لأحد الزوجين ولو وجدت للمرأة فى مجتمع شرقى لوجد الاعتراض. ولو كانت لهما معا لفسد نظام الاجتماع. وهذه نظرية لايختلف فيها العقلاء. يجب أن يعرف الجميع الفوارق أن المسئولية التى ألقاها الإسلام على الرجل العربى عن المورد المالى الذى به قوام المنزل ومايستتبعه من مجهودات كل هذا أدى إلى جعل الكلمة الأخيرة فى المنزل له.

وهذا تفسير قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء. بما أنفقوا من أموالهم).

إن المسألة إذًا ليست سوى توزيع مسئوليات بحسب النظام الاجتماعى كما يقول فضيلة العالم الكبير مفتى الديار الأسبق.

شجرة الدر
امرأة دخلت التاريخ

لقد رأيت أن أفرد فصلا خاصًا لمناقشة تاريخ هذه المرأة التى كانت جارية فأصبحت سلطانة.. فشجرة الدر هى السيدة التى لعبت فى العصور الوسطى أخطر الأدوار وحملت بمفردها عبء الحكم فى أدق الظروف، وكان لها الفضل الأول فى قهر جيوش الصليبيين وردها عن مصر.

وتاريخ شجرة الدر يمثل أحد المراحل الانتقالية التى مرت بمصر، وهى المرحلة التى وصلت بين الفتح الإسلامى والفتح العثمانى لمصر. وفى الصفحات التالية سأحاول تحليل شخصية هذه المرأة التى بدأت حياتها جارية تباع فى سوق الرقيق.. فلم تلبث بقوة شخصيتها وصلابة عزيمتها أن أصبحت سلطانة تدين لطاعتها رقاب السادة والعبيد.. فهى شجرة الدر أم خليل أول امرأة فى الإسلام تلى عرش كليوباترة.. عرش الفراعنة والبطالسة الأقدمين.

***

فى حى من الأحياء الفقيرة بالفسطاط (العاصمة السابقة لمصر حيث يوجد الآن حى مصر القديمة) وفى مطلع القرن الثالث عشر ولدت شجرة الدر تلك المرأة التى أصبحت فيما بعد سلطانة، والتى غدا اسمها علما على جميع الأفواه.

ولقد حاولت أم شجرة الدر أن تمنع بشتى الطرق مولد طفلتها إذ كان لديها من الأولاد ما ينوء بحملهم الأغنياء فذهبت إلى المشعوذات تطلب معونتهن فى تخليصها مما احتوته أحشاؤها ولكن مساعيها ذهبت أدراج الرياح فخرجت

شجرة الدر رغم إرادة الجميع. ويظهر أن الظروف التى أحاطت بمولدها قد أثرت على جرى حياتها وشخصيتها. فقد شعرت منذ فجر حياتها بأن المجتمع ينكر وجودها وهى الطفلة الفقيرة التى لا صفة لها.. ولا حاجة إليها، وكان لهذا الشعور تأثيره على سلوكها فبدت وكأنها تريد أن تنتقم.. تنتقم من هذا القدر الذى جعلها تولد ظلما فى هذه البيئة التى تفوح منها رائحة الجوع والبؤس والتى أعطتها ذلك القلب الطموح الذى لا يقنع أبدا مهما قدم له ذلك القلب الذى يطلب مزيدا من الرفعة أو فيضا من الإكرام.

وكانت شجرة الدر طفلة رائعة الجمال، خجولة طموحة إلى أبعد حدود الطموح ينم مظهرها عن تطور من المجتمع الذى تعيش فيه بينما يخفى نفسا جياشة وقلبا نابضا بشتى الأحاسيس..

وما أن بلغت السادسة عشرة من عمرها حتى اشتعل قلب ابن عمها هياما بها. وكانت أسرته أحسن حالا من أسرتها. وقد باركت الأسرتان هذا الحب واعتبرتا الشابين فى حكم الخطيبين وكيف لا وهذا الزواج سيضمن لها حياة رغدة وسعة من العيش؟

جلست شجرة الدر ذات مساء تفكر فى هذا الزواج طويلا فخرجت بقرار يدل على طموح جنونى وأمل خيالى فى مستقبل حافل. لقد أرسلت شجرة الدر واحدة من صديقاتها إلى ابن عمها تعلنه بأنها لن تتزوجه وما لبثت أن عادت الصديقة وقد لمعت عيناها ببريق الانتصار لتخبر شجرة الدر بأنها اتفقت مع الخطيب المرفوض على أن تحل محلها!

وحضرت شجرة الدر حفلة زواج ابن عمها من صديقتها دون أن تبدى تململا أو ضيقا. وزاد انطواؤها على نفسها فلجأت إلى القراءة تدفع بها عن نفسها غائلة الحزن. لقد تعلمت القراءة على الرغم من سخرية من حولها وشجعتها أمها على ذلك، وساعدتها على الوصول إلى نهل العلم بكل ما أوتيت من وسائل.

وعندما بلغت شجرة الدر الثامنة عشرة توفيت أمها فكانت هذه أول ضربة تصاب بها، بل لعلها كانت أكبر صدمة فى حياتها. إذ بدأت الوحدة تكتنفها وتعتصر قلبها. أما والدها فقد برح به الحزن فأصبح البيت كئيبا وفى يوم من

الأيام قررت شجرة الدر ترك منزل الأسرة فلم يكن أمامها إلا وسيلة واحدة هى أن تبيع نفسها فى سوق الرقيق ليكون فى ثمنها ما يخفف آلام الفقر عن أسرتها!

ذهبت الفتاة الرقيقة إلى السوق تعرض نفسها على المشترين. ولكن أحدا لم يلتفت إليها أول الأمر، بينما أقبل الناس يتهافتون على شراء الفتيات ذوات الأجسام الممتلئة. لقد شعرت صاحبتنا مرة أخرى أن العالم الخارجى لا يفهمها ولا يقدرها حق قدرها. إنها فى هذه السوق كما كانت فى البيئة التعسة التى ولدت فيها. الغريبة التى لا يرغب فيها أحد. ولكن لم يلبث أن برز من هذا الجمع رجل يدل مظهره على الثراء والقناعة فى نفس الوقت. وبدون مقدمات عرض لشراء شجرة الدر ثمنا لم يكن يحلم به أحد. وهكذا تمت الصفقة فى دقائق معدودة ومشت الأمة خلف سيدها الجديد واجفة القلب. وأنه لم يكن سوى كاتم سر السلطان. واتجه الاثنان نحو القلعة حيث يقيم السلطان الكامل. وبينما هى تلج الباب الكبير هفا خيالها بأمل كان يبدو لها لحظتها حلما بعيد المنال. فقد تصورت نفسها سلطانة هذه القلعة.

توجهت شجرة الدر إلى حريم ولى العهد الأمير الصالح وكان يكبرها بأربع سنوات. وقد استقبلتها مربية الأمير العجوز عزة فأشفقت عليها، ثم تحول هذا الإشفاق شيئا فشيئًا إلى حب عميق..

وكان جو القلعة ملبدًا فإن والدة ولى العهد كانت قد طلقت وانتقل نفوذها إلى السلطانة الجديدة سودة تلك السيدة القاسية التى كانت تكره ولى العهد الأمير الصالح كرها شديدا وكانت تعمل بكل ما أوتيت من قوة وجبروت على إحلال ابنها العادل محله فى ولاية العهد وكان يصغر الصالح بتسع سنوات. فلم يكن لسودة إلا أمنية واحدة هى التخلص من ولى العهد!

وفى مساء اليوم الذى وصلت فيه شجرة الدر إلى القلعة قامت عزة بتجميلها وتزويدها بالنصائح ثم أدخلتها حريم الأمير. لقد كانت طفولة الصالح تعسة إلى أبعد حدود التعاسة فقد نما وحيدا وفى نفسه عقد أثرت فى سلوكه فجعلته ينطوى على نفسه، ويشرف على الحياة من خلال منظار أسود.

ولما دخلت شجرة الدر القاعة الكبرى حيث يقضى الأمير أمسياته أحاطت بها نساؤه من كل جهة، وكن جميعا على درجة كبيرة من الجمال وانبرت أحداهن ترقص فى خفه وإبداع. أما شجرة الدر فكانت خجولا على الرغم من أنفتها وكبريائها فانزوت فى أحد أركان القاعة وجلست واجفة من مجرد التفكير فى أنها ستنازع هؤلاء النساء الساحرات جمالهن وإغراءهن. ولمحها الصالح وهى على هذا الحال. رأى قدها الأهيف وقد توج بوجه غاية فى الجمال . إن تقاطيعها وقوة شخصيتها ما لبثا أن حركتا كوامن نفسه بل لعل بريق التعاسة فى عينها قد مس التعاسة الدفينة فى قلبه. فطلب من نسائه إخلاء القاعة ليظل مع شجرة الدر. وكان من الطبيعى أن تغار غريمات شجرة الدر ويتعاهدن على الخلاص منها مهما كلفهن الأمر!.

واستطاعت شجرة الدر بعد مضى سنتين من دخولها القلعة تحقيق بعض أهدافها فقد دالت دولة حريم الأمير فى القصر. وأصبحت بمفردها محظية دون منازع. ولم ترض زوجة السلطان بهذا الوضع الجديد فقد بدا لها خطر شجرة الدر واضحا. ألم تستطع بعد فترة وجيزة أن تؤثر على الأمير؟ إن ذكاءها سوف يحول بلا شك بينها وبين تحقيق أهدافها، ألا وهى إبعاد الصالح عن العرش وإحلال ابنها العادل محله. إن كراهيتها لشجرة الدر أصبحت أشد وأعظم من كراهيتها للصالح.

وفى دمشق كان أمير الكرك يتآمر على السلطان الكامل ويحاول أن يسىء إلى سمعته. وقد علم السلطان الكامل بأمر المؤامرة فى حينها فقرر الزحف على دمشق. ورأت سودة أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مآربها فأقنعت الكامل بأن يصحب معه ابنه الصالح إلى حصن حيفا ويتركه هناك وكانت سودة تؤمل أن يصبح ولى العهد منسيا فيخلو الجو لابنها العادل.

واضطر الصالح أن يخضع لمشيئة والده واصطحب معه فى المنفى شجرة الدر وعزة وصديقه الشاب بيبرس الأمير المملوك.

وقبل أن ترحل عن مصر وفى أثناء إعداد معدات السفر استطاعت شجرة الدر أن تضم إلى حلفها الأمير فخر الدين صديق الصالح الذى عاهدها على أن يظل مخلصا لها ولمشاريعها رغم بقائه فى مصر.

ويعتبر النفى إلى حصن حيفا المرحلة الأولى فى تبلور أطماع شجرة الدر. فقد كان عليها أن تتزوج بالصالح وقد واتتها الظروف حينما ولد لها الطفل خليل الذى أشاع مولده السعادة والبشر فى نفس الصالح فتزوج شجرة الدر. وأصبحت الأمة مرتبطة بالرباط المقدس مع الأسرة الحاكمة. ولكن هذا النجاح لم يكن ليرضى «أم خليل» التى لم تكن لتقنع بهذا القليل!

وفى هذه الأثناء. كان فخر الدين الذى وكل اليه الدفاع عن مصالح شجرة الدر وزوجها فى القاهرة يتبادل وأياهما الرسائل فيعلمها فى آخر رسالة له بنبأ وفاة السلطان الكامل بدمشق ولما كان الكامل واقعا تحت تأثير زوجه سودة فقد كان يكره شجرة الدر وابنه وارث العرش من بعده ولذا أقدم السلطان قبل أن تحين وفاته على حرمان ابنه الأكبر من العرش وأعطاه لابنه العادل نزولا على إرادة سودة. وهكذا صعد السلطان العادل الثانى على عرش مصر وسوريا.

لقد أشرفت شجرة الدر على الثلاثين فتبدلت طباعها وتغيرت، لقد بارحها الخجل منذ وقت طويل وأصبحت أكثر جرأة عن ذى قبل فى اتخاذ القرارات وتنفيذها، وغدت ترسم خططها وتعدها وفقا لتفكير ناضج وعقل راجح. وبعد مضى بضعة شهور على المناداة بالعادل الثانى سلطانا حانت الفرصة لشجرة الدر لتنفذ خطتها ذلك أن أحد خصيان قلعة دمشق تمكن من المناداة بنفسه أميرا على دمشق. وقد نقل بعض الجواسيس إلى شجرة الدر أن أمير دمشق الجديد قلق على مصيره وأنه يتطلع إلى الاستيلاء على سنجر حيث له فيها حلفاء عديدون. وتبينت شجرة الدر بحذقها الفائدة التى ترجع عليها من وراء هذا الموقف الجديد. فوضعت خطة حرصت على تنفيذها على دفعات. إنها اليوم فى حاجة إلى سوريا ثم يأتى بعد ذلك دور مصر. وها هى ذى ترسل أحد أتباعها إلى الخصى ليعرض عليه اتفاقا يخول له الاستيلاء على سنجر التى تقع فى حوزة

الصالح على أن يعطى للأخير دمشق. ويقبل الأمير هذا العرض. و يدخل الصالح وشجرة الدر دمشق دخول الفاتحين الغزاة. وقبل أن تترك شجرة الدر حصن حيفا أقنعت الصالح بأن يترك فيه طوران شاه ابنه من امرأة أخرى.

إنها ترغب فى أن يخلو الجو تماما لابنها خليل مما جعل طوران شاه يحقد عليها طول حياته . وهكذا اصطحبت شجرة الدر معها «خليل وعزة وبيبرس».

ولم يكن احتلال دمشق لينسى شجرة الدر أهدافها.. ففى فزان يحيك الأمير فخر الدين مؤامرة ضد العادل الثانى بوحى منها ويشترك معه فيها أصدقاؤه من الأمراء المماليك. ولكن المؤامرة تفشل لسوء حظ شجرة الدر. وفى نفس الوقت يزحف الصالح وشجرة الدر على رأس جيش صغير على مصر تاركين ممثلا لهما فى دمشق.. وفى طرابلس يتوقف الجيش عن المسير انتظارا للمدد. وعلى حين فجأة يهجم أحد أتباع الصالح غدرا على دمشق فيحتلها ويطرد الحاكم المعين من قبل الصالح الذى كاد اليأس أن يقضى عليه، ولكن شجرة الدر ما لبثت أن أعادت الثقة إلى نفسه وجعلته يقرر العودة إلى حصن حيفا ليعيد تنظيم جيش جديد يحل محل جيشهما الذى لم يبق من جنوده مخلصًا لهما الا حوالى المائة من الكرخ فأسرهما. ولكن شجرة الدر استطاعت بعد بضعة شهور إقناع الأمير بالإفراج عنهما بل تمكنت من التحالف معهما استعدادًا لاسترداد مصر!

وفى هذه الأثناء كان فخر الدين بأمر منها يُعد مؤامرة جديدة ضد العادل الثانى فإن فشل المؤامرة الأولى لم يقعده عن عزمه. وها هو ذا ينجح فى هذه المرة ويودع العادل الثانى السجن. وهكذا تهيأ الجو للصالح فتولى عرش مصر.

وجاء رجل ذات يوم إلى السلطان الصالح وقدم له مملوكًا تركيًا يسمى أيبك وكان أيبك شابا فارعًا وسيم الوجه ذكيا ولا غرابة فى أن نراه يتقدم على غيره بسرعة فيصبح كاتم أسرار السلطان وهنا تنشأ علاقة حب قوية بين شجرة الدر وهذا الشاب وقد حاول كل منهما التخلص من هذه العاطفة بشتى الطرق. فإن أيبك يدين للسلطان بكل شيء وشجرة الدر لا يرضيها أن تخون سيدها ولا ترضى أن تتغلب عواطفها على إرادتها فتحول بينها وبين تحقيق أطماعها. وبالإضافة إلى ذلك فإن أيبك كان زوجا ووالدا مما يزيد الموقف تعقيدًا.

ويموت فى هذه الأثناء خليل بن شجرة الدر التى لا تستسلم لليأس بل تقرر أن تحتفظ بالسلطة مهما كلفها الأمر ومضت الأسابيع وتلتها الشهور واعتقد أيبك وشجرة الدر أنهما انتصرا على حبهما انتصارا لا رجعة فيه. ويقترف فخز الدين ذنبا يلقى من أجله فى السجن.

وعلى حين فجأة يحاصر القديس لويس التاسع ملك فرنسا ثغر دمياط من كل جهة. أنها الحرب الصليبية. وكان الصالح لسوء الحظ مريضا فتأخذ شجرة الدر وأيبك على عاتقهما مهمة الدفاع عن دمياط ويقذفان بنفسهما فى المعركة . ولما كان فخر الدين رجل السيف المشهود له بذلك من الجميع فى السجن فقد أطلق سراحه، وطلب إليه أن يدافع عن دمياط وانتقلت القيادة العامة إلى أشمون طناح وهى بلدة فى منتصف الطرق بين القاهرة ودمياط على رأس جيش كبير. وكانت هذه المدينة مستعدة للصمود للحصار ستة أشهر.

وازدادت حالة الصالح سوءا بعد انتقاله إلى أشمون طناح. وانتهز فخر الدين الفرصة ليثأر لنفسه من السلطان الذى أمر بإلقائه فى السجن فبدلا من أن يدافع عن دمياط وهو أمر سهل ميسور تقهقر عنها بجيوشه فدخلها الصليبيون وعاد هو بجيشه كله نحو أشمون تلاحقه جيوش الفرنجة. وانتقلت القيادة العامة إلى المنصورة حيث دارت المعركة الفاصلة!

وكان على شجرة الدر أن تعود إلى كسب ثقة فخر الدين فإنه رجل الساعة ولا أحد غيره يستطيع إنقاذ الموقف العسكرى فدعته إلى مقابلتها وتمكنت من إقناعه ورده عن عزمه الأول. فوعد فخر الدين بأن يرد الفرنجة على أعقابهم وكانوا قد وصلوا إلى المنصورة على الضفة الأخرى للنيل وبينما كان كل فريق يعد نفسه للمعركة الحاسمة توفى الصالح. وكانت شجرة الدر تعلم أن انتشار هذا الخبر من شأنه أن يزيد الموقف سوءا فاتفقت مع أيبك وفخر الدين على كتمانه موقتا إلى أن تنجلى الحالة. وبدأت كفة فخر الدين ترجح على كفة الصليبيين فوقع القديس لويس أسيرا فى أيدى المصريين وتقهقرت فلول جيش الفرنجة نحو فارسكور!

ثم أرسلت شجرة الدر تستدعى ابن زوجها طوران شاه ليخلف والده على العرش وحضر طوران شاه على عجل... ولكن المماليك لم يلبثوا أن ثاروا عليه لفساده وعجرفته. وقتلوه بعد موقعة فارسكور التى نجحت شجرة الدر خلالها فى انتزاع النصر لمصر ورد الأعداء عنها..

وكان على الشعب أن يختار من يحكمه بعد أن مات ولى العهد . وأمام القوة الخارقة التى كانت تمتاز بها شخصية شجرة الدر، والتى سيطرت بها على قلوب الناس جميعا بما أحرزته من انتصارات متوالية فى المعارك الحربية التى خاضتها إلى جانب زوجها وبمفردها بعد موته إلى جانب ما اشتهر عنها من قوة العزيمة وروح الإصلاح وحسن التدبير مما لم يكن يتمتع به واحد من حكام أسرة زوجها.. أمام ذلك كله سارعت جموع الشعب إلى اختيار شجرة الدر سلطانة على مصر فى إجماع رائع...

ولكن .. كان هناك بعض من الحاقدين عليها من الأمراء. .فلم يلبثوا أن أثاروا عليها خليفة المسلمين فى بغداد.. الذى كان له الأولوية على المسلمين.. منتهزين فرصة محاولة شجرة الدر الاستقلال بمصر استقلالا تاما عن ولاية الخليفة.. للدس بينها وبينه فلم يلبث الخليفة أن أرسل خطابا بعزلها عن العرش بحجة إنها امرأة!!

واجتمع الشعب والأمراء فى القلعة ليستمعوا لرسالة الخليفة.. حتى إذا فرغوا من سماعها تعالت الأصوات واحتدم الجدل. الشعب يصر على استبقاء هذه المرأة التى استطاعت فى شهرين فقط من حكمها أن تحقق له من الرفاهية والإصلاح والاستقرار ما لم يتحقق فى عشرات الأعوام قبلها. وأعداؤها المغرضون يطالبون باحترام رغبة الخليفة فى عزلها وكلهم طامع فى الوصول لمقعد الحكم.. وهنا تتجلى حكمة المرأة وتضحياتها عندما يكون عليها أن تختار بين مصلحتها والمصلحة العامة.. فقد ارتفع صوت شجرة الدر من خلف الستار الذى كانت تحضر الاجتماع من ورائه.. ارتفع صوتها قويا فوق كل صوت.. تعلن تنازلها بإرادتها عن العرش حرصا على الوحدة وحقنا للدماء. وكان تنازلها لأيبك

أحد المماليك لما توسمت فيه من مقدرة على القيام بحكم البلاد حكما عادلا... وكان تولى أيبك حكم مصر هو فاتحة عهد حكم المماليك الذى أسسته شجرة الدر.

وهكذا انطوت صفحة مجيدة من تاريخ مصر.. باختفاء ظل شجرة الدر عن مسرح السياسة المصرية.. ولكن بعد أن ضربت للأجيال مثلا رائعًا فى جدارة المرأة المصرية وصلابتها وذكائها وحكمتها..

المصريات يهزمن نابليون بونابرت

إن المتتبع لسلسة المقاومات الوطنية التى أعلنها شعب مصر ضد الحملة الفرنسية تسترعى انتباهه ظاهرة خطيرة. هى أن المرأة المصرية كانت أسبق نساء العالم أجمع إلى الاشتراك فى حرب العصابات، فقد اشتركت بنفسها فى تلك المعارك الرهيبة التى خاضها شعبنا الأعزل ضد أضخم وأحدث جيش دوخ أوروبا بأسرها جيش نابليون بونابرت!

ولا شك أن مساهمة المصريات فى تلك المعارك الشعبية كان ملهبا للشعور الوطنى، باعثا على حيوية الشعب، وإقدامه على التضحية والبذل، بل هو بشهادة المؤرخين جميعا، كان فى مقدمة الأسباب التى حققت نجاح المقاومة وأسرعت بها إلى النهاية المحتومة.. المحتومة لكل مقاومة يخوضها هو دفاعا عن أرضه، وحريته وأمجاده... طال الأجل بهذه المقاومة أو قصر..!

* * *

وكانت أنباء مقدم نابليون بحملته لغزو الأراضى المصرية قد سبقته ولم تلبث أن تأكدت عن طريق الأسطول البريطانى الذى جاء إلى الإسكندرية بقيادة نلسون للبحث عن الحملة الفرنسية . فكان لهذا النذير الخطير أثره البعيد على سكان مصر.

فقد تلقاه المماليك وأتباعهم ممن يحكمون مصر وهم ليسوا من شعبها بالذعر والخوف.. لا على مصر ولا على شعبها.. ولكن على نفوذهم وأموالهم التى جمعوها من المصريين بأشد أنواع الإرهاب والبطش.

الأمر الذى جعلهم لا يفكرون فى مقاومة الغزو الفرنسى القادم أو الاستعداد لصده بقدر ما يفكرون فى الهرب بأرواحهم وأموالهم!

أما وقع النبأ . نبأ الحملة الفرنسية . على أهل البلاد فقد كان له أثر آخر إذا قيس بحالة التأخر والاستعباد التى كان يفرضها عليهم حكم المماليك والعثمانيين . كان الأثر سيئا غريبا على قوم طال ضيقهم بالاحتلال ومظالمه .. وأبوا أن يبدلوا احتلالاً باحتلال ، فعقدوا العزم على القضاء على الاحتلال القديم ومجاهدة الاحتلال الجديد، وقد كانت انتفاضة المصريين لاستقبال الغزو الفرنسى بأعنف وسائل المقاومة، حدثا تاريخيا يؤكد وعى هذا الشعب ويقظته إلى التماس كل فرصة لاستخلاص حقه فى الحياة الحرة الكريمة.. وإذا قيست ثورة المصريين ضد حملة نابليون بعراقة الشعب المصرى وتاريخه المجيد لكان ذلك شيئا طبيعيا مقدرا!

إذ لم تمض بضع ساعات على وصول السفن الفرنسية إلى ميناء الإسكندرية حتى كانت الدماء تغلى فى عروق أهل الإسكندرية، وقد استقر عزمهم على ملاقاة العدو الغازى وجها لوجه دفاعا عن مدينتهم وشرف بلادهم..

وهنا تبرز المرأة المصرية لأول مرة منذ أجيال وعهود فرضت عليها فيها البلادة والجمود بين جدران أربع لا يسمح لها أن تتجاوزها حتى لا تكاد تدرك ما يدور حولها خلف هذه الجدران من أحداث .. ولم يكن ظهور المرأة على خشبة المسرح. مسرح المقاومة والكفاح التى برزت إليه فجأة وبدون مقدمات.. لم يكن ذلك من باب الفرجة والتسلية فسنرى كيف تصدرت النساء المعارك وخاضتها جنبا إلى جنب مع الرجال .. كيف حملت السلاح وهاجمت الأعداء. فاقتسمت معهم فى عدالة ومساواة شرف النصر وشرف الاستشهاد. أما كيف سمح للمرأة بالخروج من منزلها للاشتراك فى الدفاع عن وطنها.. فإن لذلك سببا واحدا.. كان وسيظل دائما هو القوة الكامنة خلف كل وثبة تحرير خالصة مؤمنة .. وهو الشعور المشترك بين أفراد الشعب الواحد بالظلم.. هذا الشعور الذى يولد

الرغبة فى صدور هؤلاء الأفراد مجتمعين فى التطلع إلى التحرر والسيادة.. ولم يكن الظلم الذى تعيش فيه نساء الشعب المصرى إلا ظلما مشتركا يقاسى منه الرجال ألوانا قد تختلف فى الشكل عن هذا الذى تقاسيه النساء ولكنه يشترك معه من حيث الأسباب كما يشترك معه من حيث الوقع. ولم يكن الخطر الذى يهدد استقلال مصر إلا خطرا يستهدف حرية الشعب المصرى نسائه ورجاله على حد سواء. لذلك فلم تكن الرغبة التى استقرت فى صدور الرجال من المصريين عن ضرورة إعلان الكفاح المسلح لمقاومة الحملة الفرنسية على أرضهم لم تكن تلك الرغبة لتقل عنها فى صدور النساء من المصريات وهن من طال بهن انتظار فرصة الجهاد فى سبيل التحرر والانعتاق مما يستهدفون له من ذل واستعباد.

وهكذا وحد هذا الخطر بين شعور النساء والرجال.. وبالتالى بين أهدافهما ووسيلتهما.. فتشابكت أيديهما فى صمت بليغ تسجل تصميم شعب عريق على الدفاع عن حريته وأرض آبائه وأبنائه لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة.. فالكل أمام الخطر سواء.. والكل لمصر الغالية أبناء.

لم تتخلف المرأة المصرية إذًا عن تلبية داعى الجهاد . . بل سارعت إلى أخذ مكانها فى مقدمة الصفوف.. وما كادت جنود نابليون تطأ شاطئ الإسكندرية حتى تلقفتها رصاصات وحراب وأحجار المدافعين من نساء ورجال.

ويبدو أن هذه المقاومة الجريئة السريعة لم تكن فى حسبان القائد الفرنسى فقد كان نابليون مطمئنا إلى أن مظالم الأتراك والمماليك قد قتلت الشعور القومى فى نفس الشعب المصرى وسلبته الرغبة فى الدفاع عن هذا الوطن الذى لم يذق فيه طعم الحرية والكرامة تحت حكم الطغاة الأجانب. لذلك كانت دهشة نابليون كبيرة لهذا الاستبسال، وثار فضوله لمراقبة هذه المقاومة التى بادر سكان الإسكندرية بإعلانها عليه منذ اللحظة الأولى.. وها هو ذا أحد التقارير الفرنسية المرفوعة إلى حكومة فرنسا عن استقبال أهل الإسكندرية للحملة منذ ساعة وصولها الشواطئ المصرية، يقول التقرير:

«احتشد الأهالى الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج التى تتخللها للدفاع عن مدينتهم.. فلما اقترب الجيش الفرنسى وقبل أن يبدأ هجومه صعد نابليون على الربوة المقام عليها عمود «السوارى» وشاهد أسوار المدينة ومآذنها وقلاعها... ولاحظ أن بالسور رغم ارتفاعه وضخامته ثغرات كبيرة رممت حديثا ترميما يدل على العجلة.. ، ورأى أهالى الإسكندرية محتشدين بأعلى الأسوار مشاة وركبانا.. رجالا ونساء كبارا وصغارا ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح... فأصدر أمره بالهجوم العام وأخذ الأهالى يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقا من غير إحكام.. فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات. فقابلهم الأهالى بإطلاق النار إطلاقا شديدا من المدافع والبنادق وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة. ولكن المدافعة لم تدم طويلا.. فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة... ووصلوا إلى الجهة المسكونة فيها.. وكانت مقاومة الأهالى قد فدحتهم بالخسائر.. فهاجموا الناس فى بيوتهم.. فدافع الأهالى عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين.

«دخل نابليون المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تتسع لاثنين يمران جنبا لجنب وكنت أرافقه فى سيره فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من إحدى النوافذ واستمرا يطلقان الرصاص.. فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة..

«ولم يقف دور نساء الإسكندرية فى الدفاع عن مدينتهم عند حد فكن يجمعن الأوانى النحاسية من منازلهن لتصب من جديد كذخيرة حية توزع على المقاومين. وكن يشتركن فى نقل الحجارة إلى الأسوار حيث كانت تتسلح النساء اللاتى لا يجدن استعمال البنادق، وقد كانت إصابة الأعداء من حجارة النساء لا تقل خطورة عن إصابتهم برصاص بنادق الرجال.. وها هو ذا الجنرال «بريتيه» رئيس هيئة أركان حرب الحملة الفرنسية يصف إصابات ضباط الحملة الكبار فى معركة الإسكندرية فى رسالة منه إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول فيها: إن الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت»..

وقد جاء فى تقرير لنابليون عن خسائر المصريين فى معركة الإسكندرية بأنها قد بلغت ثلاثمائة بين قتيل وجريح من الرجال والنساء على السواء!

ولم تكن مقاومة نساء رشيد وباقى البلاد التى سارت إليها الحملة الفرنسية بأقل شأنا من مقاومة نساء الإسكندرية.. فسجلت رشيد قصصا رائعة للبطولة التى أظهرتها نساؤها فى مقاومة الغزاة حتى ليحكى أن فتاة صغيرة من رشيد استطاعت بمفردها أن تقتنص أكثر من خمسة عشر جنديا فرنسيا اكتشفت جثثهم مجندلة فى قاع بئر بداخل منزلها حيث كانت تخرج يوميا لاستدراج أحدهم إلى منزلها ليلقى حتفه فى الكمين المعد له فى البئر وقد جازاها الفرنسيون بالسجن ثم الإعدام فذهبت إلى ربها شهيدة..

وأما نساء القاهرة فقد سجل لهن التاريخ أروع صور الوعى والحمية والبذل مما لم يشهد له مثيل فى ذلك العصر. كان جيش نابليون قد استقر أخيراً فى القاهرة حيث راح يحاول عبثا فرض سيطرته على أهلها تارة بالتودد وأخرى بالتهديد والإرهاب.. ولكن الشعور القومى ظل يغلى فى صدور المصريين يوما بعد يوم... وما كاد صباح يوم ٢١ أكتوبر عام ١٧٩٨ يشرق على القاهرة حتى كان النداء بالثورة يجتاح المدينة الجريحة من أقصاها إلى أقصاها.. وسرت كلمة الثورة سريان النار فى الهشيم وخرج جميع أهل المدينة الخالدة يرفعون راية العصيان على حكم الفرنسيين الطغاة يتقدمهم العلماء وأهل الفكر .. واندلعت الثورة فى القاهرة وهب المحتلون يصبون نيرانهم الغاشمة تحصد شعب العاصمة حصدا وتدك صرح الأزهر العتيد وتوالت الأحداث وارتوت أرض القاهرة بدماء أحرارها الثائرين وامتلأت السجون بطليعة المناضلين من أبطال الثورة وقادتها.. ويطول بى المقام هنا لو حاولت متابعة ثورة القاهرة مما يخرج بى عن موضوع هذا الكتاب.. وأعود إلى نساء القاهرة ومكانهن فى قلب المعركة.. فمن خلف الأبواب والنوافذ كانت الأيدى الناعمة الرقيقة تصوب قذائفها على رءوس هؤلاء الغزاة تردهم عن اقتحام حرمات البيوت وتذود عن العرض والابن والمال. هؤلاء الذين انطلقوا يحطمون ويسلبون ويثأرون للهزيمة التى أنزلها بهم الثوار فى كل مكان..

وفى الشوارع كانت دماء النساء والرجال من الثوار تسيل، تروى أروع قصص جهاد شعب عريق فى سبيل الحرية والكرامة.

ولكن حتى هذا المصير المفجع الذى لاقته ثائرات القاهرة لم يطفئ شعلة الوطنية فى صدور باقى نساء المدن والقرى المصرية التى كانت قوات الحملة تواصل محاولة اقتحامها على أهلها الآمنين.. فلم تلبث القوات الفرنسية الزاحفة أن فوجئت على مقربة من منوف بأهل قريتى «غمرين» و «تتا» وهم يشهرون السلاح عليها ويغلقون أبوابهم فى وجهها.. ولما لم يقو الجنرال الفرنسى على إخضاع أهالى القريتين الثائرتين واقتحامهما أرسل يطلب قوة أخرى من زميله الجنرال المرابط فى منوف .. تكاتفت القوتان الفرنسيتان على ضرب القريتين المصريتين واشتد القتال بينهما وبين الوطنيين وسالت الدماء وسقط الشهداء وفى وصف هذه المعركة يقول أحد الكتاب الفرنسيين: «جاءنا العدد من القوات الفرنسية المرابطة فى منوف وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية «غرين» فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأهالى من أربعمائه إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام».

وكان الجنرال «بليار» يطارد فلول قوات المماليك فى الصعيد.. وحدث أن قام هذا الجنرال فى كتيبة فرنسية قاصدا جزيرة «أنس الوجود» فى مديرية أسوان وعندما أرادت القوة الفرنسية أن تستعير مراكب الأهالى لتعبر بها النيل إلى الجزيرة رفض جميع الأهالى إمدادها بمراكبهم فاضطرت الكتيبة إلى العودة إلى أسوان لتعود بقوة أكبر تمكنها من إخضاع أهل الجزيرة المتمردين.. وها هو ذا الجنرال «بليار» قائد هذه الموقعة يشهد فى مذكراته بدور المرأة المصرية فى إلهاب الثورة التى أعلنتها الجزيرة ضد قواته فيقول: -

«حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ويقذفن التراب فى وجوهنا بينما عمد الرجال إلى إطلاق الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر.. وكنت قد أحضرت معى مدفعا لإخضاعهم.. فدعوتهم للتسليم فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاما وأنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر المماليك واستأنفوا هجومهم علينا!».

وبعد فهذه شهادة الأعداء عن جدية وخطورة الدور الذى لعبته المرأة المصرية فى المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى.. وكيف كانت تفزع بفطرتها التى لم يكن نور العلم والحرية قد وصل إليها بعد. كيف كانت تفزع بفطرتها للدفاع عن شرفها ووطنها جنبا إلى جنب مع الرجال فكانت تقتسم معهم راضية فخورة شرف الجهاد والاستشهاد.

بل لقد رأينا فى هذه السطور العابرة كيف كانت نساء القاهرة يشتركن فى إلهاب نيران الثورة وتزعمها كما اشتركن فى مواجهة نفس المصير الذى صار إليه زملاؤهن من الثوار الرجال وهو الإعدام.. وبذات الطريقة القاسية التى نفذ بها الحكم على الرجال.. وهكذا كانت زمالة المرأة للرجل فى الجهاد والنضال الوطنى هى الحقيقة الناصعة التى سجلها التاريخ لنساء مصر فى أوقات الشدة، وأيام المحن والقتال بينما كان يعجز ذلك التاريخ عن تسجيل هذه الزمالة لهما فى كثير من أوقات الجمود التى كان الاستعمار يتآمر فيها على هذه الزمالة حرصا منه على سياسته التقليدية فرق تسد!!

ولكن ذلك الإجحاف الذى كانت تلقاه المرأة فى المحن وعهود الظلام لم يكن مطلقا ليقعدها عن النهوض بواجبها الوطنى إذا ما دعا داعى الجهاد.. فإن المرأة التى ذاقت كأس الاضطهاد والاستعباد كما لم يذقها الرجال تكون بفطرتها أسرع إلى استشعار الحقد والثورة ضد مضطهدى وطنها ومستعبدية فتبادر من نفسها إلى مزاولة مهام الرجال فى ساحة البذل والجهاد.. وهذا فى اعتقادى أقوى دليل على أن المرأة تملك من الوعى الفطرى ما ينير بصيرتها ويعينها على إدراك الجوهر فى قضية حريتها.. هذا الوعى الذى يجعلها تعرف دائما أن الرجال ليسوا أعداءها فلا تذكر وقت المحنة سوى أنها وإياهم زملاء فى العبودية... زملاء فى الجهاد من أجل حرية الوطن..

المصـرّيـة
تدخل المـدرسة !

إذا كـان محـمـد علـى قد عـرف كيف يقـفـز إلـى مقـعـد الحـكم فـى مـصـر علـى أكتاف الشـعب بعد أن أتقن دوره فـى التـقـرب إلـى المصـريين وزعـمـائهم مسـتـغـلا حقـدهـم علـى الولاة العثمانيين الظالمين المترفعين والمماليك المستبدين ممن كانوا لا يـعـنـون إطلاقـا بـالـتـقـرب إلـى الـشـعـب أو الـتـفـكـيـر فـى أحـوالـه الـسـيـئـة ومـطـالـبـه الـعـادلـة.. إذا كـان مـحـمـد علـى قـد رسـم خطـتـه لـلـسطـو علـى عـرش الـفـراعـنـة عن طريق التظاهـر بالاهتمام بشئون أهـل مصـر وإصـلاح أحـوالهم حتـى يأمن الثورات الـشـعـبـيـة الـتـى كـانـت تـطـيـح بـكل وال مـتـغـطـرس مـمـن كـانـت الـسـلـطـة الـعـثـمـانـيـة تفرضهم حكاما علـى مصر وهـم من غير أبنائها . فقـد عمد إلـى إخفاء نهبه لأرض مـصـر واحـتـكـار مـواردهـا لـنـفـسـه ولأسـرتـه إلـى جـانـب مـا كـان يـرتـكـبـه مـن جـرائم وأسـاليب دامية للتخلص من أعدائه وتسخير المصريين فـى تفليح مـا يغتصب من أراضـى المواطنين. وجباية الضرائب الفاحشة التى أثقلت كاهل الشعب وأغرقته فـى الفقر والخوف.. عمد محمد على إذًا إلـى إخفاء مظالمه وسرقاته من الشعب المصرى بمظاهرات واسعة من الإصلاح والتعمير، مما كان له أثره بعد ذلك فـى مظاهـر التقدم والرقى آلتى غمرت مصر أمام العالم، بالرغم من أن كل ذلك لم يكن له جذوره العميقة، ولم يكن يستند إلـى أى رغبة حقيقية فـى رفع الظلم عن البلد التـى أصبحت لا تعدو أن تكون ضيعة لمحمد علـى وأسرته. وكان للمرأة نصيب من مظاهرات الإصلاح التـى استحدثها محمد علـى فـى مصر إذ لم يغب عن دهائه ان المرأة المصرية التـى تؤلف قوة شعبية لها قيمتها فـى ميزان الأحداث والثورات.. لم يغب عن دهائه أن المرأة فـى مصر تمثل خطرا لابد من اتقائه

بالتظاهر بالاهتمام بمطالبها واحتياجاتها.. وهكذا تطوع محمد على بإصدار أول أمر نظامى بفتح مدرسة مهنية للمرأة فى مصر وهى ضرورة كانت تحتمها ظروف التطور الذى أصاب البلاد ثم وقفت جهود محمد على عند هذا الحد، ومع ذلك فقد كانت هذه الخطوة سببا فى إثارة اهتمام الرجال برفع عصابة الجهل من فوق عيون بناتهم وشقيقاتهم وزوجاتهم وأمهاتهم فتنافس المستنيرون منهم فى تعليم نسائهم وبناتهم بواسطة «المدرسين الخصوصيين» الذين يترددون على بيوت الأعيان، والقادرين، ليتولوا تعليم «البنات» تحت رعاية آبائهن وأشقائهن !

ونشطت مختلف البيوتات لتخريج زوجات متعلمات وكان ذلك إيذانا بعهد جديد للمرأة، تنتقل فيه من ظلام الجهل، إلى نور العلم والمعرفة..

وصل محمد على إلى حكم مصر فى وقت كانت البلاد تعانى فيه أشد ألوان الفوضى والتأخر شأن كل بلد تتعرض سيادته وحرياته وموارده لمثل ما تعرضت له مصر من استعمار متعدد الأشكال وما تعرض له شعبها أحقابا طويلة من ظلم الحكام المستعمرين والمماليك المستبدين، وما كان يصاحب ذلك من نهب موارد البلاد وخيراتها وترك الأغلبية الساحقة من الشعب تقاسى الفقر والحرمان..

وفى مثل هذه الظروف تكون النساء دائما أسوأ حالا من الرجال وأكثر منهم تعرضا للمظالم وأبعد منهم عن فرص الفكاك والنهوض لأن المرأة كما قلنا هى الضحية الأولى لكل استعمار واستعباد تنكب به بلادها..

ومن هنا فإن المرأة المصرية، حفيدة الفراعنة المتحضرين والعرب الأمجاد . عاشت فى بلادها عيشة الجمود والتأخر والاستعباد . بعد أن فرضت عليها تقاليد وخرافات ومظالم الأحكام الجائزة أغلالا من العبودية فلم يكن يسمح لها بالخروج إلا تحت الحراسة المشددة وفى كامل التحجب فلم تكن المرأة غالبا لترى ضوء الحياة خارج جدران منزلها إلا مرة أو مرات نادرة طوال عمرها بل لقد كان هناك من لا يكتب لها مثل هذا الحظ السعيد فى حياتها.. فلا تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها أو لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر..

وهكذا لم تكن المرأة المصرية فى عهود الظلام أكثر من حريم لا تعرف قدماها الطريق إلى تحصيل العلم أو النزول إلى العمل فضلا عن ممارسة الحياة العامة..

وفى المدينة كان نصيب المرأة من هذا الحرمان أكبر من نصيب المرأة فى الريف حيث كانت ظروف الفقر الشديد تدفعها على الخروج فى بعض الظروف ولكن إلى الحقل حيث تعاون زوجها فى أعمال الفلاحة أو المنتجات الزراعية دون أن تلقى تضررا من رجلها فقد كانت الحاجة وظروف البؤس تخلق بينهما شعورا عميقا بالتضامن والتعاون على مغالبة الحياة والتزامات الأسرة فى وقت كانت الضرائب وأعمال السخرة تثقل كاهل الفلاحين وتسلبهم لقمة العيش.

وأما وضع المرأة المصرية فى البيت فكان أقصى وأمر بسبب ما أدخله المحتلون العثمانيون على الحياة العائلية فى مصر من تقاليد نزلت بالمصرية إلى هاوية الإذلال والهوان.. فقد تفشت فى عهدهم بدعة اقتناء الجوارى البيض وإنزالهن منازل التكريم والتفضيل فى قصورهم وبيوت أتباعهم من أتراك ومصريين حتى إذا جاء عهد محمد على تطورت هذه البدعة وعم انتشارها فلم يقتصر غزو هؤلاء الجوارى على القصور والبيوت الكبيرة بل امتد حتى شمل أغلب البيوت المصرية المتوسطة الحال سواء فى المدن أو القرى حتى قيل إنه لم يكن يوجد بيت منها يخلو من جارية أو أكثر إذ بلغ عدد هؤلاء ثلاثة آلاف من الجوارى البيض والحبشيات اللاتى جلبهن محمد على وأبناؤه من شركسيات وقبرصيات وسودانيات الخ.. وهكذا بدأ محمد على حكمه لمصر التى ادعى أنه جاء ليحررها من الأجانب.. بدأ حكمه بالعمل على إخضاع الأسرة المصرية لسيطرة هذه الحثالة الأجنبية من الجوارى بقصد تلقيح الدم المصرى بالدماء التركية التى تجرى فى شرايينه ليتحقق له خلق أجيال مصرية ترث صفات الاستكانة من أمهاتها الرقيق بما يضمن ترويض سكان مصر على احتمال حكم أسرته الأجنبية لوادى النيل..

وقد نجح محمد على إلى حد بعيد فى تمكين هؤلاء الجوارى من السيطرة على البيوت المصرية، وانتزاع الأزواج من نسائهم الوطنيات حيث أصبحت الجارية فى أكثر الأسر المصرية هى الزوجة الأولى والمحظية المقدمة على سائر

نساء الأسرة، وبالتالى كانت هى أم الجيل الناشئ ومربيته، وملقنته لغتها الأجنبية وتقاليدها.

وكان هذا هو الخطر الذى بات يهدد كيان نساء النيل، أصحاب الحق الشرعى فى السيادة فى بيوتهن.. وهو خطر لم تتنبه له المصريات فى البداية.. فظلت الزوجة المصرية وقتا مستسلمة لمعاشرة منافستها التركية ومقاسمتها لها فى رجلها وبيتها فقد كانت عهود الطغيان والجمود التى مرت بها قد روضتها على الصمت والاحتمال وهى التى هوت بآدميتها حتى جعلت منها إحدى قطع الأثاث الجامدة فى البيت، بل لا تعدو - فى أسعد الحالات - أن تكون أداة زينة وأنثى لحفظ النوع، وخدمة الزوج والولد.. لم تكن وهى على ما هى عليه من الحرمان من العلم والحرية والشعور بالذات لم تكن لتستشعر خطر سيادة الجوارى الأجنبيات على أسرتها أو خطر انفرادهن بالنفوذ فى بيتها لأنها لم تكن تملك أسباب السيادة أو النفوذ فى مجتمعها فى ذلك العهد، حيث كانت السلطة بكل أنواعها، وفى كل ميادينها، حكرا على الغزاة والمحتلين والحكام الأجانب المتحكمين فى كل نواحى الحياة المصرية عن طريق الإرهاب، والسلب، والتآمر على إغراق الشعب - بنسائه ورجاله - فى الجهل والفقر والذل.

لذلك فلم يكن غريبا أن تأتى مظاهرة محمد على الخاصة برعايته المرأة المصرية دعاية فاترة جوفاء لا تمتد جذورها إلى جوهر المشكلة - النسائية وانتشال المرأة من جهلها وتأخرها.

فلم يحاول الدعوة إلى تعليم الفتاة أو سن القوانين لإنصاف المرأة المصرية بل اكتفى بإصدار أمره إلى «حبيب أفندى مأمور الديوان الخديوى» بإلحاق مدرسة للحكيمات بمدرسة الطب التى أنشئت بأبى زعبل كما قصر الدعوة للالتحاق بهذه المدرسة على الفتيات الحبشيات والسودانيات يصاحبهن فى تلقى الدراسة بعض الأغوات ! وكان ذلك فى عام ١٨٣١ ثم لم يمض وقت طويل حتى تسربت بعض الفتيات المصريات من بنات الجند واليتامى إلى هذه المدرسة بعد أن نقلت مع مدرسة الطب من أبى زعبل إلى القاهرة حيث يوجد الآن مستشفى «قصر العينى».. وكانت الدراسة فيها تحوى بعض أصول الدين ومبادئ القراءة والكتابة

والحساب مع رسالة مترجمة فى فن الولادة. وكان نجاح هذه التجربة الأولى رغم بساطة مادتها مغريا للأسر الشعبية على دفع بناتها إلى حيث بزغ هذا القبس الضئيل من نور العلم والمعرفة.. ومن ثم اتسعت المدرسة حتى أصبحت تضم مئات من فتيات العاصمة والأقاليم خصوصا، وكان التعليم فيها بالمجان مع مكافأة شهرية قدرها عشرة قروش فى السنة الأولى تظل فى تزايد حتى تبلغ خمسة وثلاثين قرشا لطالبة السنة النهائية.

وسرعان ما برزت أمام الحكومة والشعب مدى الفائدة التى تقدمها خريجات هذه المدرسة فى مجال تخفيف الآلام والأخطار التى تحيق بالسيدات الحوامل والمواليد بعد أن كانت عملية الوضع تتم على أيدى مولدات جاهلات قذرات فى ظروف غاية فى الخطورة والمشقة.. وهكذا ارتفعت قيمة هذه المدرسة خاصة فى نظر أعيان البلد وحكامها الذين حرصوا على احتكار خدمات الكثيرات من الخريجات للعناية الخصوصية «بحريمهم» فبادرت الحكومة إلى تشجيع الفتيات على الالتحاق بمدرسة الولادة فى صور مغرية منها تميز طالباتها باستبدال الخبز «الجراية» الذى كان يصرف لهن طبقا لما يتبع فى مدارس البنين بخبز «مخصوص» ومنح كل تلميذة «طربوش» من صنع فوة، وصدارى جوخ بقيطان حريرى وحزام إلى جانب جميع الملابس الداخلية مع طرحة وحبرة وسبلة !!

وكانت الخريجات يوزعن على المحاجر الصحية فى الموانئ المصرية والأقسام بالقاهرة للكشف على المرضى من النساء بعد أن يعين لكل حكيمة منهن «حمار» لتنقلاتها وساع لمصاحبتها كما كانت تمنح لقب «أفندى» ورتبة ملازم ثان «وتعطى» مرتبة لمن تعين من هؤلاء الخريجات فى وظيفة التدريس فى المدرسة !!

ومن الطريف أن ديوان المدارس وكان فى مقام وزارة المعارف الآن كان يأخذ على عاتقه مهمة تدبير الأزواج للحكيمات بنفسه. فكان يوزع لها الغرض منشورا **دوريا على الأطباء الرجال يدعو فيه الأطباء العزاب بتسجيل أسمائهم مع شهادة بحسن سيرهم وسلوكهم وموافقتهم على التزوج من زميلاتهم الحكيمات كما كان الديوان يحرص فى تعيينات الأطباء والحكيمات على أن يجرى تعيين كل زوجين منهما فى بلد واحد.**

وكانت مدرسة الولادة هذه هى كل نصيب المرأة المصرية فى عهد محمد على ومع ذلك فقد كان للعلامة «كلوت بك » اليد الطولى فى رعايتها..

عصر إسماعيل :

ونمر. مرور الكرام. على عهود إبراهيم وعباس وسعيد فقد كانت رمزا للتأخر والجمود إذ وقف هؤلاء وخاصة الأخيرين فى وجه كل نهضة وكل إصلاح، وكل دعوة للإنشاء والتعمير فلم يكن لهما حتى دهاء والدهما . محمد على . الذى كان يرى تغطية طغيانه ببعض مظاهر الإصلاح كما قلنا، ويكفى دليلا على غباء الولدين إقدام كليهما على إغلاق المعاهد والمدارس وهو ما يصور لنا مدى ضيق أفقهما، وتآمرهما على تقدم الشعب الذى يعتبر العلم هو سلاحه فى معركة الحياة لأنه السبيل إلى مستقبل أرقى وأسعد.

ولست فى حاجة بعد ذلك إلى الإشارة إلى أن حكم عباس وسعيد فى مستقبل مصر كان بمثابة حجر عثرة فى طريق الانتعاش الذى كانت المرأة قد بدأت تخطو إليه.

حتى إذا جاء عصر إسماعيل عاد الأمل يدب فى صدر المرأة من جديد فقد كان إسماعيل أكثر دهاء وكانت سياسته تهدف إلى تخدير الجماهير بتحقيق بعض مطالبها، كما تهدف إلى الدعاية لنفسه والتقرب إلى الشعب والظهور بمظهر الغيور على مصالح المصريين العامل على رقيهم وتحضرهم.. فلم ير مانعا من تخصيص بعض المال الذى كان يغترف أكثره لنفسه.. لم ير مانعا من تخصيص بعض هذا المال للتعليم.. ولعله ظن أن ذلك من شأنه تغطية جرائم النهب وفضائح الإسراف والتبذير التى كان يرتكبها فى سبيل ترفه ومجونه، فقد بادر إسماعيل إلى إعادة ديوان المدارس ورصد له ميزانية معقولة كانت سببا فى إعادة فتح المدارس المغلقة وترحيل البعثات الموقوفة، ومن حسن الحظ أن المشرفين على ديوان المدارس من رجالات مصر المثقفين أمثال العلامة رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وغيرهما انتهزوا هذه الفرصة ومضوا يدفعون بالتعليم نحو الكمال والانتشار فلم يلبث عدد المدارس والمعاهد أن تزايد إلى حد

كبير وبزغت نهضة علمية مشرقة لم تتخلف الفتاة المصرية عن السير معها بفضل تشجيع العلماء والمفكرين المصريين أنفسهم.. وكان أول صوت ارتفع بالدعوة إلى إفساح مجال التعليم أمام الفتاة المصرية التى كانت محرومة منه تماما هو صوت «رفاعة رافع الطهطاوى».. إذ لم يترك مناسبة وهو عضو بديوان المدارس إلا وطالب فيها بإنشاء مدارس لتعليم الفتيات حتى وفق إلى حمل الديوان على إصدار قرار بحق المصرية فى التعليم لكن القرار ظل حبرا على ورق حتى عام ١٨٧٣ الذى تم فيه إنشاء أول مدرسة ابتدائية لتعليم الفتاة على أثر إصدار رفاعه بك كتابه المعروف «المرشد الأمين للبنات والبنين» عام ١٨٧٢ وقد دعا فيه إلى تعليم البنات وإعدادهن عن طريق التربية للعمل والقيام بواجبهن فى المجتمع.. فرفاعة الطهطاوي لم يكتف بالدعوة إلى تعليم الفتيات بل صحب دعوته هذه بأخرى هى إفساح المجال أمامها للنزول إلى ميدان العمل والمجتمع.. فكان هذا الكتاب هو أول سطر واع يخط فى صفحة النهضة الحديثة للمرأة المصرية. وإذا كانت مكانة رفاعه الطهطاوى قد بلغت الذروة بين معاصريه فى العلم والفكر والتحرر فإن موقفه المجيد من الدفاع عن حق نساء وطنه فى الفرص المتساوية مع الرجال فى العلم والعمل هو ولا شك رمز ما تميزت به عقليته الفذة من إدراك ونضج وتحرر ومن كتابه أنقل هذه الأسطر التى يتبين فيها دفاعه عن حق المرأة فى العلم والعمل على أسس قوية منطقية يخاطب بها مواطنيه يقول: «ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فإن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهن ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من طيش وسخافة عقل مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لامرأة جاهلة مثلها وليمكن المرأة عند إقضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل السنتهن بالأباطيل

وقلوبهن بالأهواء. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة. وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة كبيرة فى حق النساء!».

أما المدرسة الأولى التى جاء إنشاؤها صدى لدعوة الطهطاوى فكانت مدرسة «السيوفية» التى تولت السيدة «جشم أفت هانم» الزوجة الثالثة لإسماعيل تأسيسها على نفقتها الخاصة حيث استقبلت فى عامها الأول مائتين من الفتيات وصلت إلى أربعمائة فى أول العام التالى مباشرة.

وكانت تقدم التعليم والمأكل والملبس بالمجان، وتولى نظارتها فى البداية «حسن أفندى صالح» ثم خلفته فيها مدام روزه !

وكانت مدرسة السيوفية هذه فاتحة قائمة مدارس البنات التى أخذت تتوالى وتنتشر بعد ذلك إذ أعقبتها فى العام التالى لتأسيسها مدرسة بنات ثانية فى «القربية».

كما نشطت بعد ذلك الهيئات إلى إنشاء مدارس البنات وفيها مدرسة «السقايين» ومدرسة «الأزبكية» القبطتيان ومدرسة «الجمعية الخيرية الإسلامية» بالإسكندرية للبنات والبنين وهى الجمعية التى أسسها الشيخ العالم السيد عبدالله نديم عام ١٨٧٩..

وسرعان ما حققت الأيام رأى رفاعه الطهطاوى فى أثر التعليم فى خلق المرأة الفاضلة العالمة الراقية.. فقد طرحت شجرة العلم ثمارها ولم ينقض عصر إسماعيل إلا وقد شهدت مصر طليعة نسائها العاملات العالمات.. فى كثير من الشخصيات النسائية البارزة أذكر منهن السيدة الجليلة تمرهان هذه الطبيبة النابغة التى تخرجت فى مدرسة القابلات السابق الإشارة إليها ثم رفعتها مهارتها فى مهنة الطب لرئاسة هذه المدرسة فى عهد إسماعيل ولم يقف نبوغها عند حد العمل فى مجال الطب فقد تركت خلفها بعض المؤلفات العلمية الغزيرة المادة التى أفرغت فيها خلاصة تجاربها ومعلوماتها لتكون مرجعا لتلميذاتها من بعدها وأذكر من هذه المؤلفات كتاب (محكم الدلالة فى أعمال القبالة) وقد طبع فى عام ١٢٨٦ هجرية. هذا فضلا عن اشتغالها بأرفع المهن ألا وهى مهنة الصحافة، فقد

كانت عضوا فى تحرير مجلة الحكومة «يعسوب الطب» ولها فيها مقالات طبية ممتعة تكشف عن مواهب المرأة المصرية وتبين قدرها حين تتاح لها فرصة الحرية والانطلاق. ومن الرعيل الأول الذى ظهر فى أعقاب النهضة التعليمية فى عصر إسماعيل ظهور سيدة عظيمة الخطر بعيدة الأثر هى عائشة عصمت تيمور الشاعرة الأديبة النابغة التى خلد التاريخ اسمها بأحرف من نور فى عالم الشعر والأدب والعلوم والفنون، ولاتزال تردد شعرها ونثرها الأجيال، جيلا بعد جيل.

ومن شهيرات العلم والأدب فى عصر اسماعيل السيدة «ستيته الطبلاوية» و«فاطمة الأزهرية» كما برز اسم الفنانة المطربة «الماس» التى تزوجت من عبده الحامولى فنان ذلك العصر فكانت ملهمة فنه الرائع وشريكته فى بناء مجده الفنى الذى ارتفع به إلى القمة.

والآن أريد أن ألخص ما جاء فى هذا الفصل.. أولا إن بداية النهضة النسائية الحديثة قد بدأت أولى خطواتها فى أواخر حكم إسماعيل حيث كان فتح باب التعليم أمام الفتاة المصرية هو الدرجة الأولى التى ارتقتها المرأة المصرية فى صعودها طريق التقدم والتحرر الفكرى، ولا غرو فالعلم دائما هو النور الهادى سبيل الباحثين عن السعادة والحرية والكمال..

وثانيا فإننى أردت أن أسجل هنا وبكل فخار أن كل خير وكل تقدم نالته المرأة المصرية فى عهود أسرة محمد على كان بفضل جدارة المصرية نفسها ومن صنع أيدى وعقول مواطنيها المصريين أبناء الفلاحين من هؤلاء الأحرا ر الذين أخذوا على عاتقهم أمانة الدفاع عن حق مواطناتهم فى العلم والحياة الكريمة أمثال رفاعه الطهطاوى وعلى مبارك والسيد عبدالله نديم فى عصرى محمد على وإسماعيل ومن خلفهم فى إتمام هذه الرسالة العظيمة فى العصور التالية أمثال قاسم أمين ومحمد عبده مما سيأتى عنه الكلام فيما بعد !

سيّدات كافحن من أجل المرأة

بالرغم من الستار الكثيف الذى فرضته تقاليد العصر التركى على المرأة المصرية للحيلولة بينها وبين التمتع بحقوقها، أقول بالرغم من هذا فقد استطاعت إحدى المصريات أن تحطم هذه التقاليد وأن تظهر فى الأفق وفى سماء مصر، وأن تحمل الرجال على الإشادة بفضلها وعلمها وأدبها وأن تأخذ مكانها بالرغم منهم فى هذا المجتمع المصرى ويتحدث الناس باسمها ويتسابق الرجال إلى حفظ أشعارها وترديده ووضعها فى مكان الصدارة بين كبار رجال الفكر والعلم والأدب.

وكانت السيدة التى حطمت هذه التقاليد وكسرت هذا السياج هى السيدة عائشة التيمورية كريمة المغفور له أحمد تيمور باشا من رجال مصر المعروفين البارزين فى ذلك العصر.

وقد ولدت السيدة عائشة التيمورية بالقاهرة فى سنة ١٨٤٠م ولما شبت عن الطوق واستقبلت الحياة أرادت والدتها أن تعلمها كما يتعلم أترابها أشغال الإبرة والحياكة فكانت تنفر منها وتتجه نحو كتب الأدب تعكف على قراءتها وحفظها وتحاول تقليد كبار الكتاب والشعراء بمجاراتهم فيما يكتبون وما ينشدون من شعر وحاولت والدتها أكثر من مرة أن تثنيها وتقف فى طريقها لإفهامها أن المرأة لا تصلح لشىء من ذلك وأن الوضع بالنسبة لها هو أن تعد نفسها لتكون ربة بيت وحسب ولكن الأم لم تستطع التغلب عليها وثابرت عائشة على دراسة الأدب وإنشاد الشعر حتى غدت أديبة وشاعرة يشار إليها بالبنان وملأت أعمدة

الصحف والمجلات بمقالاتها وأشعارها التى لها صدى بعيد بين عامة الناس فى عصرها وفى الأوساط الأدبية على الخصوص وماتت هذه السيدة الفاضلة فى سنة ١٩٠٢م وقد خلفت وراءها ثروة أدبية واسعة ومؤلفات ضخمة وجميلة من دواوين الشعر الذى قالته فى جملة من الأغراض.

وقد برهنت هذه السيدة الكريمة بصنيعها على أن المرأة تستطيع أن تحتل مكانها عن جدارة فى الميادين التى يراها الرجال وقفا عليهم وحدهم. وأن ترغمهم على إفساح الطريق أمامها والإشادة بجهادها وكفاحها.

باحثة البادية

أو السيدة ملك حفنى ناصف

وهذه سيدة أخرى حطمت القيود وكسرت الأغلال التى فرضت على المرأة فلم تشأ أن تقبل هذه القيود وأن تخضع لهذه الأغلال فقامت تطالب بحقوق المرأة وتدافع عنها بعد أن حصلت على قسط وافر من التعليم وحصلت على الشهادات التعليمية التى كانت تعطى للمرأة فى ذلك العصر وقد كتبت فى «الجريدة» مجموعة من المقالات خاصة بشئون المرأة وضمتها بعد ذلك فى كتاب أسمته «النسائيات».

ووضعت كتابا بعنوان «حقوق النساء» لم يتيسر لها طبعه ولكنها نشرت جزءا منه فى جريدة «الجريدة» وأهم ما نشرته فى هذا الجزء هو حق المرأة المسلمة فى الانتخاب، والموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ومقال آخر عن حقوق المرأة المسلمة.

وقدمت للمؤتمر الذى عقد فى مايو سنة ١٩١١م بمصر الجديدة رسالة ضافية ضمنتها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية وإعطائها حقوقها.

وكانت كتاباتها ورسائلها غاية فى السمو ورقة فى الأسلوب ولجمال أسلوبها وعنايتها برصفه سميت «باحثة البادية» وقد نظمت الشعر وأنشدت جملة من القصائد كان الكثير منها فى النهوض بالمرأة وتوجيهها إلى حقها فى الحياة ومن ذلك شعرها تخاطب المرأة فى أمر السفور والحجاب:

سيرى كسير السحب لا	تأنى ولا تتعجلى
لاتكنسى أرض الشوا	رع بالأزار المسبل
أما السفور فحكمه	فى الشرع ليس بمعضل
ليس النقاب هو الحجا	ب فقصرى او طولى
لا ابتغى غير الفضيـ	ـلة للنساء فاجملى

وقد ولدت ملك ناصف بالقاهرة فى سنة ١٨٨٦م وماتت فى ١٣٣٧هـ وتركت بعدها فراغا شاسعا ومكانا خاليا فى الكفاح من أجل قضية المرأة المصرية والمناداة بحقوقها.

الشيخة «فاطمة الأزهرية»

ولا أدرى ماذا يقول رجال الأزهر حينما يقرءون هذا الكلام وقد نصبوا أنفسهم مناهضين لحقوق المرأة خصوما لها ماذا يقولون اليوم وقد تربت فى الأزهر من قبل سيدات وصلن إلى نهاية المراحل العلمية فى الأزهر وتقدمن لامتحان العالمية ومنهن الشيخة فاطمة الأزهرية التى أتحدث عنها اليوم درست هذه السيدة علوم الأزهر وحضرت على كبار علمائه مع الرجال جنبا إلى جنب ونبغت فيها أيما نبوغ وكانت تدرس علوم اللغة العربية للسيدات اللواتى يردن دراستها.

وقد أبى رجال الأزهر على هذه السيدة ومثيلاتها إعطاءهن شهادة العالمية لما تقدمن للامتحان خوفا من مزاحمة المرأة لهن فى مناصب التعليم بالأزهر.

وقد ناظرت هذه السيدة كبار العلماء وتفوقت على الكثير من مناظريها وكانت حجة فى الدين واللغة.. ولكن خصومها كانوا هم الحكام فى أمرها فلم ينصفوا نبوغها بإعطائها شهادة العالمية هى ومثيلاتها.

ومهما يكن من شىء فقد كانت المرأة تتلقى علومها فى الأزهر وتجلس إلى أساتذته تتلقى منهم وتناقشهم وتنتقل من علم إلى علم ومن درس إلى درس ولم ينكر أحد عليها هذا الحق أو يقم ضجيجا حولها كما يقيم رجال الأزهر هذا الضجيج اليوم حول مطالب المرأة وحقوقها.

السّيدة نبوية مُوسى

وجهت هذه السيدة حياتها بعد إتمام علومها إلى الغاية بتعليم المرأة وتثقيفها وتهذيبها وتسليحها بالعلم فكانت أنموذجا حيا فى هذا المضمار ووصلت إلى أرقى المناصب فى وزارة المعارف ثم آثرت الاستقالة حينما لم تأخذ الوزارة بتوجيهاتها فى بعض النواحى التربوية الخاصة بتعليم البنات ونزلت إلى ميدان الكفاح العلمى فأنشأت عدة مدارس نموذجية لتعليم الفتيات ونجحت فى رسالتها نجاحا باهرا وظلت تؤدى رسالتها حتى لقيت ربها.

السّيدات
فى حركة عرابى

وقد ظلمت المرأة المصرية فيما كتب عن ثورة عرابى، فلم ينصفها أحد من المؤرخين الذين أخذوا على عواتقهم تسجيل تلك الحركة التاريخية الكبرى.. فهل كانت جريمة المرأة إذ ذاك أنها تعيش من وراء حجاب. بما تفرضه عليها تقاليد عصرها من قيود وأغلال فلا يكاد الناس يحسون الدور العظيم الذى لعبته فى نهضة بلادها؟.

ومع ذلك فلنحسن الظن بالسادة المؤرخين إذ كانت التقاليد أيضا تمنع الرجال إذ ذاك من أن يتحدثوا عن أدوار زوجاتهم وبناتهم، بل كان من العار وقتها أن يذكر اسم المرأة فى مجالس الرجال.. ومن هنا فأننى أعذر المؤرخين الذين أغفلوا دور المرأة فى الثورة العرابية لصعوبة الحصول على «مصادر» رواياتهم عن ذلك الدور.

وقد تعبت كثيرا فى تتبع هذا «الدور النسائى» فى حركة عرابى فلم يتزعزع إيمانى لحظة واحدة فى أن المرأة التى كانت تعانى كل ما يعانيه الشعب من أسباب التذمر والسخط التى أوحت بتلك الحركة.. لم يتزعزع إيمانى فى أن المرأة المصرية التى كانت تئن من تطفل الجوارى الشركسيات والتركيات على بيوتها، ومزاحمتهن لها فى رجالها.. كان من المستحيل عليها أن تقنع بدور «المتفرج» على تلك الثورة من وراء الستائر المسدلة والمشربيات الشرقية المزخرفة.

كلا ولا يمكن أن تقنع أيضا بتلك الأغنيات الحماسية التى يشجعن بها أبناءهن وأشقاءهن «يا مولانا يا عزيز.. كبه تاخد الإنجليز..»!

بل لقد لعبت المصرية دورا سريا هاما كان هو عماد الثورة واحتياطيها الضخم.. فقد صاحب ظهور الحركة العسكرية ظهور جماعتين ثوريتين.. إحداهما جمعية حلوان، والثانية جمعية «مصر الفتاة» بالإسكندرية، وكانت كلتاهما جماعة سرية، وإن تطورت الأخيرة فيما بعد إلى حركة علنية لم تثبت أن أخمدتها الحكومة وعطلت جريدتها..

ففى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ - أى قبل الحركة العرابية بعام واحد - أذاعت جمعية حلوان بيانا سريا ضد طغيان رياض باشا وبلغ عدد النسخ التى وزعت منه عشرين ألف نسخة وهو عمل رهيب فى ذلك الوقت دون أن تتمكن حكومة رياض باشا من ضبط أحد من موزعيه أو معرفة مصدره أو مكان طبعه ويقول مسيو جون نينيه الذى عاصر الثورة العرابية وسجل وقائعها من مذكراته: إن هذا المنشور بالذات كان من أكبر الأعمال التى عجلت بإسقاط ذلك الحكم الاستبدادى البغيض.. فهل يعلم المصريون من أبناء الجيل الجديد أن حرم المرحوم إسماعيل راغب باشا وحرم المرحوم شاهين باشا كنج. كانتا صاحبتى الفضل فى توزيع البيان التاريخى، بهذه البراعة، ودون أن يفطن إلى موزعيه - بل إلى موزعاته - أحد من رجال الحكومة ؟

نعم.. كان اسماعيل «باشا راغب» يعرف أن عيون الخديو وعيون رياض باشا منبثة حول بيوت المناضلين الأحرار فى ذلك الوقت، من أمثال شريف باشا وعمر باشا لطفى وحسن الشريعى باشا وأحمد عرابى «بك» الخ فهداه تفكيره إلى أن أحدا لن يشك فى «السيدات» أو يجرؤ على تفتيشهن فى ذلك الوقت.. ولم تلبث حركة التوزيع أن عنيت بتجنيد السيدات عن طريق هاتين البطلتين.. وفى خلال ثلاثة أيام كانت المنشورات تنتقل من بيت إلى بيت ومن بلد إلى بلد آخر عن طريق الجندى المجهول فى الثورة العرابية.. المرأة المصرية !

ومن الطريف أن بعض تلك المنشورات وضعت إذ ذاك فى قصور الخديو ورياض باشا.. بواسطة بعض الوصيفات اللواتى كن يؤيدن حركة التحرير أو حركة الإصلاح كما كانوا يسمونها وقتذاك !

وكما لعبت المصريات هذا الدور فى جمعية حلوان - الحزب الوطنى الأول - فكذلك لعبن أدوارًا مماثلة فى حركة «مصر الفتاة» بالإسكندرية فلما بدأت الشرارة الأولى فى الثورة.. عندما استدرج عرابى وزميلاه إلى ثكنات قصر النيل لمحاكمتهم، كانت المرأة المصرية كعادتها تلعب دورها من وراء ستار، فهى التى تنقل الأنباء بطريقتها الخاصة ودون أن يتنبه إليها أحد أو يشك فيها عين من عيون الاستبداد !

ويتحدث السيد عبدالله نديم نفسه عن فترة اختفائه بعد الثورة مدى تسع سنوات فيعترف بفضل كثير من السيدات اللواتى كن يعرفنه رغم تنكره، فلا يوشين به برغم الجائزة الكبيرة التى رصدتها الحكومة لمن يرشد عنه، وكن لا يضحين بهذه المكافأة المالية الضخمة إذ ذاك فقط، بل كن يساعدنه على التخفى والاختفاء ويتعرضن فى سبيل ذلك أو يعرضن رجالهن على الأقل لكثير من الأذى والخطر !

ذلك هو مجمل الدور العظيم الذى لعبته المرأة المصرية فى أول ثورة ديمقراطية عرفتها مصر، وإن تاهت «التفاصيل» فى بحر من التقاليد العتيقة وفيض من الجمود البغيض للمرأة المصرية !

ومع ذلك فقد كانت هناك حقيقة بارزة لم تستطع كل تلك الظروف أن تطمس معالمها، ونعنى بها ما اعترف به بعض المؤرخين، من أن المرأة المصرية ظهرت فى الخطر - الخطر عندما بدأت البوارج البريطانية تطلق مدافعها على مدينة الإسكندرية.. ظهرت بعض النساء، وأبدت من ضروب الحماسة والشجاعة ما لفت إليها الأنظار !

ولعل الحقيقة الكبرى أن بعض جثث الضحايا الذين أسقطتهم مدافع المستعمرين.. كانت جثث نساء، فى الوقت الذى كانت المرأة المصرية مسجونة فى بيتها تقوم بينها وبين الطريق أسوار عالية من الجهل والتأخر، والجمود !!

الأفغانى
والشيخ محمد عبده وقاسم أمين
ينتصرُون للمرأة

إن الشعوب لا تموت أبدا مهما طالت بها ليالى الظلم والجمود، وهى حين تستيقظ فجأة لا يكون ذلك عادة إلا بما يتسلل إلى عقول أبنائها من الوعى الذى ينيرها ويوضح لها الطريق.. وكيف يتسلل نور الوعى إلا متسلقا أقلام الكتاب الأحرار وألسنة الخطباء الثوار.. إنها الشرارات المقدسة التى تلهب المشاعر الخامدة وترسم طريق الإصلاح بما تحمله من رسالات وما تدعو اليه من تحرر فكرى. فمن غير هذه الوثبات الفكرية لا تتهيأ النهضات الإصلاحية والانقلابات التجديدية.. وما زلنا جميعا نذكر كيف أن «جاك جاك روسو» كاتب فرنسا الخالد هو الذى وضع أسس الثورة الفرنسية بما كان ينشره من أفكار متحررة، حتى لقد اعتبر مؤلفه العظيم (العقد الاجتماعى) دستورا للحرية على مر العصور..

وكان هذا هو ما حدث فى مصر أيضا عندما قام نفر من كتابها وعلمائها يرسمون لمصر معالم نهضتها فى أواخر القرن التاسع عشر فكان لهم الفضل الأول فى وضع هذا الحد الفاصل بين أجيال التأخر والجمود.. وبين جيلنا الجديد المستنير.. وإن مصر اليوم - فى القرن العشرين - لتدين بيقظتها وتطورها إلى تلك النهضة الفكرية البكر التى حمل لواءها أولئك الرواد الأوائل.. كتاب وخطباء وزعماء القرن الماضى..

* * *

ولعل أهم ما أفادته مصر فى ذلك القرن هو إيفاد الطلاب المصريين فى بعثات علمية إلى الخارج.. إذ لم تمض أعوام على عودة النابهين من أولئك الطلاب إلى مصر حتى كانت صيحة الإصلاح والتجديد تنطلق بها أقلامهم الحرة الجريئة لتملأ سماء مصر تمهد لثورة فكرية تقوم على أساس من العلم والحقيقة.

وكالعهد بكل دعوة إصلاحية جديدة، انقسمت الآراء حول تلك الدعوات الجريئة التى حمل لواءها قادة الفكر فى أيام حكم إسماعيل وما بعده، أمثال جمال الدين الأفغانى الذى جاء إلى مصر وفى جعبته كنوز وعلمه التى لم تلبث أن أصبحت مشعلا فى تاريخ «الذهن» المصرى الجديد.

وهكذا لم يغادر جمال الدين أرض مصر منفيا من حكامها الطغاة إلا بعد أن أعد الطليعة الواعية من شبابها الذين تلقوا على يديه دروس التحرر الاجتماعى والتحرر السياسى ومنهم من ساعدته الظروف على إكمال نضجه الفكرى فى باريس بلد النور كالإمام الشيخ محمد عبده تلميذ حكيم الشرق الأكبر، وإلى جانب الإمام عاش نصير المرأة «قاسم أمين» يخصص جهده الأكبر للدعوة الى نهضة نسائية شاملة.. هذان الرجلان اللذان خاضا المعركة الأولى دفاعًا عن نساء مصر وحقهن فى الحرية والكرامة، إذ نادى الشيخ الإمام بتقرير حق المرأة المسلمة فى التحرر من المظالم التى تعانيها باسم الدين والدين ـ كما استوعبته عقليته الناضجة المتحررة ـ براء من تلك المفتريات والأكاذيب. كما قام قاسم أمين يطبق هذه العدالة الشرعية التى كشفها صديقه الشيخ الإمام عن حق المرأة فيها على حقوق المرأة الاجتماعية والإنسانية. فاجتمعت للمرأة المصرية على يديهما نهضة بكر هى أساس النهضة النسائية الحديثة.

الشيخ محمد عبده

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن موقف الأستاذ الإمام فى ذلك كان يعنى الدفاع عن سمعة الشريعة الإسلامية وكيان الدين الإسلامى ضد ما يلصق بهما من افتراءات تحمل طابع الظلم للمرأة والاستبداد بها مما يفتريه على الدين جموع

الجهلاء والمغرضين فقد اهتم بأن يخصص لحكم الشريعة فى أحوال المرأة المسلمة مكانًا بارزًا فى تفسيره الحر للقرآن الحكريم، وهى شجاعة لا تتوفر إلا لمن هو فى مكانة الشيخ الإمام وعلمه وتحرر عقليته وسلامة وجدانه. بل لعل فى مقدمة ما جاء فى تفسيره لموقف الإسلام من أحوال المرأة تصديه لدفع الظلم الذى يحيق بالمرأة المسلمة فى ظل أسطورة حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات باسم الشريعة الإسلامية، والشريعة إذا أخذت بروحها السمحة العادلة - كما استوعبتها عقليته المتحررة - لا يمكن أن تفسر على أنها جاءت لتحكم الأغلال حول عنق المرأة أو تهدر حقها فى الحياة الحرة الكريمة التى أرادها الإسلام للإنسانية جميعا.. على أن الشىء الذى رفع دفاع الشيخ محمد عبده عن المرأة الى أسمى مكانة فى رأيى هو أنه كان يستمد حججه وبراهينه من آيات الله، ومن نصوص التشريع الإسلامى مما لم يترك فرصة لخصوم المرأة وجموع الجهلاء لمهاجمته على نحو ما لاقاه زميله وصديقه قاسم أمين عندما قام يعلن حق المرأة فى التحرر والمساواة، وإننى لأعترف فى هذه المناسبة بما كان لمقالات الشيخ الإمام وتفسيره لموقف الاسلام من الطلاق وتعدد الزوجات. من أثر كبير فى إيمانى بحقوق نساء وطنى فى الحرية والمساواة والعيش الكريم.. فقد كانت مقالات الشيخ محمد عبده وكتبه على رأس قائمة كبيرة بمحتويات مكتبة ثمينة أهداها لى والدى وهو يوصينى بأن تكون كتب الإمام رائدى الأول فى التحصيل لدينى ودنياى.

ولم يفت الشيخ الإمام أن يبرهن على تقدير الإسلام لمكانة المرأة فى الأسرة وحقها على زوجها فى وجوب احترامها وحسن معاشرتها، وفى كتاب «تفسير المنار» قال: إن الذكر والأنثى متساويان عند الله تعالى فى الجزاء متى تساويا فى العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها ولاتسىء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعله اللهُ رئيسًا عليها يقتضى أن يكون أرفع منزلة عند الله تعالى منها.

وقد بنى الله تعالى المساواة بقوله «بعضكم من بعض» فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال.

« أقول وفيه وجه آخر وهو أن كلا منهما زوج وشقيق للآخر وفى معنى ذلك حديث (النساء شقائق الرجال) قالوا أى مثلهم فى الطباع والأخلاق كأنهن مشتقات منهم..

«هذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات عند أنفسهن وعند الرجال.. (وعاشروهن بالمعروف) أى يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحسنوا عشرة نسائكم بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهن بالمعروف الذى تعرفه وتألفه طباعهن، ولا يكون مستنكرا شرعا ولا عرفا ولا مروءة، فتضييق النفقة والإيذاء بالقول أو بالفعل وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء كل ذلك ينافى العشرة بالمعروف، وفى المعاشرة معنى المشاركة والمساواة أى عاشروهن بالمعروف وليعاشركن كذلك.. وقد فسر المعروف بعضهم بالنصفة فى القسم والنفقة والإجمال فى القول والفعل وفسره بعضهم تفسيرا سلبيا فقال: هو ألا يسىء إليها ولا يضرها وكل منهما ضعيف وجعل الأستاذ الإمام المعنى فى المعروف على ما تعرفه المرأة ولاتستنكره وما يليق به وبها بحسب طبقتها فى الناس.. وقلما يقصر المسلمون فيما يجب للنساء.. بل هم أكثر أهل الملل إنفاقا على النساء وأقلهم إرهاقا لهن بالخدمة، ولكنهم قصروا فى أمور أخرى. قصروا فى إعداد البنات للزوجية الصالحة بما يجب من التربية الدينية الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليم المغذى لهذه التربية فعسى أن يرحبوا بها عن قريب».

هذه هى روح الإسلام الصحيحة كما استوعبتها عقلية محمد عبده المتحررة التى سبق بها عصره ورفع بها لواء الدين بما أظهره من سمو تعاليمه وعدالة شرائعه !

قاسم امين :-

قاسم أمين هو نصير المرأة الأكبر الذى حَمَّل نفسه رسالة الدفاع عن حرية نساء وطنه والدعوة الى تحريرهن فى زمن مظلم وبيئة غارقة فى التزمت والجهل والرجعية الأمر الذى جعل قاسم أمين يعانى فى سبيل دعوته الجريئة ما يعانى

أصحاب الرسالات العظيمة أو دعوات التجديد فى المجتمعات المتأخرة ولكن شيئًا مما كان يلاقيه «قاسم أمين» من معارضة وهجوم لم يقم على إخماد حماسته وإيمانه بعدالة القضية التى تصدى للدفاع عنها .فمضى يواصل كفاحه الشاق داعيا لحق المرأة فى التحرر على أساسين كانا هما الحجر الأول فى بناء نهضة المرأة الحديثة فقد أخرج كتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ليناقش فيهما قضية المرأة من نواحيها المختلفة مبديا حجته فى ضرورة تحررها ورفعها إلى المكان اللائق بها بجوار الرجل فى ميادين التعليم وتحمل المسئوليات فهو يقول عن سفور المرأة «كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة وكيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة منزل فيه رجال؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال؟ كيف يتسنى لزراعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعها؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها إذا أجرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو غيره من الأعمال؟

وبالجملة فقد خلق الله هذاالعالم ومكن فيه للنوع الإنسانى ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول إليه. ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق. وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة فى هذا النوع ولم يقسم الكون بينهما قسمة أخرى، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن، وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين شائعا تحت سلطة مواهبهما بلا تمييز فكيف مع هذا لامرأة أن تتمتع بمايشاء الله أن تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والحقوق وما عرضه عليه لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال إذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال إلا من كان من محارمها؟،

لاريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل، لهذا رأينا أن الضرورة قضت على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب طبقات المسلمين كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى، حتى من أهل الطبقة المتوسطة، بل عند بعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى، والكل مسلمون بل قد يكون الدين أمكن فيهم من أهل المدن.

بهذا المنطق الواقعى حلل قاسم أمين مأساة الحجاب الذى كان يحجب عن نساء جيله نور الحياة والحرية ويسلبهن فرص العلم والعمل. فقاسم أمين لم يعالج مشكلة الحجاب على أساس منفصل عن جوهر القضية النسائية الذى أدركه بعقليته المتحركة، وهو أن تحرير المرأة وسفورها ضرورة يمليها الواقع وتفرضها حاجة الوطن إلى التخلص من قيود التأخر والجمود التى شلت إنتاج نصف الأمة، وحالت بين المجتمع المصرى وبين أسباب التحرر الفكرى والاقتصادى والقومى.

وها هو ذا قاسم أمين يدعو مواطنيه وأبناءهم إلى المساواة بين تعليم بناتهم وأبنائهم فى كتابه «المرأة الجديدة» بقوله:ـ

«إنه يجب على كل أب أن يعلم بنته بقدر ما يستطيع، وأن يعتنى بتربيتها كما يعتنى بتربية أولاده الذكور فإن تزوجت بعد ذلك فلن يضرها علمها بل أنها تستفيد منه كثيرا وتفيد عائلتها،وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب الكثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها فى تحصيل معاشها بطريقة ترضيها أو تكفل راحتها واستقلالها وكرامتها».

وقاسم أمين الذى آمن بحق المرأة فى التعليم لم يغفل شرح أهمية تعليم المرأة لحماية نفسها وكرامتها وتأمين مستقبلها بل هو لم يغفل أهمية ربط تربية المرأة بتقويم أمتها وفى ذلك يرسل صيحته قائلا: ـ

«إذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبتدءوا فى الإصلاح من أوله يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لارجاء فى أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية فى عالم التمدن الإنسانى قبل أن تكون بيوتهم وعائلاتهم وسطا صالحا لإعداد رجال متصفين بتلك الصفات التى يتوقف عليها النجاح. ولا رجاء فى أن تصير البيوت والعائلات إلى ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربت النساء وشاركن الرجال فى أفكارهم وآمالهم وآلامهم إن لم يشاركنهم فى جميع الأعمال».

على أن الشىء الذى يرتفع بعقلية قاسم أمين إلى أعلى درجات الرقى والوعى، هو أنه استطاع أن يعالج قضية المرأة من أساسها عندما جعل العمل للمرأة هو محور تحريرها..

وعندى أن فهم قاسم أمين لقضية المرأة على هذاالأساس هو السبب الأول فى نجاح رسالته وإبراز شخصيته من بين كل من تعرض لمعالجة موضوع المرأة.. وهو فهم سبق به «قاسم أمين» عقلية جيله وبذلك استحق أن تكون له صفحة رسل الإصلاح.. هؤلاء الذين يحملون مشاعل الهدى ليهدوا إلى الحق قوما ما كانوا ليهتدوا إليه من أنفسهم بغير تضحيات من الوقت والتجربة المريرة، وإن من يستمع لقاسم أمين وهو يسجل فى كتاب «تحرير المرأة» هذا التفسير المادى الصحيح لاستبعاد المرأة برده إلى أسباب اقتصادية.. أن من يستمع إليه وهو يقول: -

«فلأن النساء فى كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الأقل، فبقاؤهن فى الجهل حرمان الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة،وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى. ولا شىء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل مثل الغربية بالعلوم والفنون والآداب والتجارة والصناعة سوى جهلها وإهمال تربيتها، ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الأحياء ووجهت عزيمتها إلى محاولتهم فى الأعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هى اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها».

« مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل، وهو لم يشأ أن يتخذها إلا أمرًا صالحًا لخدمته، مسيرا بإرادته وأغلق فى وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث اضطرها إلى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها».

أقول: إن يستمع اليوم إلى هذا التحليل لاستبعاد المرأة وهو التحليل العلمى الذى لم تصل إليه حتى اليوم سوى الأفهام الراقِية الواعية.. ليدرك أى رجل كان «قاسم أمين» وأية عقلية ناضجة كانت عقليته. بل شجاعته تلك التى جعلته يخرج على قومه بدعوته لتحرير المرأة !.

المرأة المصريّة
تدخل الحزب الوطنى

.. لم يستطع الخديو توفيق أن يطفئ شعلة الوطنية من قلوب المصريين.. صحيح إنه طارد زعماء الثورة العرابية، وزج بهم فى أحشاء السجون، أو القى بهم إلى المنافى البعيدة، أو سلط عليهم أسلحة التجويع والتشريد والحرمان، ولكنه لم ينجح رغم ذلك كله فى تحطيم الوعى الجديد الذى كانت الثورة العرابية قد نشرت ضياءه على الجماهير، ولم يلبث هذا الوعى أن تمخض عن قيادة جديدة!

وكان القائد الجديد للشعب فى هذه الفترة هو مصطفى كامل، ومن بعده محمد فريد.. وفى هذه المرة لم تقنع المصرية الطموحة بأن تلعب دورها من وراء الحجب كما فعلت فى الثورة العرابية، فقد مدت يدها فأزاحت الستائر المسدلة عليها، وأطلت من ورائها، وأعلنت بملء الفم، إنها ستشترك بنفسها فى المعركة!

ولم يفت القائد الشاب أهمية الدور الذى يمكن أن يؤديه هذا الجندى الجديد الذى نزل إلى الميدان دون أن يستأذن أحدًا، وأعنى به المرأة المصرية، فما كادت عينه الفاحصة تلحظ هذا الجندى واقفا بين صفوف جيشه حتى اهتز وجدانه الوطنى فوجه الخطاب قائلا:.

لا داء أخطر بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء اعتقادها السوء فى نفسها ويأسها من مستقبلها، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم أعلنوا عليه حربًا عوانًا.. وبثوا فى أبناء الأمة مبادئ الثقة فى النفس والاعتماد على المجموع.. وربوا البنين والبنات على محبة الوطن..!

وكانت هذه أول دعوة لتجنيد المرأة وإعداها لخوض المعركة الوطنية ولكن بعد أن قررت هى النزول إلى الشارع، بالحبرة واليشمك، لتؤدى ضريبة الوطن عليها..

ولأول مرة فى تاريخ نضالنا الوطنى، كان الزعيم يبدأ خطبه «سيداتى.. سادتى فلم تكن المرأة من قبل تظهر فى الاجتماعات السياسية.. ولكنها ظهرت فى هذه المرة لتستمع، بل لتخطب أيضا فى مؤتمرات الحزب الوطنى نفسه!

نعم فى٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ حضرت بعض السيدات باليشامك والحبر إلى دار اللواء، وجلسن مع الحاضرين ولكن فى ركن قصى، وكان ذلك موضع اعتزاز الزعيم الخالد وفخره.. ولم يكن ذلك غريبا على الشاب الذى أجمع المؤرخون على أن أكبر اثنين كان لهما أعظم الأثر فى حياته هما سيدتان ـ الأولى هى أم المرحومة السيدة «حفيظة محمد الألفى» التى يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بالحرف الواحد إنه «كان لها فضل كبير فى تنشئته» والتى يصفها هو فى إحدى رسائله بأنها «مالكة فؤاده» وهو ما يعبر عن مدى تأثره بها.

والثانية هى المناضلة الفرنسية الحرة «جولييت آدم» التى كتب لها ـ لأول مرة ـ فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ يقول :ـ

«إننى أبلغ من العمر واحدا وعشرين عاما، وقد نلت أجازة الحقوق من تولوز قبل سنة.. وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة وطنى العزيز، وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا، وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المجال فأعيننى يا سيدتى فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى، وتقوية عزمى وشد أزرى».

فماذا فعلت تلك السيدة التى اختارها «مصطفى كامل» من بين العالمين لتكون معوانه وسنده.. لقد بذلت له فوق كل ما يتصوره العقل فأصبحت من ذلك اليوم أمه الروحية، ومستشاره، وملهمته، ومشجعته على المضى فى رسالته إلى الأمام، وتقول هى بالحرف الواحد :ـ

«من عهد أول مقابلة لى مع «مصطفى كامل» أخذت أؤدى له وظيفة الأم فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر، وأوليته من حب الأم

جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه، وأوجدت له فى آن واحد علاقات نفسية فى عالم الصحافة الفرنسية تلك العلاقات التى عرفت كيف يستخدمها بأحسن سياسة فى دعواه الشريفة وأمكن فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارته فى جميع البلدان الأخرى حتى انجلترا نفسها».

ويحتاج الحديث عن دور «جولييت آدم» فى تأييد مصطفى كامل وحركته الوطنية.. يحتاج إلى مجلدات وحسب أن أشير هنا فى كلمات عاجلة إلى بعض ما أدته..

لقد نشرت رسالة الزعيم الشاب عن (أخطار الاحتلال البريطانى) فى صدر جريدتها (المجلة الحديثة) وفى كبريات صحف باريس.. وزارت مصر فى أوائل يناير سنة ١٩٠٤ وأقامت نحو ستة أسابيع فى بلادنا تدرس أحوالها وتستمع إلى رجالاتها.. وشجعت زعيمنا الراحل بأن دعته إلى أن ينشر بجريدتها ما يشاء وقالت له بالحرف الواحد (استرسل استرسالا بغير تقتير) وأخيرا وضعت كتابا من أعظم المؤلفات التى أخرجت عن قضيتنا وهو (إنجلترا فى مصر) ومن هنا نجد تفسيرًا لاحترام مصطفى كامل لدور المرأة المصرية، واعتماده عليها، ودعواه الملحة فى تعليمها، وترحيبه بها فى الحزب الوطنى، ولكن التقاليد لم تكن تسمح بعد بالخطوة الجريئة التالية، وهى الاعتراف بعضويتها رسميا فى الحزب فبقيت تخطب وتشارك بوجدانها وبنشاطها فى كل ما يدعو إليه، حتى توفى «مصطفى كامل» سنة ١٩٠٨ فوقفت السيدة زينب فواز فى حفلة الأربعين يوم الجمعة ٢٠ مارس من ذلك العام.. وقفت تخطب (عن السيدات) فكانت هذه إحدى معجزات مصطفى كامل، وهى قبل ذلك أيضا إحدى معجزات المرأة المصرية..

ولم يكن خليفة مصطفى كامل أقل تحررًا من سلفه العظيم، ولم يكن بالتالى أقل ترحيبًا باشتراك المصرية معه فى جهاده.. بل لعله مضى فى هذا السبيل شوطًا أبعد مما وصل إليه مصطفى كامل، ففى المؤتمر الذى عقده البطل محمد فريد بمدينة بروكسل فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٠ ودعا إليه أحرار العالم لتأييد مصر: لم يغفل دعوة عشر من الشخصيات النسائية البارزة، لبى أكثرهن الدعوة، وكان فى مقدمة من خطبن منهن.. جولييت آدم، ومدام كاما الصحفية الهندية

المعروفة إذ ذاك، ومدام كتشوكوفا، والأميرة كتشولى من روسيا ومدام دراى هرست ومكاتبة الديلى نيوز الأرلندية الثائرة، بل كانت المعجزة الكبرى حقا، ان ثالث خطباء ذلك المؤتمر.. بعد محمد فريد مستر بلنت، كانت سيدة مصرية، هى كريمة المرحوم مصطفى بك شوقى.. السيدة إنشراح شوقى!

فإذا شئنا أن نتحدث عن دور المرأة فى حياة محمد فريد.. والمرأة المصرية بصفة خاصة، لوقفنا طويلا.. كات السيدة الأولى هى أمه ويصفها مترجم حياته فيقول: (إنها السيدة بمبه بنت إبراهيم قاضى البهار وكانت سيدة فاضلة عالية النفس محبة للخير، كريمة الأخلاق الشريفة حسنيه (أى من سلالة الحسن) وكان لها ولا ريب ـ فضل كبير فيما اتصف به الفقيد من صفاء النفس وكرم الأخلاق).

وكانت السيدة الثانية فى حياته هى زوجته عائشة هانم كريمة السيد إسماعيل حافظ وهى بنت عمه ويعرف تاريخ محمد فريد دورها فى أكثر مراحل جهاده، فهى التى دبرت هربه للمرة الثانية إلى أوروبا، حتى لا يقع أسيرًا فى أيدى المستعمرين، ثم دبرت هربه للمرة الثانية من إسطنبول حتى لا يقع أسيرًا فى يد الدولة العثمانية التى بدأت تتآمر بالوطنيين المصريين.

وكانت السيدة الثالثة فى حياته هى كبرى كريماته تلك التى لعبت ذلك الدور التاريخى المجيد فى دعوته إلى الحضور إلى مصر لمواجهة خصومه الذين تآمروا عليه لمحاكمته، ثم راحوا يتهمونه بالجبن والخوف من السجن لأنه لا يريد العودة من أوروبا فكتبت إليه كريمته خطابها الخالد، والتى قالت له فيه بالحرف الواحد يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩١٠:

«ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش فذلك أشرف مما يقال بأنكم هربتم، وماتحملتم الهوان فى سبيل وطنكم.

وختمته بقولها (وأختم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون كل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن.)

وكان لهذا الخطاب أثره العميق فى نفسه، فما كاد يفرغ من مؤتمر بروكسل وما تلاه من نشاط حتى عاد فى ديسمبر من ذلك العام حيث حكم عليه بالسجن يوم ٤ يناير لمدة ستة شهور...

وكانت السيدة الرابعة فى حياته هى مدام شيبورين، أوعزيزة شيبورين، التى أحبت مصر من أجله، وكانت خير معوان له طوال سنى كفاحه فى أوروبا والتى شاءت ظروفه كزعيم ألا تسلط الأضواء على دورها الكبير فى حياته وكفاحه.

ولأعد الى الموضوع.. ولنسجل هنا أن المرأة المصرية ظلت تتسلل إلى الصفوف من صفوف الحزب الوطنى ـ فظهرت لأول مرة فى المظاهرة التى نظمها الحزب سنة ١٩١٤ يوم افتتاح الجمعية التشريعية فى ٢٢ يناير، للهتاف بالدستور والحياة النيابية الصحيحة! وأخيرا توفى محمد فريد أيضًا..

ونقل رفاته إلى مصر..

ولم تقنع السيدات المصريات فى هذه المرة بمساهمتهن فى الحفلات التى أقامتها مختلف الطوائف للزعيم الشهيد، فأقمن لتأبينه حفلة خاصة يوم ١١ يونيه سنة ١٩٢٠ بساحة ضريحه الطاهر بالسيدة نفيسة..

وكانت خطيبات ذلك الحفل هن:

أمينه هانم غازى

حرم الدكتور عثمان لبيب عبده

حرم اسماعيل (بك) عاصم

السيدة حصلب

السيدة لبيبه هانم

كريمة المرحوم محمد (بك) رياض

كريمة المرحوم محمد (بك) عز العرب

دكتورة عيوشة هانم

الطالبة ثريا (عن مدرستى العناية والثبات)

وهكذا دخلت المرأة المصرية الحزب الوطنى ولكن من الباب الخلفى.. باب الحريم،ولكنها دخلت على أى حال، ومهما بدا لها إذ ذاك من ذهول المجتمع لهذه المفاجأة الكبرى !!

المرأة المصرية
فى ثورة سنة ١٩١٩

.. ولم يكن نصيب المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ أقل من نصيب الرجال.

.. ففى يوم ٩ مارس سنة ١٩١٩ خرجت أول مظاهرة تعبر عن احتجاج شعب مصر على الاستعمار البريطانى، وهى المظاهرة التى نظمها طلاب «مدرسة الحقوق» وانضم إليها طلاب مدارس الطب والتجارة ودار العلوم والقضاء الشرعى.. ثم انضم إليها الشعب كله، ثم انضمت لها من النوافذ والشرفات والأسطح نساء مصر المتحمسات الغاضبات.. الشعبيات منهن يزغردن، والمتعلمات يهتفن ويلوحن بمناديلهن مشجعات.

ولكن ما كادت المظاهرات تستأنف فى الأيام التالية حتى نفد صبر النساء المصريات من عزلهن عن الثورة، فسار بعضهن مع المظاهرات. وكان الطلاب يحيطون بهن للمحافظة عليهن.

ثم كانت المعجزة التاريخية عندما سجلت الشهيدة حميدة خليل من كفر الزغارى بالجمالية.. عندما سجلت بدمها الطاهر فى يوم ١٤ مارس أن المرأة المصرية كانت فى القائمة الأولى لشهداء الثورة.. نعم كانت الشهيدة حميدة خليل فى أول قائمة نشرتها الصحف وأذاعتها وكالات الأنباء إذ ذاك عن الذين سقطوا صرعى فى الجهاد.

كان اليوم ـ يوم جمعة، وخرج المصلون من الأزهر ومسجد الحسين ليؤلفوا مظاهرة لم يلبث أن انضم إليها بقية الشعب، ومن هؤلاء المتظاهرين عدد كبير

من النساء بينهن الثائرة «حميدة خليل»، وبدأت بين المتظاهرين والقوة البريطانية معركة أمام المسجد الحسينى ولم تلبث المدافع الإنجليزية الرشاشة أن بدأت تتصيد زعماء المظاهرة فسقط اثنا عشر شهيدا، كانت فى مقدمتهم.. حميدة خليل.

وكانت جنازة الشهيدة هى الناقوس الذى أيقظ كل سيدات مصر وجمعهن ساعة الخطر فلم تمض ٤٨ ساعة حتى خرجت مظاهرة قوامها ثلثمائة من أكرم نساء مصر.. خرجت فى موكب رهيب، لتقدم إلى معتمدى الدول الأجنبية،ذلك الاحتجاج التاريخى المشهور.

«جناب المعتمد

«يرفع هذا لجنابكم السيدات المصريات.. أمهات وأخوات وزوجات من ذهبوا ضحية المطامع البريطانية، يحتججن على الأعمال الوحشية التى قوبلت بها الأمة المصرية الهادئة لا لذنب ارتكبته سوى المطالبة بحرية البلاد واستقلالها تطبيقا للمبادىء التى قام بها الدكتور ويلسن وقبلتها جميع الدول محاربة كانت أو محايدة.

«نقدم لجنابكم هذا، ونرجو أن ترفعوه لدولتكم المبجلة لأنها أخذت على عاتقها تنفيذ المبادىء المذكورة والعمل عليها، ونرجوكم إبلاغها ما رأيتموه وما شاهده رعاياكم المحترمون من أعمال وحشية وإطلاق الرصاص على الأبناء والأطفال والأولاد والرجال العزل من السلاح لمجرد احتجاجهم بطريق المظاهرات السلمية على منع المصريين من السفر للخارج لعرض قضيتهم على مؤتمر السلام أسوة بباقى الأمم وتنفيذا للمبادئ التى اتخذت أساسًا للصلح العام، ولأنهم يحتجون أيضًا على اعتقال بعض رجالهم وتسفيرهم الى جزيرة مالطة.

«لنا الأمل يا جناب المعتمد أن يحل طلبنا هذا ـ نحن السيدات المصريات ـ محل القبول ـ ولا زلتم عونا لنصرة الحق، مؤيدين لمبادئ الحرية والسلام».

ويصف المورخ الوطنى الكبير «عبد الرحمن الرافعى» هذه المظاهرة فيقول: «سارت السيدات فى صفين منتظمين، وجميعهن يحملن أعلاما صغيرة، وطفن

الشوارع الرئيسية فى موكب كبير، هاتفات بحياة الحرية والاستقلال وسقوط الحماية،فلفت موكبهن أنظار الجماهير، وأذكى فى النفوس روح الحماسة والإعجاب، وقوبلن فى كل مكان بتصفيق الناس وهتافهم، وأخذ النساء من نوافذ المنازل وشرفاتها، يقابلنهن بالهتاف والزغاريد،وخرج أكثر أهل القاهرة ـ رجالا ونساء ـ لمشاهدة هذا الموكب البهيج، الذى لم يسبق له نظير، وأخذوا يرددون هتافاتهن» !

وهكذا، ظلت الثلاثمائة الباسلات من طليعة نساء مصر، يسرن بأعلامهن وموكبهن الرهيب هذا حتى فرغن من توزيع احتجاجهن على مختلف المفوضيات، وفى طريق عودتهن قصدن إلى بيت الأمة، ولكن الكونستبلات الإنجليز تصدوا لهن عند أول شارع زغلول وسددوا إليهن البنادق والحراب، بقيت المتظاهرات صامدات لهذا التهديد وظللن تحت وهج الشمس أكثر من ساعتين تشاورن خلالهما فى الأمر، ثم قررن مواصلة السير مهما كانت النتائج، ولما بدأ موكبهن يتحرك، اقترب أحد الجنود الإنجليز نحو حاملة العلم وكانت المغفورلها السيدة حرم محمد راتب «باشا» ووضع فوهة بندقيته أمام صدرها فقالت له بالإنجليزية: «نحن لا نهاب الموت».

وتصبب الكونستبلات الإنجليز عرقا من الخجل، وفى غمرة هذا الانهيار، تسللت السيدات الباسلات إلى بيت الأمة، حيث كتبن احتجاجهن الثانى لمعتمدى الدول الأجنبية أيضًا:

«قررت السيدات المصريات بالأمس القيام بمظاهرة سلمية، والمرور على دور السفراء لتقديم الاحتجاج الكتابى المرفق بهذا، والذى نتشرف برفعه لجنابكم الآن، وعندما اجتمعن بشارع سعد زغلول «باشا» حاصرتهن قوة مسلحة من العساكر البريطانية ووجهت لهن السلاح حتى لا يتحركن لا إلى الأمام ولا إلى الخلف، وبقى السيدات هكذا مدة ساعتين تحت نار الشمس المحرقة.

« هذا ما رآه المحتلون من معاملة السيدت، وهو بمفرده وبغير تعليق دال على استمرار الإنجليز فى استعمال القوة الغاشمة حتى مع السيدات لإخماد أنفاس

هذه الحركة العامة التى لم يكن أساسها أى عداء لضيوفنا الأجانب، لأنها موجهة فقط ضد أعمال الاستبداد والقوة التى يقابل الإنجليز بها مطالب الأمة الحقة الشرعية.

« لهذا يا جناب المعتمد نضم هذا الاحتجاج الثانى لاحتجاجنا الأول، نرجو إبلاغه لدولتكم الموقرة التى أخذت على عاتقها نصرة مبادئ العدالة والحرية.

وتفضلوا بقبول احترامنا».

وقد وقع ذلك الاحتجاج العنيف السيدات والآنسات الآتية أسماؤهن بحسب ترتيبهن فى أصل هذه الوثيقة التاريخية :

حرم حسين رشدى باشا. حرم سعد زغلول باشا. هدى شعراوى حرم على شعراوى باشا. حرم محمود رياض باشا. حرم محمد سعيد باشا. حرم إسماعيل صدقى باشا. حرم عمر سلطان باشا. حرم عثمان عرفى باشا. حرم الدكتور محمد علوى باشا. حرم محمد شكرى باشا. حرم إسماعيل سرى باشا. حرم الدكتور بهى الدين بركات. حرم الدكتور حسن محرم بك. حرم الأستاذ محمد أمين يوسف. حرم محمد صدقى باشا. حرم محمود سرى بك. حرم أحمد راغب بدر بك حرم أحمد عبد اللطيف بك. حرم محمد محرز باشا. حرم مصطفى بك عبد الخالق. حرم أحمدبك لطفى. حرم عثمان باشا مرتضى. الآنسة كريمة عثمان باشا مرتضى. حرم أحمد بك أبو إصبع. حرم حسن بك خيرى. حرم إسماعيل حسنين باشا. حرم محمد بك رأفت. حرم سعيد بك حلمى. حرم إبراهيم رأفت باشا. حرم محمود سامى باشا البارودى. حرم حنا بك مسيحة. الانسة كريمة محمود سامى باشا البارودى. حرم طاهر بك اللوزى. حرم عبد الحليم بك العلايلى. حرم على بك سعد الدين. حرم الأستاذ عزيز مشرقى. الآنسة كريمة عبد الفتاح بك اللوزى. حرم الدكتور نجيب إسكندر. حرم الدكتور محمد العروسى. حرم الدكتور إبراهيم بك حسن. الآنسة كريمة صالح بك فريد. الآنسة كريمة محمد بك منيب. حرم توفيق وصفى. الآنسة كريمة عبد المجيد بك رضوان. حرم أحمد بك حمدى. الآنسة كريمة مصطفى بك الباجورى. الآنسة كريمة أحمد بك ندا. حرم إسكندر بك مسيحة. حرم أحمد بك حجازى. حرم

مجيب بك فتحى. حرم حافظ بك محمد. الآنسة كريمة الشيخ الأنصارى. حرم محمد راتب باشا. حرم محمد بك يوسف. حرم حسين بك رياض. الآنسة جولييت صليب. الآنسة كريمة محمد بك أنور. حرم الدكتور محمد صدقى بك. حرم مصطفى بك توفيق. حرم توفيق بك صادق. حرم محمود بك الطوير. حرم إسماعيل بك سالم. حرم على بك مبارك. حرم حسين بك هلال. حرم محمد رؤوف باشا. حرم محمد شفيق رفعت بك. الآنسة كريمة أمين باشا الشمسى. مدام رفائيل بغدادى. حرم صالح بك نامق أبو اصبع. الآنسة كريمة شوقى باشا. حرم الأستاذ ويصا واصف. حرم أحمد بك شكرى. الآنسة كريمة اسماعيل أباظة باشا. الآنسة كريمة محمد بك رشاد. حرم رياض عفيفى بك. الآنسة كريمة توفيق باشا. الآنسة كريمة محمود نصيف بك. حرم حسن باشا عاصم. حرم حسين راغب بك. حرم توفيق باشا. حرم الدكتور على بك إبراهيم. الآنسة كريمة محمود بك أباظة. الآنسة كريمة السيد أباظة باشا. حرم عبد الله بك أباظة. حرم أحمد عفيفى باشا. حرم الدكتور أحمد سعيد بك. حرم محمد بك حسن. حرم إبراهيم بك شريف. الآنسة مارى ميرهم. الآنسة كريمة عبد الله بك الطوير. حرم أمين بك فؤاد. حرم لبيب بك مسلم. حرم إسماعيل بك فاضل. حرم إبراهيم بك فاضل. الآنسة كريمة أحمد بك أبو اصبع. الآنسة كريمة محمد الشواربى باشا. الآنسة كريمة إسماعيل رمزى باشا. حرم على بك فؤاد. حرم شاكر بك حلمى. حرم داود راتب باشا. حرم صالح بك جمالى أبو إصبع. حرم مختار بك الأرناؤوطى. حرم صليب بك منقريوس. حرم أحمد بك عباس يكن. حرم محمد بك برهان. حرم محمد بك أبو شادى. كريمة أمين باشا سيد أحمد. حرم فؤاد بك شرين. حرم ميخائيل لبيب. حرم قاسم أمين بك. حرم حسين محرم بك. حرم حسن بك بهادر. حرم رفيق بك فتحى.

وكأنما كانت مظاهرة السيدات هى الشرارة التى ألهبت نيران الثورة فامتدت هنا وهناك، حتى شملت جميع المدن والأقاليم، وظلت مصر بأسرها تتحدث عن المناضلات العظيمات، وطالع شاعر الثورة الخالد « حافظ إبراهيم.. طالع العالم العربى بقصيدته الرائعة، ليصلى المستعمرين شواظًا من نار سخريته، لتصديهم لتلك المظاهرة النسائية الضخمة..

وبالطبع لم يكن الورد والريحان هو سلاح السيدات المصريات ضد الإنجليز إذ

خرج الغوانى يحتججن ورحـ   ـت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخذن من   سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب   يسطعن فى وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريق   ودار «سعد» قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا   ر، وقد أبن شعورهنه
وإذا بجيش مقبل   والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفها   قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا   ق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد   ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان فى   ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا   عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوا   ن ليس لهن منه
ثم انهزمن مشتتات الشمـ   ـل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخو   ر بنصره، وبكسرهنه
فكأنما «الألمان» قد   لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا «بهندنبرج» مختفيا   بمصر يقودهنه
فلذلك خافوا بأسهن   وأشفقوا من كيدهنه

ذاك، ولم يتضعضعن أو ينهزمن كما قال شاعر النيل، ولكنها كانت تعبيرات ساخرة من الإنجليز وكان الوصف على كل حال يتفق مع أحاسيسه نحو المرأة المصرية التى كانوا حتى ذلك الحين لا يزالون يحبسونها فى البيوت، ولا يصفونها الا «بالسيدة المصونة والجوهرة المكنونة»...

امتدت الثورة إلى كل مكان، وفى كل معركة من معاركها، كانت قائمة الشهداء تشمل سيدة أو أكثر.. يسقطها رصاص القوة الغاشمة إلى جانب زملائها من الشهداء الرجال، لتروى بدمها قصة اشتراك المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ بنصيب الأسد!

ففى يوم ١٨ مارس استشهدت المغفور لها (سيدة حسن من أهالى المناصرة بحى عابدين) مع حفنة الرجال الذين كانوا يقودون إحدى المظاهرات فى شوارع بولاق..

وفى يوم ٢٠ مارس، قررت السيدات المصريات تأليف مظاهرة نسائية جديدة فتوافدن من الصباح على حديقة قصر النيل، وفى نحو العاشرة تحرك موكبهن يحمل كثيرا من الأعلام. واللافتات التى تضمنت بعض الشعارات الوطنية مثل (نحتج على سفك دماء الأبرياء العزل من السلاح) أو (نحتج على قتل الأبرياء) أو «نطلب الاستقلال التام» وقد كتبت هذه الشعارات باللغة العربية على بعض اللوحات، وباللغة الفرنسية على لوحات أخرى.. وسار الموكب فى طريقه حتى وقف أمام بيت الأمة، وهناك أقبلت كالعادة قوة من الجنود الإنجليز فى سياراتهم المسلحة، وحاصرت المتظاهرات اللاتى أبرقن باحتجاجهن إلى سفراء الدول الأجنبية فجاء أحد قناصلهم وشاهد الحصار بنفسه ثم توجه إلى مقر القيادة البريطانية بفندق سافواى، وأعلن استنكاره لهذا التصرف مما اضطر الإنجليز إلى إصدار أوامرهم فورا بفك الحصار، والسماح للسيدات المتظاهرات بالانصراف إلى بيوتهن، بعد أن كانت الترتيبات قد اتخذت لإلقاء القبض عليهن جميعا!!

ولم تكد لجنة ملنر تصل إلى مصر يوم ٧ ديسمبر، حتى كانت النساء المصريات فى طليعة الطوائف الوطنية التى هبت إلى الاحتجاج عليها. والدعوة إلى مقاطعتها ففى يوم الجمعة ١٢ ديسمبر سبقت حفنة من سيدات مصر جميع الهيئات الوطنية الى الاحتجاج على شكل مؤتمر وطنى فى دار الكنيسة المرقسية بالقاهرة.. وكان لاختيار هذاالمكان ما يدل على لباقة المرأة المصرية وذكائها، فقد كان أول قرارات الاحتجاج منصبا على قيام وزارة المرحوم يوسف باشا وهبه، وكان المعروف أن الإنجليز يسعون بالوشاية والتفرقة بين عنصرى الأمة المسلم والقبطى، ويحاولون تفسير عداء المصريين لتلك الوزارة الممالئة لسياستهم الاستعمارية، بأنه نوع من التعصب الدينى.

احتجت سيدات مصر على وزارة يوسف وهبه وقدوم لجنة ملنر على غير إرادة الشعب وكان فى طليعة من وقع قرارهن التاريخى.. السيدات: هدى

شعراوى. شريفة رياض. حرم محمود باشا رأفت. حرم حبيب بك خياط. إحسان القوصى. حرم فهمى بك ويصا الخ.. وفى يوم ١٦ يناير قمن بمظاهرة كبرى، بدأت من ميدان باب الحديد فشارع إبراهيم باشا فعابدين حيث تصدى لهن الجنود البريطانيون، وطلبوا منهن التفرقة فرفضن وظللن فى مظاهرتهن.. يهتفن ضد الإنجليز ولجنة ملنر.

ويتحدث المعاصرون لثورة ١٩١٩ عن دور المرأة المصرية، فيؤكدون أن الخطب النارية التى كانت تلقيها بعض طالبات المدارس فى الشوارع كان لها أعظم الأثر فى إلهاب الجماهير،وتأجيج مشاعرها.

فإذا أضفنا الى هذا ما كان لشخصية السيدة الجليلة صفية زغلول من أثر فى توجيه زوجها الزعيم الخالد سعد زغلول، وما قاسته معه من المحن والشدائد حتى حقق لبلاده تلك الانتصارات التاريخية الكبرى..

إذا أضفنا دور (صفية زغلول) فى رعاية الثورة فى صمت وتواضع حتى لقد لقبها الشعب بإحساسه العميق بأم المصريين.. إذا أضفنا ذلك «الدور» إلى مساهمة المرأة فى ثورة ١٩١٩ لوجدنا أنه لم يكن يقل عن دور الرجل..

لقد كانت خطوة جريئة من المرأة المصرية.. أن تقتحم الصفوف وترفض أن ينفرد الرجال بشرف الموت من أجل الوطن، فى وقت كانت فيه التقاليد من السخف والتزمت إلى حد لا يكاد يسمح للمرأة أن تخرج فيه إلى الطريق إلا فى صحبة الأب. أوالزوج، أو الشقيق، بل فى وسعك أن تحكم على ذلك الزمن بمجرد أن تلقى نظرة خاطفة على عريضة السيدات المصريات، فلاتجد توقيعا واحدا يحمل اسم صاحبته باستثناء توقيع السيدة هدى شعراوى وبعض السيدات القليلات، أمابقية الموقعات فاكتفين بكلمة «حرم» فلان أو «كريمة» علان!!

ومن هنا أيضا، يمكنك أن تقف إجلالا، أمام ذلك الجهد الجبار وتلك التضحيات النبيلة.. أمام ذلك الدم والعرق الذى دفعته المرأة المصرية العظيمة، لتشارك الرجل فى كتابة التاريخ.. تاريخ المجد والحرية !

بعض الذكريات
عن لجنة الوفد للسيدات

تروى لنا إحدى السيدات اللائى شاهدن كفاح المرأة المصرية فى سنة ١٩١٩ فى قضية «الحرية والوطن» :

ففى نهاية سنة ١٩١٩ والبلاد كالمرجل تغلى وتنفجر منادية بالحرية والاستقلال والمستعمر يترصد لكل حركة من حركات المقاومة والوطنية محاولا إخمادها فى هذا الوقت قررت السيدات المصريات الخروج بمظاهرة كبيرة برغم وحشية المستعمر وأوامره الشديدة بمنع أى مظاهرة أو مجرد اجتماعات.

والمرأة التى تؤدى واجبها نحو وطنها وبلادها لا يهمها فى سبيل تحقيق هذه الرغبة إنذار أو وعيد خصوصا إذا كان آتيا من جهة مغتصبى حقوق البلاد وأعدائها.

ولجأت السيدات المصريات إلى تنفيذ غرضهن عن طريق الحيلة فقد قررن الاجتماع فى ضريح رياض باشا والخروج منه بسيارات بين كل واحدة وأخرى ٥ دقائق حتى لا يفطن لغرضهن أعداء الحرية من رجال الاستعمار ويحولون دون إتمام هذه المظاهرة التى صممت السيدات عليها وتواعدن على اللقاء فى نقطة معينة تخرج منها المظاهرة.

وقد نجحت السيدات فى هدفهن الأول وتجمعت السيارات فى المكان الذى تواعدن عليه. ولكن ما كدن يقمن بالمظاهرة ويرددن هتافهن بالحرية والاستقلال حتى أحاطت بسياراتهن قوات مسلحة من جنود الإنجليز وأجبروا السيارات على التوجه إلى قسم العتبة الخضراء «الموسكى» وهناك أنزلوا السيدات المتظاهرات

إلى القسم واحتجزن فيه بعض الوقت وعندما سمح لهن بالانصراف كان الجنود الإنجليز قد أتلفوا إطارات سياراتهن برصاص بنادقهم ولم يضعف هذا الصنيع المرذول من عزم السيدات فتوجهن سيرا على الأقدام فى مظاهرة كبيرة إلى بيت الأمة بين تصفيق الجماهير وهتافهم ومتابعتهم للسيدات فى سيرهن من العتبة الخضراء إلى بيت الأمة.

ونذكر بالفخر ضمن السيدات اللائى اشتركن فى ثورة ١٩١٩ السيدة إستر فهمى ويصا التى امتازت لا بشجاعتها الوطنية فقط بل بمقدرتها فى الخطابة والكتابة فى المسائل السياسية.

أول لجنة وفد للسيّدات

وتقول: إن أول لجنة للسيدات الوفديات ألفت فى سنة ١٩١٩وأن الذى أشار بتأليفها هو المغفور له سعد زغلول «باشا».

والباعث الأول على تأليف هذه اللجنة يرجع إلى حادث معروف فقد كانت السيدات يداومن على الذهاب إلى بيت الأمة للإسهام فى كل ما يفيد الحركة الوطنية ويزيد الحماسة فى المكافحين وذات يوم وفد على بيت الأمة كثير من الطلبة يحتمون به من قوات الاستعمار التى تطاردهم وكانت الدماء تسيل منهم بسبب اصطدامهم بقوات الاستعمار وسارعت السيدات الموجودات فى بيت الأمة يعملن على تضميد جراح المصابين.

وشاهد سعد زغلول هذا المنظر وذرفت الدموع من عينيه واقترح فى الحال تأليف لجنة من السيدات الوفديات تواسى جراح المصابين وتعمل جنبا إلى جنب مع الرجال عملا منظما سديدا فى مقاومة الاستعمار وتقويض دعائمه.

وألفت أول لجنة برياسة السيدة شريفة هانم رياض وكان من أعضاء هذه اللجنة الأولى السيدة هدى شعراوى وحرم عمر «باشا» سلطان وحرم سينوت حنا، وحرم راتب باشا، وحرم حجازى بك وحرم أبو أصبع وحرم بهى الدين بركات وحرم مرقس «باشا» حنا، وحرم ويصا واصف، وحرم مكرم عبيد، وحرم واصف باشا غالى، وغيرهن عشرات من السيدات انضممن إلى عضوية اللجنة. وبمجرد

تأليف هذه اللجنة تألفت لجان أخرى كثيرة فى جميع نواحى البلاد تنظم كفاح المصرية فى سبيل الحرية ومجد الأوطان ونذكر ضمن الأعضاء فى ذلك الحين السيدة حب الرمان والسيدة جليلة البحراوى والسيدة ليزا ميلاد.

وكانت السيدة صفية زغلول «أم المصريين» رئيسة شرف لجنة السيدات الوفديات وجميع لجان الوفد للسيدات فى أنحاء البلاد.

هُدى شعراوى
تمزق الحجاب

لا عجب إذًا لو جاءت المرأة المصرية فى أعقاب الثورة فوجدت ما يشبه الاعتراف بها فى مجتمع كان ينكرها تمامًا..

وكان الزعيم الخالد سعد زغلول هو أول من سجل اعترافه بها، فقد خطب على إثر عودته من منفاه فى الحفلة التكريمية التى أقامها له تجار العاصمة فقال بالحرف الواحد:

«سادتى.. كنت أود أن أقول سيداتى وسادتى، وكنت أود أن أقول ذلك لأن للسيدات دخلا كبيرًا فى نهضة الأقوام عمومًا، وفى نهضة مصر خصوصًا، وأتعشم أن يأتى يوم أرى فيه خطباءنا يبدءون بتلك البداية، فلقد أظهرت السيدات فى النهضة الحاضرة من الشجاعة ومن الإقدام ما أعجب به كل واحد منا وكل ناظر إلينا، وكن فى كل موقف موضع إعجاب الجميع، وكن أيضًا يملين على الرجال من الثبات والإقدام ما رأينا آثاره الآن، وكتبن بأعمالهن المجيدة صفحة من أجمل صحائف تاريخ النهضة الحاضرة، فلهن الشكر ولتصيحوا جميعًا لتحيا السيدة المصرية».

وكان هذا الهتاف التاريخى من سيد الزعماء هو وثيقة الاعتراف الرسمى بالمرأة المصرية يعلنها الرجل الذى كان يحق له وحده فى ذلك الوقت، أن يتكلم باسم الشعب المصرى جميعًا..

وكان ثانى مظاهر الاعتراف بالمرأة المصرية، هو قبولها - لأول مرة - عضوًا رسميًا فى الأحزاب فبعد أن كانت تشترك فى الحزب الوطنى وتحضر مؤتمراته

دون أن تكون عضوًا فيه، أصبحت تؤلف لجنة من أكبر لجان «الوفد المصرى» وهى اللجنة التى ظلت قائمة إلى آخر يوم قبل حل الأحزاب..

فإذا اعتبرنا أن دستور ١٩٢٣ هو أول ثمرة حقيقية من ثمار المعركة التى خضناها سنة ١٩١٩ وما تلاها لوجدنا أن هذا الدستور لم يجرؤ على أن يجحد فضل المرأة أو ينكرها عليها ما بذلت، ولو رجعنا إلى مناقشات لجنة الدستور، لما وجدنا عضوًا واحدًا يتهجم على المرأة، أو ينادى بحرمانها من حقوقها الطبيعية فى أن تشترك فى ثمار الثورة كما اشتركت فى تضحياتها ومتاعبها.. لم يكن بين أعضاء لجنة الدستور الذين عاصروا الثورة ولمسوا دور المرأة فيها، من يسمح له ضميره أن يحرم أمه أو أخته أو بنته من أن تجنى ثمار ما غرست يداها!

وكان الكسب الذى خرجت به هو أن الدستور لم يفرق بين الرجل والمرأة فى أى حق من الحقوق السياسية، ولم يحدد أن حق الانتخاب والترشيح مثلا امتيازات يتمتع بها الرجال دون النساء، بل نص على أنها للمصريين جميعًا، وهو ما يقطع بأن النية فى ذلك الوقت كانت متجهة إلى مساواة الجنسين فى هذه الحقوق، وهو نفس الرأى الذى يؤيدنا فيه كثير من الفقهاء المعاصرين، وفى مقدمتهم السيد على زكى العرابى الرئيس الأسبق لمجلس الشيوخ. الذى تفضل فكتب رسالة مشهورة فى هذا المعنى.

وكان ثالث هذه الانتصارات التى ظفرت بها المرأة المصرية ثمنًا لتضحياتها النبيلة واشتراكها المجيد فى ثورة ١٩١٩.. كان ثالث هذه الانتصارات هو تأليف أول هيئة نسائية فى مصر، ونعنى به الاتحاد النسائى المصرى، وليس المهم هو تأليفه فقط، بل إن الذى يعطى لهذا الاتحاد أهمية تاريخية كبرى هو الاعتراف الضمنى، بل الرسمى بوجوده إذ لم يلبث الاتحاد أن حقق أول مطلبين نادى بهما وهما تحديد السادسة عشرة حدًا أدنى لزواج الفتاة ومساواة البنت بالولد فى مدارس التعليم..

أما الكسب الأكبر للمرأة بعد ثورة ١٩١٩ فإنه بلا جدال ذلك الحدث الضخم الذى تم على يد الزعيمة الجريئة الراحلة - هدى شعراوى - عندما عادت حوالى

سنة ١٩٢٣ من المؤتمر النسائى العالمى فى روما.. وما كادت الباخرة تصل إلى ميناء الإسكندرية حتى طالعت الجماهير بوجهها سافرًا بلا نقاب.. لم تنتظر إذنًا، ولم تنتظر تشريعًا كذلك الذى استصدره أتاتورك بإلزام المرأة التركية بالسفور، بل سجلت شجاعتها كيف تسن المرأة المصرية لنفسها القوانين التى لابد منها لتطورها ونهضتها!

وكأن خصوم المرأة قد فزعوا من هذا المارد الجديد الذى انطلق فجأة من القمقم.. إن المعنى الذى ينطوى عليه اشتراك المرأة مع الرجل فى حقل الكفاح الوطنى، وفى مجال الحياة العامة خصوصًا، هو أن جيش الثورة الوطنية قد تضاعف عدده فكيف يسمح الاستعمار بمضاعفة عدد مهاجميه، وهو الذى لا يفتأ يبتكر من أساليب الوشاية والدس ما يفتت قوى أعدائه، ويفرق بين صفوفهم باسم الأديان، والطبقات والزعامات والمطامع؟!

ولم يلبث الاستعمار أن حشد قواه لإعادة «المارد الجديد» إلى القمقم وبدأ يلفق تلك النكسة التى أصابت النهضة النسائية إلى حد ما.. ولعلها أيضًا كانت انعكاسًا لتلك النكسة التى أصابت الحركة الوطنية كلها، بعد أن تخلصت إنجلترا من سخط «الباشوات» و«البكوات» الذين كانوا يقودون الثوزة عن طريق حشدهم فى برلمانات أكثرها ملفق وحياة دستورية معظمها زائف.

أما الحق الذى كسبته المرأة فى الدستور فقد جاء قانون الانتخاب بعد بضعة أسابيع ليسلبه منها فى جرأة.

أما عضويتها فى حزب الوفد وقفت عند حد «لجنة السيدات» فلم ينتخب بعض السيدات فى الهيئة الوفدية أو فى اللجنة العليا للوفد المصرى نفسه.

أما السفور.. وأما الاتحاد النسائى، فقد نظم الرجعيون ضدهما حملات عنيفة لا هدف لها إلا محاربة تطور المرأة.

ولكن حتى هذه النكسة لم تفلح فى وقف عجلة التطور، فأخذت المرأة تتقدم وتكتسح وتسجل كل يوم نصرًا جديدًا..

فقوانين العمال التى بدأت تشرع من سنة ١٩٣٢ تعترف بالمرأة وتشير إلى حماية «المشتغلات بالصناعة من النساء» ووزراة الشئون الاجتماعية تتألف سنة ١٩٣٩ وفى مقدمة مسئولياتها حماية الأسرة والجامعات تفتح أبوابها للفتيات رويدًا رويدًا .. إلى آخر ما سنعود إليه بالتفصيل فى فصولنا القادمة..

تمزيق الحجاب:

ولكن لابد لنا هنا أن نقف قليلا لنتحدث عن أهم ما كسبته المرأة فى أعقاب الثورة.. ذلك الحدث الضخم الذى كان ولا شك نقطة التحول الكبرى فى تاريخ المرأة المصرية، وأعنى به تمزيق الحجاب وما تلاه من تأليف الاتحاد النسائى المصرى..

كان ذلك حوالى سنة ١٩٢٣ .. وكانت السيدة هدى شعراوى (وهى إذ ذاك شابة فى العقد الرابع من عمرها) تعود من فرنسا بصحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامى وسكرتيرتها السيدة سيزا نبراوى.. وكانت تستقل نفس الباخرة التى يعود عليها الزعيم الخالد سعد زغلول من فرنسا بعد استشفائه.. وكانت «هدى» لا تزال تفكر فى النظرة التى تقابل بها المصرية كلما سافرت إلى أوروبا.. إن القوم هناك يسخرون من ذلك الحجاب الذى يغطى وجوه المصريات، حتى أنهم كانوا إذ يرون هدى شعراوى وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع يتشككون فى مصريتهن، وفى ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة ينكرن على هدى هانم مصريتها، ولا يكدن يعترفن إلا بمصرية واحدة كانت تصر على حضور تلك المؤتمرات محجبة لا تكشف شيئًا من وجهها، وهى المرحومة السيدة الجليلة - نبوية موسى!

وقال هدى - ما دمنا نظهر فى مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه دون أن يكون فى هذا ما يخدش شرفنا وكرامتنا، فلماذا لا نظهر سافرات فى بلادنا أيضًا؟

وابتسمت كريمتها وقال زوج كريمتها:

- ولكن التقاليد فى مصر لا تسمح بالسفور!

قالت هدى هانم:

- ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن؟

قال مندهشًا:

- وماذا نصنع نحن فى هذه التقاليد؟!

قالت:

يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور إيجابى فى ذلك... لماذا لا نبدأ نحن، فتتبعنا الأخريات؟

وسكت زوج كريمة هدى هانم ودخلت الباخرة الميناء ولاحت من بعيد جموع الشعب وقد حضرت لتحيى الزعيم الخالد. فقالت هدى هانم لزوج كريمتها:

- هل تسمح لنا بإجراء تجربة بسيطة.. الآن، عند وقوف الباخرة سوف نستأذنك فى رفع اليشمك من فوق وجهينا.

وقال زوج كريمة هدى هانم - ولكن فى هذا الزحام إننى أخشى عليكما من عيون الناس ونظراتهم!

ولكنه أمام منطق هدى هانم عاد فأبدى موافقته.

تقول هدى هانم فى حديث لها:

«.. ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتى سيزا نبراوى وقرأنا الفاتحة ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتى الوجه وتلفتنا لنرى تأثير الوجه الذى يبدو سافرًا لأول مرة بين الجموع فلم نجد له تأثيرًا أبدًا، لأن كل الناس كانوا متوجهين نحو سعد، متشوقين إلى طلعته»!

ولكن هدى هانم دفعت بعد ذلك ثمن جرأتها وشجاعتها، فاحتملت كثيرًا من التعليقات السمجة التى كانت تقابل بها هى وزميلاتها من الرائدات الأول للنهضة النسائية كلما سرن فى الطريق فكانت الملاحظات السخيفة والعبارات النابية فى بعض الأحيان تؤذى أسماعهن، ولكنهن مضين إلى النهاية، إذ كن يعلمن كل جديد لابد أن يقابل بالزراية والاستخفاف!

هدى شعراوى:

ولكن من هى هذه الثائرة الجريئة «هدى شعراوى»؟

إنها كريمة المرحوم محمد سلطان باشا رئيس أول مجلس نيابى لمصر. وأغنى رجل فى مصر.. توفى والدها وهى فى السابعة من عمرها، وتزوجت من ابن عمتها والوصى عليها المرحوم على شعراوى أحد الزعماء الثلاثة الذين طالبوا إنجلترا بالاستقلال يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨.

وكان لبعض الحوادث فى طفولتها، ثم فى شبابها، أكبر الأثر فى إيمانها العميق بتحرير المرأة، وقد تكلمت عن بعضها ذات يوم فى مذكراتها فقالت:

«أشار الطبيب الذى كان يعالج أخى بأن يشتروا له مهرًا صغيرًا (سيسى) ليتعلم ركوب الخيل، ولم يكن أخى إذ ذاك قد جاوز السابعة من عمره، ولكن الطبيب أكد أن رياضة الركوب تقوى الجسم وتنشط حركة الأمعاء وفى نفس الوقت لا تتطلب مجهودًا كبيرًا، فطلبت أنا أيضًا أن يشتروا لى مهرًا لأركب مثل أخى! فحاولوا إقناعى بأن ركوب الخيل لا يليق بالبنات، ولكنى دحضت زعمهم بحجة دامغة إذ ضربت لهم مثلا بجارتنا ابنة الضابط لمعى بك التى تركب الخيل وتقود عربتها الصغيرة بنفسها ولما عجزت والدتى عن إقناعى بالمنطق احتالت لذلك بين «السيسى» والبيانو وكانت تعرف ميلى الشديد للموسيقى فنجحت حيلتها، وفضلت البيانو على الحصان قائلة لنفسى ثم أتمتع بركوب مهر أخى كلما أردت!!

وحدثتنى - رحمها الله - عن بعض هذه الحوادث التى أثرت على اتجاهها فقالت:

تزوجت وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى، وكان زوجى - بحكم التقاليد القاسية - يسلبنى كل حق فى الحياة.. إننى لا أستطيع أن افتح النوافذ لأشم الهواء كما يفعل سائر الناس ولا أستطيع أن أعزف على البيانو بعض القطع الموسيقية التى أحبها حتى لا تترامى نغماتها إلى الرجال فيفهمون أن الذى يعزف الموسيقى فى الداخل هى السيدة حرمه! ولا أستطيع تدخين سيجارة لتهدئة

أعصابى حتى لا يتسلل دخانها إلى حيث يجلس الرجال فيعرفون أنه دخان سيجارة السيدة حرمه!

إلى هذا الحد كانت التقاليد تحكم بالسجن على المرأة.. وكنت لا أحتمل مثل هذا العذاب، ولا أكاد أطيقه!

وقالت الفقيدة العظيمة وهى تروى تاريخ أول مظاهرة نسائية نظمتها:

«وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجى بالسؤال - إلى أين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة؟

فأجبت - للقيام بالمظاهرة التى قررتها اللجنة!!»

فأراد أن يمنعنى فقلت له - هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط وليس للنساء نصيب فيها؟

فأجابنى - هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز أن يفزع بعض النساء ويولولن يا أمى يا لهوتى..!

فقلت له - إن النساء لسن أقل منكم شجاعة ولا غيرة قومية أيها الرجال».

«وتركته وانصرفت لألحق بالسيدات اللاتى كن فى انتظارى.. إلخ».

وقد مضت الزعيمة العظيمة فى رسالتها التى آمنت بها، فحضرت المؤتمرات النسائية الدولية بين عامى ١٩٢٠ - ١٩٢٣ وفى ذلك العام عادت من مؤتمر روما بفكرة لم تلبث أن حققتها وهى تأليف الاتحاد النسائى المصرى وقد أولت القضايا العربية لا سيما قضية فلسطين - اهتمامًا بالغًا حتى لقد نظمت مؤتمرًا كبيرًا لنصرتها، وعنيت بتعليم المرأة فأنشأت المدارس والمشاغل على نفقتها وأوفدت البعثات النسائية إلى جامعات أوروبا، وانشأت مجلة - الأجيبسين (الفرنسية) والمصرية (بالعربية) وشملت الفنون الجميلة برعاية خاصة، وكان لها أكبر الفضل فى إعداد جيل منهن، بل فى إعداد أكبر عباقرة الفن فى مصر.. وقد لمع اسم (هدى شعراوى) كالنجم الساطع فى أنحاء العالم بأسره.

وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ فاضت روحها الطاهرة فى نفس اللحظة التى كانت تتأهب فيها للمساهمة فى معركة فلسطين، بل بعد دقائق من كتابة برنامج هذا النشاط الذى كانت تفكر فى القيام به.. المقاطعة.. التطوع خلف الجيوش كممرضة ومحاربة.. التبرعات.. الدعاية فى الخارج..!

هُدى شعراوى
تؤسس الاتحاد النسائى

.. ولم يكن تأليف الاتحاد النسائى المصرى فى ١٩٢٣ شيئًا عاديًا فى تاريخ البلاد، بل كان حادثًا ضخمًا فى وسط الظروف التى سبقت تكوينه، والظروف التى جاءت من بعده نتيجة لذلك التكوين!

ولم يكن ميلاده «عملية سهلة» فهو الحلقة الرابعة فى سلسلة المحاولات التى قامت بها المرأة المصرية فى سبيل توحيد صفوفها.. وجمع كلمتها!

وكانت المحاولة الأولى فى سنة ١٩٠٤ يوم دعت «الأميرة» عين الحياة إلى تأليف جماعة من السيدات المصريات لإقامة مستوصف كمستشفى الليدى كرومر، وكانت السيدة الصغيرة هدى شعراوى هى أول من لبى النداء، ولم يلبث المستوصف أن أصبح حقيقة واقعة، وهو المعروف الآن باسم مبرة محمد على.

وقامت بالمحاولة الثانية السيدة هدى شعراوى أيضًا فى سنة ١٩٠٦ عندما لاحظت أن قوام السيدات المصريات لا يشرف سمعتهن فى دنيا الرشاقة والجمال، فأنشأت ملعبًا رياضيًا خاصًا، ليزاولن فيه مختلف الألعاب الرياضية.. وبديهى أن هدى هانم لم تكن تهدف إلى إصلاح قوام المصريات وحسب، بل كانت أولاً تتوسل بهذا الطريق إلى تكتيلهن فى سبيل نهضتهن بصفة عامة، ولكن التقاليد إذ ذاك لم تسمح بنجاح ذلك الملعب فلم يجرؤ على ارتياده سوى مجموعة صغيرة منهن، على الرغم من أن هدى هانم لم تغفل إذ ذاك أمر تلك التقاليد القاسية فأحاطت ملعبها بأسوار عالية تحجبهن تمامًا عن أنظار الفضوليين!

وتطورت هذه الفكرة فى سنة ١٩٠٧ إلى دعوة للعناية بشئون الطفل لا شك أنها تمخضت إذ ذاك عن بعض الجهود..

وكانت المحاولة الثالثة، هى إنشاء جمعية المرأة الجديدة سنة ١٩٠٩ يوم اجتمعت فى شهر أبريل من ذلك العام نخبة من أكرم السيدات.. اجتمعن فى منزل المرحوم حسين «بك» ثابت حيث كانت كريماته هن الداعيات ونذكر ضمن الحاضرات لهذا الاجتماع: السيدة حرم الدكتور محمد بك صدقى والسيدة حرم الدكتور بهى الدين بركات والسيدة إحسان القوصى والسيدة جميلة عطية إلخ.. وزارت هدى هانم شعراوى جمعية المرأة الجديدة بعد أسابيع وغمرتها بعطفها وأموالها فاجتمعت الأعضاء وقررن انتخابها رئيسة فخرية..

ثم أسست السيدة هدى شعراوى الاتحاد النسائى المصرى سنة ١٩٢٣ وضم كل سيدة يمكن أن نعتبرها من سيدات الطليعة إذ ذاك. وفى مقدمتهن الرائدات الأوائل استر فهمى ويصا، وعنايات سلطان، وسيزا نبراوى. وجميلة عطية، وعزيزة هيكل، ونفيسة علوبة، ومارى كحيل. وبهيجة رشيد، وإحسان القوصى، وحفيظة الألفية، وحواء إدريس..

وعلى الرغم من أن الاتحاد النسائى كان قد تألف للمطالبة بحقوق المرأة السياسية، وفى مقدمتها حقًا الترشيح والتصويت، بعد أن سلبهما منها قانون الانتخاب.. على الرغم من أن الاتحاد النسائى قد تألف لهذه الغاية بالذات، فإن الاتحاد كان عليه فى الواقع أن يخوض عشرات المعارك الأخرى. قبل أن يشن أى هجوم عام على هذا الهدف.. أو كان عليه قبل كل شىء أن يكسب بعض المواقع «الاستراتيجية» التى تمكنه بعد ذلك من هذا الهجوم!

كان عليه أولا أن يقنع الرأى العام بفكرة «اتحاد النساء» وأن يقنع المصريات أنفسهن بالالتفاف حول هذا الاتحاد.. ولم يكن ذلك أمرًا سهلا وقتذاك!

وكان عليه ثانيًا أن يعد جيش الطليعة الذى سيتولى الدفاع عن حقوق المرأة ويحتمل مسئولية تحريرها، ولابد أن يجند لهذا الجيش آلاف النساء المتعلمات فى وقت كانت المدارس لا تزال تغلق أبوابها فى وجه المرأة، إذا استثنينا بعض المدارس الابتدائية القليلة!

وكان عليه ثالثًا أن يربط بين كفاح المرأة المصرية بكفاح العالم أجمع وبكفاح أختها العربية بصفة خاصة!

وكان عليه رابعًا أن يواجه مشكلات الساعة بالنسبة للمرأة المصرية.. كرفع سن الزواج بالنسبة للفتاة، وكوقف عادة الزواج بالأجنبيات التى انتشرت إذ ذاك بين الشبان المتعلمين الذين كانوا يسافرون إلى أوروبا طلبًا للعلم!!

وكان عليه خامسًا، وسادسًا، وسابعًا.. عشرات من المعارك المختلفة كانت تنتظره، وكانت الأقدار قد حررت لها موعدًا معه، ولم يكن ثمة مناص من تصفيتها قبل خوض المعركة الكبرى.. معركة الحقوق السياسية!

وكانت «هدى شعراوى» نموذجًا للقائد العظيم الذى يعرف متى يدير المعركة وكيف يديرها.. كانت أبرع من يختار الوقت المناسب، ثم ينظم حملة من الدعاية الواسعة لتأييد هدفه المباشر، ثم يتحرك نحو هذا الهدف فلا يلبث أن ينتصر!

وقد قوبل الاتحاد النسائى عند بدء تكوينه بمعارضة عنيفة من الرجعية، فخرج الجهل والتأخر والجمود والاستعمار والإقطاع.. خرجت كلها من أوكارها تحمل على الحركة النسائية منذ مولدها، فأخذت القائدة العظيمة تتصل بالأحرار، من قادة الفكر فى مصر وتكسب من بينهم أصدقاء للقضية التى تدافع عنها فانبرى كُتَّاب وشعراءو وزجالون.. يدافعون عن الحركة النسائية، ويصدون عنها هجمات الاستعمار والجهل والتأخر.. حتى الذين كانوا ينقدون المرأة المصرية فى عنف تدرجوا فى لهجتهم إلى الاعتدال.

قال بيرم التونسى فى ذلك الزجل الذى دعا فيه إلى تحرير المرأة المصرية، برغم حملته الشديدة عليها:

غلبت أقول للرجال	خلوا المرأة حرة
تخش زخرة المجال	تفهم... وتتدره
العاقلة بنت الحلال	ما يضرهاش بره
لكن بتنصح فى مين	روس جامدة سنطاوى

جهل النسا بالعلوم | خلونا أنتيكة
تفهم فى فن الهدوم | رقعة، وتشتيكة
وفى البلد ع العموم | ما تلقى فابريكة
غير فابريكات الطحين | فليحيا «بدراوى»

* * *

راية ولاد العرب | فى الأرض منكوسة
طول عمرها والسبب | إحسان ونفوسة
وا& اللى قال ما كدب | نسوانّنا موكوسة
حتى اللى متعلمين | بردون يا «شعراوى»

* * *

وهكذا ترى أن الاتجاه النسائى المصرى كسب أكبر زجال ظهر فى مصر حتى اليوم، عندما اقتنع بقضية المرأة بكل تفصيلاتها، فهو يدعو إلى أن تكون «المرأة حرة».. «تخش رخرة المجال» أى يكون لها حق المساواة مع الرجال، دون يشمك ولا برقع ولا حجاب.

«ما يضرهاش بره» ثم يدعو إلى تعليمها «جهل النساء بالعلوم خلانا أنتيكة» ثم بين أهمية ذلك كله عندما أعلن أن سر انتكاس راية العرب «إحسان ونفوسة».. أى المرأة التى لم تحرر بعد!

ثم حمل على المتعلمات من المصريات أيضًا، ولعله قصد بذلك إلى استفزازهن لمضاعفة الجهود والتضحيات..

ولعل من أروع ما نُشر أيضًا دفاعًا عن المرأة فى ذلك الوقت هو لحن سيد درويش الخالد وقد نظمه بأسلوب ذلك العصر، الزجال الكبير بديع خيرى.

ده بأف مين اللى يألس | على بنت مصر بأنهى وش؟
والنبى يجرى ويتليس | ما طلع كلامه طظ وفش؟

دى المصرية كتر خيرها | فى التربية سبقت غيرها

يا جدع اعقل !

بردون يا افندى بالذمة | إيه بس عيب المصرية؟
بتنسى ليه فضل الأمة | وتجيب بدالها إفرنجية!

* * *

دى المصرية تبيض وشك | الإفرنجية عينها ف قرشك

افهم يا أهبل !

إلى آخر هذا اللحن القومى الذى لا يزال أصدقاء فن سيد درويش يرددونه إلى اليوم كنموذج لأنجح ألحانه وأقواها.. ولا أدرى هل أخطأ سيد درويش أم أصاب حين تعهد أن يصنع لحنه فى لهجة «الروح» البولاقى الذى كانت بعض الكوميديات المسرحية تنسبه إلى بعض السيدات المصريات فى ذلك الحين، ولكن المعانى على كل حال تجعل منه دفاعًا لا ينسى عن المرأة يستحق أن يشكر عليه المؤلف والملحن معًا.

وبعد فهل أنا فى حاجة بعد ذلك إلى الكلام عن بعض ما أداه الاتحاد النسائى المصرى من جهود وبعض ما بذلت رائداته الأوائل من تضحيات؟

لقد انتصر فى أكثر المعارك التى خاضها، ففى سنة ١٩٢٤ نجح فى إقناع الحكومة بسن تشريع سن الزواج للفتاة إلى ستة عشر عامًا، ولم تعد الفتيات الأطفال تزف إلى أزواجهن، وهن بعد لا يدرين من أمر الدنيا شيئًا، ولا يفهمن عن حياة الزواج كثيرًا أو قليلا.. لقد وضع حدًا لتلك المأساة التى ظلت تمثل على مسرح المجتمع المصرى أعوامًا طويلة، حين كانت جداتنا يتزوجن فى التاسعة وفى العاشرة من أعمارهن وبدأ القانون يمنع هذه المهازل ولا يعبأ بصرخات ذلك العاشق المجنون الذى انطلق فى شوارع مصر يشكو من ذلك القانون بالأغنية المشهورة.

أبوهـــا راضى وأنــــا راضى   ومالك أنت ومالنا يا قاضى؟؟

والتفتت رئيسة الاتحاد النسائى إلى مشكلة تعليم المرأة فطالبت هدى شعراوى بمساواة البنات بالبنين فى المدارس وتم لها ما أرادت ففتحت المدارس الثانوية أبوابها للمرأة ثم طالبت بفتح أبواب الجامعة أيضًا.. ولم يكتف الاتحاد النسائى بالمطالبة فقد أنشأ هو عددًا من هذه المدارس التى لا تزال قائمة إلى اليوم.

ثم انطلق الاتحاد النسائى بتوجيهات رئيسته الخالدة يعمل فى الميدان الدولى، فمثّل المرأة المصرية فى عشرات المؤتمرات النسائية التالية وفى مقدمتها مؤتمرات روما وجراتسى، وباريس، وأمستردام، وبرلين، ومرسيليا، واستنبول، وبروكسل، و بودابست، وكوبنهاجن، وجنيف، وحيدر أباد، ونيودلهى.. ثم عمل على توطيد علاقة المرأة المصرية بنساء العرب فزارت رئيستـه لبنان، وسوريا، وفلسطين، وشرق الأردن، بين عامى ٤٤ و٤٥ - وكانت أولى ثمار هذه العلاقات النسائية العربية الجديدة هى المؤتمر الذى أقامته نساء العرب لنصرة قضية فلسطين..

ولكن المنية عاجلت الزعيمة الباسلة هدى شعراوى قبل أن تخوض المعركة الفاصلة والأخيرة من أجل الحقوق السياسية للمرأة المصرية.. لقد مهدت لها أعظم تمهيد ولا شك، ووجهت الجيل الناشئ من الفتيات لضرورة الكفاح من أجل قضية المرأة والعمل والتفانى فى سبيل استخلاص حقوقها كاملة غير منقوصة.

فمهدت لنا الطريق.. وكنا - أى الجيل الناشئ من الفتيات - ننظر لها لا كرائداتنا الأولى فقط، بل كمثلنا الأعلى وكأم لكل منا.

التعليم
أول الأسلحة فى معركة الحرية

وكانت التجارب الماضية كافية لأن تقنع المرأة المصرية بأنه لا سبيل إلى الانتصار فى معركة تحررها إلا باستخدام ثلاثة أسلحة، بل أن هذه الأسلحة ليست وسيلة فحسب، ولكنها وسيلة وغاية فى وقت معًا.

أما الأول فهو العلم..

وأما الثانى فهو العمل..

وأما الثالث فهو الخدمة العامة..

فالعلم هو طريق الوعى والاستنارة واليقظة لحقوقها، وهو فوق ذلك كله «القنطرة» التى لابد أن تعبرها فى الوصول إلى السلاح الثانى.. العمل.

والعمل هو طريق التحرر الاقتصادى.. هو تحطيم لأساس عبوديتها وهى أنها تعيش عيالا على الرجل، ينفق عليها، فيحس أنها مجرد عالة عليه لا تستطيع أن تعيش بدونه.

والخدمة العامة هى طريق الاتصال بالمجتمع. والاحتكاك بالشعب وإقناعه بالعمل الإيجابى على أنها مواطنة صالحة جديرة بكل ما للمواطن من حقوق. وبلا ترتيب، ولا تدبير، ولا تنظيم سابق انطلقت المصرية الباسلة بفطرتها السليمة تفتح جميع الأبواب المغلقة فى وجهها، أحيانًا تدقها بعنف وأحيانًا تقتحمها بالقوة، وأحيانًا تتسلل إليها بالحيلة والدهاء..

انطلقت المصرية العظيمة فى وقت واحد تستكمل حقوقها فى التعليم وفى العمل وفى الحياة العامة.. ولم تلبث أن سجلت نصرًا ساحقًا فى هذه الميادين الثلاثة جميعًا.

الزمن لا ينحنى للرجعية:

إن مدرسة القابلات والمولدات التى أنشأها «محمد على» لتخريج العدد اللازم لمساعدة السيدات على الولادة - لم تلبث أن تحولت إلى مدرسة للحكيمات ثم إلى مدارس للممرضات ثم إلى بعثات نسائية إلى الخارج للتخصص فى الطب والتمريض.

والمدرسة السيوفية الوحيدة التى أنشأها إسماعيل ربما لتخريج «وصيفات» متعلمات لحريم الخديو لم تلبث أن أصبحت مجموعة من المدارس الابتدائية.

وظنت الرجعية أن نهضة المرأة التعليمية يمكن أن تقف عند هذا الحد ونسيت سنة التطور وطبيعته فلم تلبث المرأة أن دخلت المدرسة الثانوية على يد الرائدة الأولى «هدى شعراوى» وبفضل جهودها ومساعيها.

وعند تخرج الفوج الأول من طالبات المدرسة الثانوية الأولى سنة ١٩٣٠ تقدم أكثرهن بطلبات الالتحاق إلى مختلف كليات الجامعة.

إلى الجامعة.. ما شاء الله..

إلى هنا ولم تستطع الرجعية أن تملك أعصابها ولم تستطع أن تهضم فتح باب القمقم للمارد الجديد أكثر مما فتح!

وقامت فى مصر ضجة. فقد انبرى للدفاع عن حق المرأة اثنان من أعز الرجال على مصر.. بطلان من أبطال الحرية وقائدان كبيران فى عالم الفكر العربى.. لطفى السيد وطه حسين.

لقد ضاق الأول ذرعًا بالعقليات الجامدة المتحجرة التى بدأت تضع العراقيل فى وجه تعليم البنت فى هذه المرحلة العالية ولم يلبث أن قدم استقالته من منصب مدير الجامعة تسجيلا لغضبه على تلك المحاولات الرجعية.

أما الثانى فحاول أن يصمد فى وجه العاصفة.. حاول أن يقتلع هذه الطفيليات التى تريد أن تمنع عجلة الزمن من الدوران ولكن عاصفة الرجعية كانت من القوة بحيث أمكنها أن تقتلعه هو من منصبه. فأقيل من عمادة كلية الآداب..

فظن الرجعيون ومن ورائهم دعاة التردد والهزيمة أن إقصاء طه حسين عن الجامعة يحول بينه وبين علم الجهاد فى سبيل الحرية عامة فإذا هو مارد لا ينال منه وإذا هو يشغل أسماع المصريين وأبصارهم، بل يصبح طه حسين فكرة فى ضمير العالم الإسلامى، وفى كل امرأة تعرف لها حقًا وأنها جديرة بالحياة ولن تجدر الحياة بمصرية تنكر على طه حسين سيرته العطرة فى سبيل حرية المرأة ونيل حقوقها.

إن الجامعات المصرية التى تضم بين جدرانها اليوم آلاف الطالبات يجب أن تقيم كل منها تمثالا لطه حسين فقد فتح صدره لهن حين كان عميدًا ومضى يكافح فى سبيل حقوقهن خارج الجامعة وبلغت نهضة النساء عصرها الذهبى حين ولى شئون التعليم وأصبح وزيرًا للمعارف ثم عاد أخيرًا فإذا هو كما بدا يذكر حين زيارته لسوريا ولبنان أخيرًا أنه لن تقوم للأمة عربية دعائم صالحة ما لم تشارك المرأة فى ميادين الحياة جميعًا.

هذا هو الرجل الذى نصرنا وشد من أزرنا وعصف بخصومنا وقدمنا إلى المجتمع فى كل نواحى المجتمع..

وقد أقيل الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب وكان من دواعى إقالته نشر صورة له وسط طالباته وطلابه أن ضاق الأستاذ أحمد لطفى السيد بالعقليات الجامدة المتحجرة التى بدأت تضع العراقيل فى وجه تعليم البنت فى هذه المرحلة العالية، فقدم استقالته من منصب مدير الجامعة فى سنة ١٩٣٢ احتجاجًا على تلك المحاولات الرجعية التى عصفت بحرمة الجامعة وحريات المواطنات.

ومن أجمل مظاهر التأييد التى جاءت فى أعقاب ذلك الحادث أن طلاب الجامعة وطالباتها أضربوا احتجاجًا على الحكومة الرجعية وردًا على الحملة المغرضة القاسية التى وجهت إلى طه حسين.

ومع كل هذه العواصف وفى وسط كل هذه الاحتجاجات الصاخبة أمكن للمرأة المصرية أن تتسلل إلى حرم الجامعة وأن تنتشر فى أكثر الكليات ثم استطاعت فى خلال السنين القليلة الأولى أن تثبت تفوقها على الرجال.. حتى فى هذا الميدان بالذات.

كن ١٣ طالبة جامعية.. أربعًا بكلية الآداب وثمانى بكلية الطب وواحدة بكلية الحقوق وما هى إلا بضع سنوات حتى ظهرت المعجزة الكبرى فقد كانت الأولى فى بعض أقسام كلية الآداب فتاة والأولى فى كلية الحقوق هى الفتاة الوحيدة بها! والثانية فى كلية الطب فتاة! ولم تلبث الـ ١٣ طالبة أن نجحن جميعًا. فتخرجت الأستاذة نعيمة الأيوبى.. أول محامية مصرية وتخرجت الدكتورة كوكب ناصف أول طبيبة مصرية تدير مستشفى وتخرجت الدفعة الأولى بكلية الآداب فى تفوق ملحوظ وفى مقدمة هذه الدفعة الأستاذة سهير القلماوى.

ولم تستح العناصر الرجعية من هزيمتها أمام التطور فانطلقت الألسنة السخيفة تحارب التحاق البنات بالجامعة بأساليب أخرى كالزعم بأن من تلتحق بالجامعة هى واحدة من اثنتين.. إما فقيرة محتاجة تريد أن تتوظف لتعول عائلتها! أو قبيحة دميمة تريد أن تعوض نقصها الأنثوى بالعلم.

ومع ذلك أيضًا فقد أقبلت المصريات الواعيات على الجامعة وعلى مختلف المعاهد بحماسة لا تقل عن حماسة المصريين من الرجال.. وأسفرت نتائج الامتحانات عن تفوق باهر للفتاة فى مختلف الكليات.

وقد بهرت هذه النتائج الناطقة جميع الباحثين والمسئولين فى مصر وأخرست كثيرًا من الألسنة التى يطلقها ذووها من أصحاب النفسيات المريضة طعنًا فى المرأة وتجريحًا لها.. وقد مهدت السبيل لتحطيم ما بقى من حواجز وعقبات فى سبيل تعلم المرأة المصرية ففتحت لها جميع أبواب الكليات تقريبًا، بل فتح لها

أيضًا باب معهد التمثيل العالى ولم يعد يغلق فى وجهها إلا عدد ضئيل جدًا من المدارس - وقرر الأزهر أخيرًا فتح أبوابه أمامها، وإلى جوار ذلك أنشئت لها عشرات من المعاهد الخاصة.. عالية ومتوسطة وفنية لعل أهمها معهد التربية للمعلمات والتربية النسوية ومعهد الألعاب البدنية ومعهد الموسيقى ومدرسة الحكيمات إلخ.

وكانت حركة تثقيف المرأة المصرية ومكافحة الأمية بين صفوفها أنشط وأسرع منها بين الرجال.

ولست أريد بنشر هذه الحقائق إثارة فكرة التعصب لبنات جنسى ولا أريد أن أفسر كل هذا بأكثر من أنه تعبير عن تصميم المصريات على تحررهن من الظلام الذى يعشن فى قيوده وإعلان عن إرادتهن الصلبة فى اكتساح كل العقبات والعراقيل التى توضع لهن فى طريق الحرية.. طريق الخلاص.. طريق النور!

فهكذا تمكنت النساء المصريات من الحصول على أول الأسلحة الثلاثة التى يحتجن إليها فى نضالهن.. فى معركتهن الكبرى.

لقد انحسرت العصابة - عصابة الجهل - من فوق وجوههن ولم تعد هناك قوة بعد ذلك تستطيع أن تحكم عليهن بالبقاء فى الاستعباد والذل إلى الأبد!

لقد فهمن الآن كل شىء واستوعبن كل شىء.. ولست أزعم أن كل نساء مصر قد تعلمن، ولكنى أقول فقط: إن جيش الطليعة من المصريات قد تسلح وأصبح على أهبة الاستعداد.. وأريد أن أقول: إن نسبة المتعلمات إلى نسبة المتعلمين لم تعد من الهوة والاتساع بحيث تبقى حجة فى أيدى خصومنا من الرجعيين والاستعماريين.. وأريد أن أقول أخيرًا: إن المرأة المصرية قد عبرت القنطرة نحو الخطوة الثانية وهى العمل!

المصرية
تحقيق المعجزات فى ميادين العمل

.. وكان العمل هو الخطوة الثانية، وكان العمل أيضًا هو ثانى الأسلحة التى تشهرها المرأة المصرية فى معركة تحررها!

ولما تخرجت من الجامعة محاميات، وطبيبات، وأديبات، ومهندسات، وعالمات، كان طبيعيًا أن يطالبن بحقهن كذلك فى العمل!

كان خصوم المرأة قد نسوا تلك الضجة التى أقاموها حول دخول البنت إلى الجامعة.. نسوها أو تناسوها بعد أن منوا بالهزيمة الساحقة فما أن تخرجت حتى استأنفوا الصياح من جديد.. كيف تشتغل الفتاة بالمحاماة؟ كيف تترك الجرة لترتدى روب الأستاذة؟ كيف تترك المطبخ لتقف فى ساحات المحاكم؟ كيف تهجر الرجل الذى ستتزوجه لتستقبل الموكلين والمتقاضين؟!

ولكن المرأة المصرية أثبتت عن جدارة أنها تستطيع أن تنزل إلى ميدان العمل مع القيام بواجباتها الأخرى كزوجة وأم وبهرت بنجاحها الجميع واعترف الجميع بأن المرأة المصرية لم تعرف الفشل مطلقًا فى أى ميدان من الميادين التى نزلت إليها.

ولا تخلو محكمة واحدة الآن فى كل صباح من محامية أو أكثر تخدم العدالة وتكسب عيشها بنفسها إلى جانب رسالتها فى البيت. زوجًا وأمًا نموذجية.. وأذكر هنا الأستاذة مفيدة عبد الرحمن، التى تدير مكتبًا من أكبر مكاتب المحامين فى القاهرة تشرف بنفسها على تربية تسعة من أطفالها وتساهم فوق ذلك كله فى كثير من مجالات الخدمة العامة فتحاضر وتناظر وتشترك فى كثير من

الهيئات النسوية والاجتماعية كعضو عاملة نشيطة، ولو كان خصوم المرأة فى مصر منصفين ومعقولين لأخجلهم مثل هذه السيدة ولحطم كل الحجج الواهية السخيفة التى يقيمونها للتدليل على أن نزول المرأة إلى الحياة العامة سيكون على حساب بيتها وزوجها وأولادها!

ومع ذلك فهل قنعت خريجات الحقوق بمزاولة مهنة القضاء الواقف.. كلا فمنذ خمسة عشر عامًا وهن يطالبن بحقهن فى منصب وكيل النائب العام وقد تقدمت بأول طلب للحصول على هذه الوظيفة الأستاذة كريمة حسين ثم تلتها الأستاذة عائشة راتب التى لم تكتف بالطلب بل رفعت قضية فى مجلس الدولة لمطالبة وزير العدل بهذه الوظيفة التى تستحقها قطعًا بما حصلت عليه من درجات.

فإذا تركنا خريجات الحقوق - لننتقل إلى خريجات الطب، لوجدنا معجزات جديدة للمرأة المصرية ففى كل فروع الطب نبغت متخصصات وظهرت مواهب الطبيبات المصريات التى أصبحت عيادات بعضهن تنافس أكبر العيادات الطبية فى الشرق ولكن الاضطهاد لا يزال يطاردهن وكأن أنوثتهن جريمة تستحق العقاب فلم يسمح لخريجات الطب حتى الآن أن يكن طبيبات امتياز «فى المستشفيات الجامعية» حتى يمكن لهن أن يسرن فى نفس الطريق الذى يسير فيها النابغون من أطباء الامتياز.. نوابًا فمساعدين فأساتذة بكليات الطب ونذكر بالفخر والإعجاب الدكتورة كوكب ناصف التى وصلت إلى درجة مديرة إحدى المستشفيات الكبرى بالقاهرة عن جدارة واستحقاق.

وقد صبرت المرأة المصرية طويلاً على حرمانها من هذا الحق الطبيعى الذى لم يوجد له مسوغ واحد حتى اضطرت أخيرًا أن تطالب به رسميًا وتحتكم فيه أيضًا إلى القضاء الإدارى.. ولكن جهود المرأة المصرية فى ميدان الطب لم تقتصر على بضع عشرات من الطبيبات كلا فهناك مئات الحكيمات وآلاف الممرضات وقد خلت المستشفيات الآن تقريبًا من «السسترات» الإنجليزيات حيث شغلت وظائفهن الآن أخوات مصريات أظهرن من البراعة والتفوق ما أسكت القائلين بأن المصريات لا يمكن أن يملأن فراغ الإنجليزيات والسويسريات.. فى هذا الميدان!

وفى ميدان التربية والتعليم كانت الرائدة الأولى نبوية موسى. التى سهرت أعوامًا طويلة على إعداد الجيل الحاضر من المتعلمات فى مصر. فأخرجت الطليعة المثقفة من الجيش النسائى الزاحف وكانت مدارسها (بنات الأشراف) عنوانًا على كل المعانى العظيمة التى توحى بالثقة.

وتابعت سيدات عظيمات السير فى هذا الموكب الكبير وفى مقدمة هؤلاء اللاتى تزعمن رسالة التربية الآن.. السيدات الجليلات أسماء فهمى، وإنصاف سرى، ومنيرة صبرى، وكريمة السعيد، وسمية فهمى، ونظلة الحكيم، وسهير القلماوى، وعائشة عبد الرحمن، ونفيسة الغمراوى، ومئات بل آلاف من المفتشات والمدرسات والمعلمات فى المعاهد العالية والمدارس الثانوية والابتدائية ورياض الأطفال بل فى الملاجئ والمشاغل ودور الحضانة..

فإذا تركنا ميادين القضاء والطب والتعليم لنلقى نظرة على ميدان الصحافة لرأينا ما هو أعجب وأروع ففى خلال أعوام قليلة سطعت فى بلاط صاحبة الجلالة عشرات الأسماء التى استطاعت صاحباتها أن ينتزعن من زملائهن قيادة الرأى العام وفى كل يوم يطالع قراء الصحف مجموعة كبيرة من المقالات والأحاديث والأخبار والريبورتاجات وفى ميدان الهندسة.. وميدان العلوم والفنون بل فى الطيران أيضًا. لقد أصبح لمصر عالمات فى الذرة.. وعالمات فى الهندسة. ورسامات وطيارات!

فإذا رفعنا الستار عن نهضة المسرح والسينما فى بلادنا لرأينا أن نساءنا لم يساهمن فيها فقط بل كن فى مقدمة من وضع حجر الأساس فيها ويكفى أن نذكر هنا أن مؤسس صناعة السينما فى مصر كان سيدة، هى المغفور لها الفنانة «عزيزة أمير».

وكانت نظرة الناس إلى المشتغلين بالفن نظرة احتقار حتى اقتحمت ميادينه رائدات جريئات من بنات الأسر الكبيرة والمتعلمات. بهيجة حافظ وجنان رفعت وسميرة خلوصى وأمينة البارودى، وأمينة رزق وزينب صدقى وميمى شكيب وزوزو شكيب وفاتن حمامة وراقية إبراهيم وأمينة نور الدين وفاطمة رشدى ومديحة يسرى وكوكا ونجمة إبراهيم وزوزو حمدى الحكيم وعلوية جميل وغيرهن.

حتى لقد أصبحت لدينا الآن مجموعة عالمية من الفنانات المصريات..

ولم يكن اشتراك المرأة المصرية فى المسرح وفى السينما أمرًا سهلاً ولم يكن الطريق أمام المشتغلات مفروشًا بالورود والرياحين فقد كان عليهن أن يكافحن كفاح الأبطال لشق طريقهن وفرض رسالة الفن على أكوام من التقاليد والعراقيل.. ولعل البعض منا لا يزال يذكر بالإعجاب كفاح كواكب المسرح الحديث فى فجر نهضته..

ومع ذلك فهل اقتصر دور المرأة المصرية فى ميدان الفن على التمثيل والغناء. كلا ففى أكثر الأستوديوهات المصرية الآن نابغات فى صناعة السينما فالسيدة وفيقة أبو جبل من ألمع الفنانين فى عملية المونتاج وكثيرات غيرها يشتغلن فى الإنتاج والديكور والمكياج حتى الإخراج بدأت المصرية الطموحة تنزل إلى ميدانه أيضًا. بل بعضهن الآن مديرات شركات. هذا بالطبع إلى جانب جيش العاملات المشتغلات فى مختلف الأعمال التكميلية بمختلف الأستديوهات السينمائية.

فلا عجب إذا وجدنا فى مجالس إدارة النقابات الفنية بعض العناصر النسائية بل لا عجب إذا وجدنا كوكب الشرق السيدة أم كلثوم تنتزع رئاسة نقابة الموسيقيين لبضع سنوات.

***

وقد يقول البعض: إنك تتحدثين عن بضعة ألوف من المتعلمات أم نساء الشعب فمازلن مقيدات فى بيوتهن ولكن سوف أثبت لهذا البعض أنه أكثر خطأ فى هذا الوهم فقد سبقت نساء الشعب نساء الطبقتين المتوسطة والعالية إلى ميادين العمل..

ولنتكلم عن العاملات مثلاً..

بدأت الصناعة فى مصر نهضتها الحديثة فى سنة ١٩٣٠.. فى ذلك العام تألف اتحاد الصناعات وبدأ بنك مصر ينفذ مشروعاته الصناعية وكان العالم فى ذلك الحين يشهد صراعًا جبارًا فى الصناعة.. وكان من شأن ذلك التنافس

الدولى على كسب أسواق العالم أن يخفض تكاليف الإنتاج أى يخفض أجور العمال..

وكان على الصناعة فى مصر أن تجارى هذا التيار وكانت مهمتها أسهل فبدأت المصانع تجتذب الفلاحين الأجراء من القرى فيهرعون إلى المدينة حيث الأجر اليومى من الصناعة يزيد عن الأجر اليومى من الزراعة.. ولكن هذا لم يكن يكفى لحل مشكلة اليد العاملة للصناعة المصرية، فالصناعة عادة تحتاج إلى عقول أكثر استنارة من العقول «الخام» التى كانت تأتى من القرية رأسًا دون أن يسبق لها رؤية ماكينة أو موتور ومن هنا نشطت وزارة إسماعيل صدقى (وكانت تمثل رجال الصناعة) فى إنشاء المدارس الإلزامية لعلها تساعد فى إيجاد عناصر أكثر صلاحية للعمل الصناعى.. ومن هنا أيضًا بدأ التفكير فى الاستعانة بالعاملات المصريات!

إن الفتاة المصرية التى تجد سبل العمل فى وجهها مغلقة سوف يسرها بطبيعة الحال أن يفتح لها باب العمل فى المصانع ويصبح من السهل على أصحاب هذه المصانع أن يعرضوا عليها أجرًا أقل مما يتقاضاه عن نفس كمية العمل وساعاته أن مسئولياته ونفقاته أكثر منها أنها على الأقل لا تدخن ولا تجلس على المقاهى أو تتردد على الحانات!

وبدأ الغزو النسائى للمصانع وهو ما اعترفت به الدولة ضمنًا فى القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٣٣ والذى أشار إلى توظيف المرأة فى المصانع ثم عدل بالقانون رقم ٢٢ لسنة ١٩٣٦ طبقًا لازدياد عدد المشتغلات بالمؤسسات الصناعية والتجارية وقد حدد القانون للمرأة ساعات العمل وأوقات الراحة اليومية والأسبوعية والإجازات الإجبارية التى تعطى لها بأجر.. شهرًا قبل الوضع وخمسة عشر يومًا بعد الوضع هذا علاوة على الإجازات المرضية التى تمنحها بنصف أجر.

وإذا ذهبنا إلى الريف لنعرف شيئًا عن الفلاحة الكادحة لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة رائعة هى أن الفلاحة تعمل فى الحقل كالفلاح تمامًا علاوة عما تقوم به من أعمال فى المنزل والسوق.. إلخ.. إنها تساهم بالعمل الإيجابى على زيادة دخل الأسرة فتشتغل إلى جانب زوجها فى جمع القطن وفى تنظيفه وفى تنقية البذرة

وفى حصاد الزرع وفى بيع غلة الأرض ومنتجاتها.. ولكنها لاتكتفى أيضًا بأن تبذل نفس الجهد الذى يبذله العامل الزراعى هناك بل هى تضيف إلى مسئولياتها أعباء أكثر منه فهى التى ترعى الماشية وتربى الدواجن وتحلب الألبان وتصنع منها الجبن والزبدة والقشدة وهى التى تعجن العيش حيث لا يأكل أى فلاح رغيفًا واحدًا من صنع المخابز العامة التى لا وجود لها تقريبًا فى الريف.. وكذلك هى تغزل الصوف وتنسج بأنوالها اليدوية وقد ذكر إحصاء رسمى أن قرية واحدة من قرى الصعيد الأعلى كانت تصنع ستة آلاف نول يدوى يشتغل على ٩٠٪ منها النساء بل الفتيات الصغيرات!

(وإنه لمن دواعى فخر «اتحاد بنت النيل» إذ تنبه إلى أهمية تنشيط مثل هذه الصناعات فتبرع للقرويات بعدد كبير من ماكينات لنسج الأقمشة).

وإلى جانب هذه الصناعات الاستهلاكية الخاصة تنشط القرويات أيضًا للمساهمة فى كثير من الصناعات التى تدر على الأسرة الريفية كثيرًا من الخير ومن أهم هذه الصناعات.. صناعة السجاد والكليم فى الوجه البحرى وصناعة المقاطف والسلال فى الوجه القبلى وكلا الصناعتين تقوم على أكتاف النساء بالذات.

وهكذا ترى أن فى مصر ثمانية ملايين من الفلاحات.. بل من المعجزات، أولئك المواطنات الكادحات العاملات فى صمت وفى جلد وفى صبر...

نعم ما أعظم هذا الجندى المجهول.. ذلك البطل الذى لم يعترف يوما بإعجاب ولا بالتقاليد العتيقة ولا بأى قيد من القيود فلم يعرف سوى واجبه.. لم يعرف سوى شىء واحد أنه عضو فى مجتمع وأن رسالته أن ينتج مع المجموع كما يستهلك مع المجموع!

إن ذلك البطل هو الشجاعة، العاملة، الجريئة.. الفلاحة المصرية..

المرأة تمتاز فى ميادين العمل

لقد امتازت المرأة المصرية فى كل ميدان أقدمت عليه وبرهنت على جدارة منقطعة النظير.

وقد برز أكثر من اسم لامع لسيدات مصريات فى كل ميادين العمل سواء كان ذلك فى الميدان الثقافى أو الميدان الفنى.

المرأة والتعلم:

لقد امتازت فى ميدان التعليم كل من: أسماء فهمى عميدة المعهد العالى للبنات والتى وصلت إلى أعلى الدرجات لما تمتاز به من صفات، والدكتورة سهير القلماوى الأستاذة بجامعة القاهرة، والدكتورة درية فهمى الأستاذة بكلية الإسكندرية، والسيدة أنصاف سرى، والسيدة ناظلة الحكيم، والسيدة كريمة السعيد، والسيدة سمية فهمى، والسيدة نفيسة الغمراوى، والسيدة عائدة وفائى، والسيدة منيرة صبرى، والسيدة دولت الصدر.

المرأة والوظائف الحكومية فى مختلف الوزارات:

والسيدة زاهية مرزوق التى امتازت بنشاط ملموس فى وزارة الشئون الاجتماعية، والسيدة عزيزة رضوان فى نفس الوزارة، والآنسة عليه فهمى فى وزارة الخارجية.

المرأة والصحافة:

لقد برزت المرأة فى ميدان الصحافة.. السيدة فاطمة اليوسف صاحبة مجلة «روز اليوسف» والسيدة أمينة السعيد (رئيسة تحرير مجلة «حواء الجديدة») والدكتورة بنت الشاطئ والسيدة خيرية خيرى والآنسة جاكلين خورى والسيدة مرسيان اللوزى والآنسة إيزيس فهمى والسيدة إنجى رشدى، كما أسست درية شفيق أول مجلة نسائية فى مصر «مجلة بنت النيل».

وفى ميدان الطب امتازت السيدة كوكب حفنى ناصف. وفى المحاماة برزت كل من السيدات نعيمة الأيوبى ومفيدة عبد الرحمن وعطيات الخربوطلى وعطيات الشافعى...

وامتازت المرأة المصرية أيضًا فى ميادين الهندسة والزراعة والصيدلة والتجارة والعلوم والفنون الجميلة منها الرسم والنحت والتصوير والتمثيل والغناء والموسيقى.

وبهذه المناسبة نذكر كوكبنا اللامع السيدة أم كلثوم.

المرأة المصرية فى حقل الذرة

ويجب أن نذكر أن المرأة المصرية ساهمت فى إعلاء شأن البلاد فى ميادين العلم ومضت فى تلك الميادين إلى أعمق الأبحاث حتى تخصصت إحداهن وهى المغفور لها سميرة موسى فى دراسة الطاقة الذرية.

المرأة والرياضة:

لقد امتازت الآنسة إيناس حقى فى عبور نهر اللوار.

المرأة المصرية
فى الحقل الاجتماعى

.. وفى نفس الوقت الذى كانت «المصرية» الواعية تتسلح فيه بالعلم والعمل، كانت تتأهب لخوض معركة تحررها بسلاح ثالث كان هو أيضًا غاية ووسيلة فى وقت معًا وأعنى به التسلل إلى الحياة العامة من باب الخدمة الاجتماعية!

إنها تطرق جميع الأبواب وكلما أغلق فى وجهها باب دخلت من آخر.. وقد لاحظت أن باب الخدمة الاجتماعية «مواربًا» فدفعته فى كياسة وما كادت تدخل حتى أثبتت فى هذا الميدان كما أثبتت فى ميدان العلم والعمل ـ تفوقًا شهد به الأعداء قبل الأصدقاء!

فى بضع سنوات ـ أنشأت المصريات عددًا ضخمًا من الجمعيات الخيرية التى تؤسس وتدير المستشفيات والملاجئ والمطاعم الشعبية والمدارس.. إلخ.

وقد أفادت المصريات بلادهن ومواطنيهن بهذه الخدمات الاجتماعية التى تنمو عامًا بعد عام فكم خففت من آلام المرضى وعذاب المصدورين الذين كانوا على حافة الهاوية وكم ساعدت عائلات منكوبة وانتشلت فتيات ضالات وأنقذت أطفالاً أبرياء من ظلمات المستقبل الرهيب.. لكنى لا أستطيع أن أنكر أن المصرية الواعية قد أفادت هى أيضًا من هذه الجهود، فقد كان النشاط الاجتماعى مجالاً عظيمًا للتعارف فرأى المواطن بعينه ولمس بيديه جهد أخته المواطنة وإخلاصها وجدارتها بأن تحمل معه رسالة الإصلاح والتجديد..

بل إننى لا أغالى ولا أتعصب إذا قلت إن الذين حملوا راية الخدمة الاجتماعية فى مصر كانوا غالبًا من النساء وهو ما اعترفت به الدولة ضمنًا حين أنشأت

وزارة الشئون الاجتماعية فانتدبت لمكاتبها الفنية أكبر مجموعة من الشابات المصريات.. من باحثات وزائرات ومفتشات إلخ ولم يكن اتجاه وزارة الشئون الاجتماعية إلى الاستعانة بالعناصر النسوية بالذات فى أكثر ميادين نشاطها وليد المصادفة بل هو النتيجة الطبيعية لما أظهرته المصريات من براعة وإخلاص فى هذه الميادين حتى لقد أصبح للخدمة الاجتماعية فى مصر نجوم يذكرهم الناس جميعًا كلما ذكروا النشاط الاجتماعى!

جمعيات نسائية

جمعية المرأة الجديدة:

ولنعد الآن إلى الحديث عن نشاط جمعياتنا النسائية فى الميدان الاجتماعى، وليس فى مقدورى أن أتحدث بالتفصيل فى هذا الفصل عن نشاط جميع الجمعيات النسائية بتوسع ولذا فإنى أكتفى بأن أقدم نماذج عنها وعن نشاطها إلى القراء ليدركوا أثر المرأة الواضح فى حياتنا الاجتماعية وتفانيها فى النهوض بالمجتمع المصرى إلى أن يضارع فى حياته الاجتماعية أرقى المجتمعات المتحضرة.

وأبدأ الآن فأقدم جمعية «المرأة الجديدة» وهذه الجمعية التى ترأسها الآن السيدة هدية بركات وتساهم فى نشاطها مساهمة فعالة السيدة أمينة صدقى أنشئت فى سنة ١٩١٩ وكان الغرض من إنشائها فى هذا الوقت رفع مستوى المرأة المصرية عن طريق التعليم والثقافة ولذا كانت تحتضن بنات الشعب من سن الثامنة إلى سن الثانية عشرة لتعدهن ليواجهن الحياة مزودات بالثقافة والتعليم مع إتقان الحياكة والتطريز والتريكو. وتساهم فى تنفيذ رسالة هذه الجمعية مجموعة من السيدات الفضليات نذكر منهن حرم المرحوم السيد عبد الحميد سليمان وحرم المرحوم السيد على محمود وحرم السيد سامح موسى وحرم السيد على صبور وعدد كبير من سيدات المجتمع.

وكانت هذه الجمعية تخرج كل عام فتيات ينزلن إلى معترك الحياة ويسعين إلى الحياة الشريفة النظيفة بما أتقن من صناعة التفصيل والتطريز على أحدث

الوسائل وأجمل الأذواق ويفخر بهن المجتمع المصرى بما يقدمن من صنع أيديهن من أزياء تغنى فعلاً عن استيراد أزياء السيدات الأنيقات من الخارج، لأن الجمعية كانت تستقدم كل عام من البارعات وأمهر صانعات الأزياء فى باريس ليقمن بتلقين الطالبات فن التفصيل والخياطة على أحدث الابتكارات مما لا يجد الإنسان فارقًا بين ما تصنعه طالبات هذه الجمعية فى مصر وما تصنعه عاملات أحدث دور التفصيل فى باريس.

وكان لجمعية المرأة الجديدة فضل مشكور فى هذا الشأن بما رفعت من مستوى الفتاة المصرية.

وقد نجحت الجمعية فى هذا الميدان نجاحًا منقطع النظير وأدت للبلاد عن طريقه أجل الخدمات. ولكنها لم تكتف بهذا الجهد ولم تقف عند هذا النجاح ولم تقنع بما قدمت يداها من أعمال بل أرادت أن تشفع تلك الأعمال النافعة بأخرى فى ميدان النهوض بالمرأة وخدمة المجتمع المصرى ففكرت فى إنشاء مدارس لتخريج الممرضات والمربيات الصالحات اللائى يمكن الانتفاع بهن فى ميدانين هامين هما ميدان تكوين الأطفال وإعدادهن لجيل نافع وميدان التمريض على أرقى النظم فى العالم، وبهذا نسد فراغًا كانت تملأه المربيات الأجنبيات وبعض الممرضات منهن.

واهتمامًا من الجمعية بهذا الجانب استقدمت أخصائيات فى فنون التربية والتمريض من سويسرا وإنجلترا وغيرهما ليقمن على رعاية طالبات هذه المدارس وتزويدهن بكل ما هو جديد فى تخصصهن فى التربية أو التمريض.

ولا تألو جمعية المرأة الجديدة جهدًا فى بذل كل ما تستطيع من بذل للأخذ بيد الفتاة المصرية والنهوض بالمجتمع عن طريق إعدادها لما يحتاج إليه المجتمع من خدمات كانت من قبل وقفًا على الأجنبيات واحتكارًا لهن دون المصريات.

مبرة محمد على:

مبرة محمد على: ترأسها الآن السيدة هدية بركات وتعاونها السيدة أمينة صدقى معاونة صادقة أكيدة، فإذا تركنا هذه الجمعية العاملة فى صمت توالى

نشاطها وكفاحها نجد هناك فى ميدان النهوض الاجتماعى جمعية أخرى تعمل حثيثًا وبكد لا يعرف الملل فى النهوض بالمستوى الصحى فى البلاد عن طريق إنشاء المبرات ومعالجة المرضى من الفقراء من تشخيص للداء وصرف للدواء مما كان له أثر بعيد فى تخفيف ويلات المرضى على الكثيرين ممن تضيق بهم المستشفيات الأخرى ولا يجدون المال اللازم لعلاج أنفسهم على نفقتهم الخاصة.

وعندما دهم صعيد مصر خطر الملاريا سارع أعضاء «مبرات محمد على» إلى ميدان الخطر يساهمن فى مقاومته وتخفيف وطأته غير عابئات بما يتعرضن له فى هذا السبيل الإنسانى من خطر المرضى أو جهد يبذلنه ثم يزاولنه فى قصورهن أو فى بيوتهن بل كان هدفهن الذى وضعنه نصب أعينهن. ولا هدف آخر سواه - هو الرحمة.. والرفق بالإنسانية المعذبة وتقديم المعونة المالية إلى جوار المعونة الكسائية إلى تقديم الغذاء وصرف الدواء للمرضى والمصابين والسعى إلى دورهم وأكواخهم التى كانوا يقيمون فيها دون ملل أو انقطاع.. كانت سيدات مبرة محمد على بعثات موزعة كل بعثة معها طبيب وممرضات وسيارات تحمل الدواء والغذاء والكساء إلى كل بيت وكل مريض كما أسلفت.. ولم يهدأ لهن بال حتى كللت جهودهن مع جهود غيرهن من المساهمات فى التطوع بالقضاء على المرض ودفع خطره عن المواطنين فى تلك المناطق.

***

وقد أشرت فى فصل سابق إلى تاريخ تكوين هذه الجمعية وقلت أن النواة الأولى فى تكوينها كانت عندما دعت «الأميرة» عين الحياة إلى الاكتتاب لإقامة مستوصف أطفال فى شبرا فى مستهل القرن العشرين، ولم تلبث تلك الفكرة أن تطورت بسرعة عندما تولت رياستها «الأميرة أمينة حليم» فدفعها بقية الأعضاء - وفى مقدمتهن هدى شعراوى - إلى أن تخطو خطوات واسعة فأضافت إلى هذا المستوصف أقسامًا ثلاثة للأمراض الباطنية، والجلدية، والأنف والأذن والحنجرة.

ثم ظلت أعمال المبرة ومؤسساتها المختلفة تتزايد وتتسع على مر الأيام ونضوج الوعى الإنسانى حتى توسعت أعمال الجمعية وشيدت مستشفى كبيرًا لها على

أحدث النظم وزودت بأحدث وسائل العلاج كما أنشأت عدة مبرات أخرى للعلاج الخارجى بالقاهرة لقاء أجور زهيدة جداً ثم مضت هذه الجمعية تنشىء الفروع لها فى عواصم المدن والبلاد فى أنحاء القطر المصرى بمساعدات الأثرياء والمتبرعين.

وكل هذه المؤسسات تؤدى عملها على أكمل وجه وتباشر مهمتها الإنسانية بكل نشاط ومثابرة.

لجنة سيدات الهلال الأحمر:

وتأسست فى سنة ١٩٣٩ لجنة سيدات الهلال الأحمر لتنهض بالعبء الإنسانى لأبناء هذا الوطن وتمديد الرحمة التى تمسح بها الأنين والآلام وتذهب بالأسقام، وتحيى بها الآمال فيمن فقدوها.

وقد أسست هذه اللجنة السيدة ناهد سرى حرم المهندس حسين سرى، وكان من بين السيدات اللواتى ساهمن فى تأسيس هذه اللجنة وأصبحن أعضاء فى اللجنة التنفيذية السيدات حرم كامل لبيه وحرم محمود ثابت وحرم إبراهيم ذو الفقار وحرم على محمود وحرم حافظ عفيفى وحرم عبد الحميد الشواربى وحرم سامح موسى، وحرم زكى الفار ولفيف من كرائم السيدات.

وما كادت لجنة سيدات الهلال الأحمر تؤلف حتى كانت هناك مشاكل خطيرة تنتظرها وكأنهما كانا على ميعاد ففى سنة ١٩٤٠ ضربت الإسكندرية بالقنابل وهجرها أهلها هائمين على وجوههم تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم ومتاعهم وسرعان ما ساهمت اللجنة برياسة السيدة ناهد سرى فى مد يد المعونة لمائة وخمسين ألف مهاجر وتكفلت بكل طلباتهم فى الحياة ويسرت لهم وسائل الراحة مما حمل المسئولين على الإشادة بجهود اللجنة فى هذا الصدد.

وفى سنة ٤٤ واجهت اللجنة مشكلة إنسانية أخرى هى خطر الملاريا فى أقاصى الصعيد إذ كانت الملاريا تفتك بالعشرات بل بالمئات كل يوم وسارعت سيدات الهلال الأحمر إلى المعمعة بأنفسهن وبذلن جهوداً جبارة لإنقاذ المرضى من هذا الخطر الداهم غير عابئات بتعرضهن للمرض وإقامتهن وسط منطقة موبوءة ببعوضة الجامبيا.

وقد نظمت سيدات الهلال الأحمر حملات متنقلة كل حملة منها فى عربة تضم طبيبًا متطوعًا وممرضة والسيدات المتطوعات والكساء للمرضى واقتسمت سيدات الهلال الأحمر مع سيدات مبرة محمد على مناطق المرضى وحاصرنها وقدمن للمرضى الغذاء الدسم الذى يحمى جسومهم من التأثر بالملاريا والكساء الواقى الذى يبعث فيهم الدفء والسلامة.

وكان جهادًا شاقًا مريرًا لكن نجاح المتطوعات فى كفاحهن هذا المرض قد خفف عنهم عبء كل تعب وشعرن بسعادة لا تعد لها سعادة بما قدمن من خدمات لبنى وطنهن فى هذه الرقعة من الوادى.

وفى سنة ٤٦ نكب صعيد مصر مرة أخرى بداهية ثانية هى انتشار الحمى الراجعة فى بعض مديرياته وعلى الفور سارعت سيدات الهلال الأحمر إلى المناطق الموبوءة وقسمن أنفسهن على مناطق المرضى ووزعن بأنفسهن النقود والأدوية على المرضى وساهمن بكل الوسائل الممكنة فى مقاومة هذا الداء وكن يعملن عملاً متواصلاً كل يوم من الساعة السابعة صباحًا حتى الساعة السابعة مساء دون كلل أو ملل بل كن يشعرن بسعادة واطمئنان وهدوء كلما واسين مريضًا أو قدمن لأسرة من الأسر المنكوبة إعانة وعشن فى هذه المناطق بين الفقراء والمساكين والمعوزين سعيدات بما يقدمن من جلائل الأعمال ولم يغادرن مناطق المرض حتى انتصرن عليه وقضين على خطره.

والآن ترأس لجنة السيدات للهلال الأحمر السيدة حرم عبد الحميد الشواربى وتتولى وكالة هذه الجمعية حرم زكى الفار، ويبذلان ما فى وسعهما للعمل على تنفيذ أهداف الجمعية.

جمعية تحسين الصحة:

الجمعية التى تعمل على مكافحة السل. من الجمعيات النسائية النابضة بالحياة، والتى سدت فراغًا واسعًا ونقصًا ملموسًا «الجمعية النسائية لتحسين الصحة» التى ترأسها السيدة حرم الدكتور عبد المجيد محمود ومن دواعى الإعجاب والتقدير لجهود هذه الجمعية أنها تكونت بلا راس مال وكان كل

مقوماتها وقت إنشائها إيمان أعضائها بواجب من أقدس الواجبات وأحقها بالأداء عليهن إلى جموع كبيرة من أبناء هذا الوطن ولا أذيع سرًا إذا ذكرت هنا أن رأس مال هذه الجمعية عند تكوينها كان ثمانين قرشًا لا غير وتقول الآنسة ليلى دوس سكرتيرة الجمعية ومن انشط وأجدر السيدات المصريات إن دخل آخر الأسبوع «السل» بلغ ٢٢ الف جنيه مصرى فانظر كيف يصنع الإيمان المعجزات ويوجد أشياء من لا شىء.

وقد تكونت هذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩٣٦ وكان الدكتور محمود أباظة مدير قسم الأمراض الصدرية فى ذلك الوقت يشكو من عدم وجود هيئة اجتماعية تساعد الفقراء من مرضى السل وتشرف على أسر المرضى منهم فتطوعت بعض السيدات المصريات للقيام بهذا العمل الجليل.

وتصف الآنسة ليلى دوس أدوار نشاط هذه الجمعية فتقول؛ لقد بدأ العمل ضيقًا فى دار صغيرة بعابدين تسع ٤٠ طفلاً عزلناهم عن ذويهم من مرضى السل رعاية لصحتهم ونأينا بهم عن موطن المرضى، وأخذنا نمد عائلاتهم بالمساعدات المادية والاجتماعية بعد بحث حالاتهم وظروفهم ولم تكتف الجمعية بذلك بل عملت على إنشاء مشغل صناعى لتعليم بنات المرضى مهنة الحياكة وأشغال الإبرة وذلك لزيادة دخل الأسر الفقيرة عن طريق مساعدة بناتها بما تصنعن من أشغال.

وإلى جوار ذلك صممنا على أن نوجد دخلاً للأسر الفقيرة فقررت الجمعية تعليم الصالحات من ذوى المرضى حياكة الملابس ومن لا يصلح لهذا العمل تقوم ببيع منتجات زميلاتها وبذلك توفر للقادرات على الحياكة الوقت لمواصلة عملهن وفى الوقت نفسه دبرت الجمعية للعاجزات عن صناعة الحياكة موردًا للرزق بما يبعن من إنتاج زميلاتهن.

ومع هذا وذاك فإن الجمعية تقوم بحل مشكلة البطالة بين أفراد الأسر التى ترعاها فأنشأت لكل منها محلاً تجاريًا صغيرًا زودته براس مال مناسب وقد استطاعت هذه الأسر أن تنجح فى هذا العمل وأن تعول أفرادها عن طريق هذا المورد الذى دبرته لها الجمعية.

ولقد بذلنا قصارى جهودنا لتأسيس مدينة تحسين الصحة حتى تم إنشاؤها وهى تقوم الآن على جانب طريق الفيوم على بعد كيلو واحد وتضم الآن عددًا ضخمًا من الأطفال ولقد اهتمت وزارة المعارف بتوفير التعليم قريبًا من مبنى المؤسسة كى يتسنى لهؤلاء الأطفال تلقى تعليمهم فأقامت فى هذه المنطقة مدرستين لأولاد المرضى يتلقون التعليم فيهما.

مبرة التحرير: (فريال سابقًا)

وقد لاحظت السيدة سنية عنان خلال تجوالها فى الأحياء الشعبية بتلك الضاحية صورًا رهيبة مفزعة من الفقر والبؤس والتعاسة فقررت أن تتبرع فى كل شهر بمبلغ ٢٥ جنيهًا تصرفها فى وجوه البر بالفقراء فى هذه الضاحية واستمرت على ذلك مدة طويلة غير أن الفكرة لم تلبث لديها أن تطورت إلى إنشاء مبرة تعنى بكل ما ينهض بالفقراء وأبنائهم فى تلك الضاحية.

وبين عشية وضحاها أنشأت السيدة سنية عنان هذه المبرة وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ وتولت الأستاذة زينب لبيب أمانة صندوق هذه الجمعية.

وتوسعت أعمال المبرة فأصبح لها كثير من المؤسسات النافعة التى تساهم فى بناء مجتمع ناهض قوى سليم من الأمراض بعيد عن الجهالة وآثامها ومن هذه المؤسسات ما تتعهد الطفل الفقير منذ يولد حتى يصير رجلاً قادرًا على كسب عيشه بما تعده له المؤسسة ومن هذه المؤسسات ما تتعهد الطفلة فى مهدها حتى تصبح فتاة صالحة للزواج والأمومة مزودة بأكثر من صناعة فى يدها تكسب بها رزقها أو تساعد زوجها على أعباء الحياة ومطالبها.

وتعتبر مبرة التحرير بمؤسساتها وأقسامها المختلفة دعامة قوية ناجحة من دعامات نهضتنا الاجتماعية المرموقة فهى دور كفالة ورعاية وعناية وتعليم وصقل وإعداد للحياة.. إنها تضم المطاعم الشعبية ومحطات اللبن للأطفال والحمامات المجانية والساحات الرياضية، كما تضم مختلف الأقسام التى تعنى بالحامل ثم بالطفل ثم بالفتيات.

إنها معجزة للإنسانية ورحمة ببنيها وعنوان عريض مقروء للجهود النسائية المصرية فى الإصلاح الاجتماعى وسد لنقص هائل فيه كنا فى حاجة ماسة إلى وجوده وفى ضرورة ملحة إلى قيامه.

وكانت المرأة ممثلة فى كفاح السيدة سنية عنان هى التى وضعت البذرة الأولى فى سد هذا النقص وظلت تتعهدها بكل ما أوتيت من قوة وعزم وصبر حتى أينعت وازدهرت وأتت بأطيب الثمار وأعظم النتائج وأوجدت فى ضاحية مصر الجديدة حرمًا آمنًا يستظل به الفقراء والمحتاجون والمنكوبون ويترعرع فى ظلاله الأطفال وتتكون فى رعايته الفتاة الصالحة النافعة.

جمعية رعاية الأحداث:

وهذه ناحية أخرى من نواحى عناية المرأة بالإصلاح الإجتماعى هى رعاية الأحداث وتوجيههم إلى نواحى الخير والإصلاح بدل أن يتركوا نهبًا للشرور وأعوانًا للجريمة والفساد. وتتوالى رياسة هذه الجمعية السيدة وصفية شكرى وهى لا تألو جهدًا ولا تدخر وسعًا فى السير بهذه الجمعية إلى خير الأهداف والنهوض بالأحداث وانتزاعهم من أحضان الرذيلة وتنشئتهم على الفضيلة والخير.

وقد تكونت هذه الجمعية فى أول عام ١٩٤٨ من لفيف من السيدات المصريات وفى سنة ١٩٥٠ افتتحت هذه الجمعية أولى مؤسساتها «مدرسة التربية الاجتماعية الداخلية بكوبرى القبة» ويقيم بها فى الوقت الحاضر أكثر من ٣٠٠ حدث تعمل على إعدادهم للمستقبل ومواجهة الحياة بواسطة ثلاثة برامج أحدها تعليمى والثانى مهنى والثالث اجتماعى.

والجمعية تمضى اليوم إلى تقويم الأحداث خير تقويم بما تبذله من جهد وما توالى من نشاط وما ترنو إليه من القضاء على الجريمة فى مهدها وتحويل أعوانها إلى مواطنين ناهضين صالحين.

وإن الخبراء الاجتماعيين ليعقدوا آمالاً كبارًا على نشاط هذه الجمعية ويتوقعون من وراء جهودها خيرًا كثيرًا لهذا البلد ويؤمنون إيمانًا عميقًا بمدى رسالتها وسمو غاياتها وأهدافها.

كما أنه يوجد فى مصر أكثر من ١٥٠ جمعية نسائية نذكر منها الجمعيات التالية:

الاتحاد المصرى لرعاية الطفولة

والجمعية النسائية الوطنية

وجمعية رعاية المراة والطفل

وجمعية التحرر الاقتصادى

وجمعية الشابات المسيحية المصرية

وجمعية السيدات المسلمات

وجمعية طفل المعادى

وجمعية أصدقاء الشعب

وجمعية صديقات الطفولة

وجمعية ربات البيوت

واتحاد الجامعيات

والجمعية الخيرية القبطية الكبرى

ونادى سيدات القاهرة

وجمعية تحرير المرأة

واتحاد نساء الدولة

وجمعية سيدات مصر

وجمعية أم خنان

وجمعية خريجات كلية البنات الأمريكية

وجمعية السيدات القبطية

ورابطة نساء الشرق والغرب

وجمعية السيدة العذراء

وجمعية رعاية الأمهات والأطفال بالقطر المصرى

وجمعية صديقات الفتيات الفقيرات

وجمعية المحافظة على القرآن الكريم

وجمعية صديقات الكتاب المقدس القبطية

وجمعية مساعدة الضريرات

وجمعية مصر لحماية المرأة

وجمعية مصر لحماية المرأة والطفل.. إلخ.

نفاخر بجهود المرأة المصرية:

وأحب قبل أن أختم هذا الفصل أن أذكر إعجابى بالدور الهام بل الرئيسى الذى تلعبه المرأة المصرية فى ميدان الخدمة الاجتماعية. إن المرأة المصرية قد نزلت إلى الحياة العامة بالفعل. وبذلت من الجهد والتضحية فى سبيل مواطنيها ما يجعلنا نتساءل: كيف تقوم المرأة المصرية بكل هذا العبء من الكفاح وبكل هذه التضحيات دون أن تنال كل حقوقها، لأنه يجب أن تكون هناك حقوق حيثما تكون واجبات، وأنه لمن العدل أن تتساوى الحقوق عندما تتساوى الواجبات.

اتحاد بنت النيل
يطالب بحقوق المرأة السياسية

وكان لابد للمرأة المصرية بعد أن استكملت كل الأسلحة اللازمة للنضال أن تنزل بكل قوتها إلى الميدان السياسى بالذات.. وكانت هذه المرحلة التاريخية تحتاج إلى قيادة جديدة ترسم خطة المعركة التحريرية الفاصلة وتشرف على تنفيذها خطوة فخطوة فى سبيل النصر الأكيد.. وقد ظهرت هذه القيادة فى شخص «اتحاد بنت النيل».. وكان لميلاد هذه القيادة السياسية قصة وأى قصة!

فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ أصدرت العدد الأول من مجلتى «بنت النيل» وكنت أهدف من وراء ذلك إلى تربية جيل جديد من المصريات يبهر نساء العالم أجمع بنهضة حقيقية تليق بحفيدات كليوبترا ونفرتيتى وشجرة الدر.. بل بحفيدات خديجة وعائشة والمرأة التى أصابت يوم أخطأ عمر. أحكم الخلفاء الراشدين!

كنت أهدف بمجلتى إلى تحديد المعالم فى شخصية «بنت النيل» وتكوين نماذج مشرقة للمصرية الجديدة.. المصرية التى تنافس نساء العالم كربة بيت نظيفة حكيمة مدبرة وكزوجة لطيفة وديعة مخلصة وكأم مستنيرة عطوفة حانية. وكسيدة مجتمع مثقفة رشيقة لها وجودها وشخصيتها!

وقد نجحت مجلة «بنت النيل» واكتسحت السوق اكتساحا. لسبب وجيه هو أنها كانت تمثل احتياج النهضة النسائية إلى مجلة من هذا الطراز فملأت فراغا ظل شاغرًا مدى سنوات طويلة.. وطبقا للقاعدة التى تقول بأن الإنسان يؤثر فى الناس بقدر ما يتأثر بهم أو يتأثر بهم بقدر ما يؤثر فيهم طبقا لهذه القاعدة العلمية كانت رسائل القارئات تنهال على كل أسبوع تحمل مشاكلهن بل تحمل

آلامهن ودموعهن لعلى أستطيع أن أحلها أو أخففها أو أكفكفها .. وكنت أحاول ذلك بطبيعة الحال وفى خلال محاولاتى تلك كنت ازداد إيمانًا بأن كل مجهود فى سبيل حل هذه المشكلات النسائية على اعتبار أنها فردية إنما هو مجهود ضائع ما دام حق التشريع فى مصر حكرا على الرجال.. وما دامت هذه التشريعات تنظر للمرأة على اعتبار أنها ناقصة أو عبدة!

رجال يفسرون الدين على هواهم وحسبما ترى نزواتهم.. ويتزوجون كما يشاءون ويطلقون كما يشاءون بلا قيود ولا حدود ومهما كانت نتيجة حماقاتهم... تشريد أطفال ودفع شابات مجروحات إلى الهاوية..

وتقاليد عتيقة.. مئات الألوف من المعذبات وراء الجدران لا تستطيع الواحدة منهن أن تخرج من بيتها بل لا تكاد تجرؤ - فى بعض الأحيان على النظر من خلال نافذتها .. وقد ينطوى سجنها أيضا على الضرب والتعذيب دون أن يسمح لها أن تتأوه بصوت عال!

وتجريد من كل مالها من حقوق،، حقها فى العلم! وحقها فى العمل. وحقها فى التصويت والترشيح. وأخيرًا حقها فى كل مظهر من مظاهر المساواة... وفى مقدمتها المساواة فى الأجور!

هؤلاء المنبوذات اللاتى يمثلن أكثر من نصف المجتمع المصرى.. هؤلاء الـ ١١ مليونًا من المفروض عليهن الحرمان والذل والعبودية يجب أن يتحررن بالجملة ويجب أن تحل مشاكلهن دفعة واحدة، باعتبارها مشكلات متفرعة عن مشكلة واحدة أصلية، هى مشكلة اضطهاد الجنس النسائى كله!!

وظل هذه العقيدة ترسب فى نفسى ويزداد إيمانى بها على مر الأيام.. وكلما تلقيت سيلا من دموع الضحايا.. أمهاتنا، وشقيقاتنا، وبناتنا التعيسات!

وتحول صدرى إلى مستودع للسخط على هذه الأوضاع الظالمة لم يلبث أن انفجر ذات يوم من أيام سنة ١٩٤٨ وجاء انفجاره فى شكل «فكرة» فى تأليف «اتحاد بنت النيل».

لقد تألفت من قبل جملة قيادات نسائية للخدمة الاجتماعية.. للمطالبة بتعليم البنت وللسعى لإقرار حقها فى العمل.. لرفع مستواها بصفة عامة، وربما قامت بعض محاولات مشكورة لإيجاد القيادة السياسية ولكنها كانت مجرد «محاولات» لا أكثر ولا أقل..!!

ومع ذلك فقد كانت القيادة الجديدة ـ اتحاد بنت النيل ـ حدثا يتفق مع ظروف التطور التى مرت بها البلاد، فلم تعد قيادة الحركة النسائية فى مصر قيادة أرستقراطية بطبيعة تكوينها أو بطبيعة أهدافها.. كلا ولكنها كانت قيادة شعبية بتكوينها وأهدافها فى وقت معا!

لقد تمخضت الأحداث عن ميلاد «بنت النيل» لتؤلف ـ لأول مرة ـ حركة نسائية لا تقتصر على سيدات كبار الملاك وفتياتهم بل تشمل نساء مصر من جميع الطبقات.. حركة تجمع بين خريجة الجامعة والمعلمة الإلزامية.. بين الطبيبة والمحامية والمهندسة وبين العاملة فى المصنع والزارعة فى الحقل.. ربات البيوتات الكبيرة ولابسات «الملاية اللف»!

وقد جاءت حركة بنت النيل وبالتالى لتعبر عن مطالب المرأة المصرية ككل.. لم تقم «لتعطف» على الفقيرات منهن أو تشملهن «برعايتها»! ولم تقم لتطالب لهن ببعض «الكماليات».. بل قامت لتبحث أساس العبودية.. لترفع عنهن هذا الظلم وذلك الظلام.

وقد يقول البعض: إن المحاولات التى سبقت ظهور «بنت النيل» ارتفعت من بينها أصوات تطالب بحقوق المرأة السياسية.. وليس من طبعى أن انكر الحقائق أو أجحد فضل أصحابها فأنا أسلم بهذا الذى حدث ولكن رغبتى الصادقة فى وضع كل شئ فى نصابه تجعلنى أسجل أيضا أن اتحاد بنت النيل لم يقف جهده عند حد إعلان مطالب المرأة أو المناداة بها بين أغراض أو تسجيلها فى برنامجه ولكنه خاض المعركة بطريقة إيجابية عملية فنزل إلى الميدان السياسى فعلا دون أن ينتظر إذنا أو يتلقى تصريحا أو يجلس مكتوف اليدين فى ارتقاب صدور تشريع يسمح للمرأة المصرية بأن تزاول نشاطها السياسى!!

وسيجد القارئ تفصيل ذلك فى فصولنا القادمة.. وسيلمس من جهود «بنت النيل» فى خلال السنوات الماضية ما يؤكد إيماننا بأنها كانت قيادة سياسة ارتفع صوتها فى ظروف كانت تحتم بمطالب المرأة السياسية

اتحاد بنت النيل

والآن كيف تألف «اتحاد بنت النيل»؟

إننى أمر سريعا على الجهود الشخصية التى قمت بها فى الدعوة له بين مختلف العناصر النسائية البارزة فى المجتمع المصرى وأترك لجريدة «الأهرام» الغراء مهمة الحديث عن بنت النيل، وإليك ما نشرته بالحرف الواحد صباح يوم ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٩ قالت الجريدة الكبيرة:

اجتمعت بدار «بنت النيل» ٤٨ شارع قصر النيل أمس الأول، اللجنة التأسيسية للاتحاد المكونة من حضرات صاحبات العصمة: الدكتورة درية شفيق، حرم الأستاذ على «بك» محمود، حرم حسين عنان «باشا» رئيسة مبرة الأميرة فريال بمصر الجديدة، السيدة وصفية شكرى، حرم حسن «باشا» فائق، الأستاذة زينب لبيب المحامية، السيدة أسماء فهمى عميدة معهد البنات العالى، حرم حنفى «باشا» محمود، السيدة نظلة الحكيم مراقبة التعليم بوزارة المعارف العمومية، حرم الدكتور محمود «بك» على السيد كريمة المغفور له الدكتور أحمد «باشا» ماهر، حرم سليمان «بك» محمود، السيدة فتحية سليمان وكيلة معهد التربية العالى للبنات، السيدة أمينة رشاد رئيسة جمعية طفل المعادى، السيدة إحسان عابد المفتشة بوزارة المعارف، حرم الدكتور فايد «بك» يسرى، حرم على «بك» صبور، حرم متولى «بك» نور، السيدة حكمت صبح المفتشة بوزارة المعارف، الدكتورة تحية فهمى الطبيبة بمستشفى قصر العينى، السيدة فاطمة أتربى أبو العز، حرم يوسف «بك» سميكة، حرم حلمى «بك» مكرم، حرم الدكتور حسام الدين «بك»، حرم يوسف «بك» الريدى، حرم الدكتور مصطفى «بك» الديوانى، حرم محمد «بك» رجائى، حرم عبدالمنعم «بك» عزمى، حرم إسماعيل «بك» بدوى، حرم ثريا التركى، حرم سعدالدين «بك» العجيزى، السيدة منيرة حسنى، الآنسة

إحسان عسكر خريجة الآداب وصحفية، الآنسة إيزيس فهمي والسيدة رينيه عريف، الآنسة كاميليا يوسف صالح خريجة السوربون، الآنسة ايفون صالح خريجة الآداب، والآنسة مارى عبدالشهيد، الآنسة سعاد فريد عميدة كلية البنات وبعض سيدات المجتمع.

وتلى القانون الأساسى للاتحاد فوافقن عليه وقررن تسجيله بوزارة الشئون الاجتماعية كما تم اختيار أعضاء مجلس الإدارة المكون من حضرات صاحبات العصمة:

الدكتورة درية شفيق رئيسة، وحرم حسين عنان «باشا» نائبة رئيسة للاتصالات الخارجية وحرم على «بك» محمود رئيسة للإشراف على تنفيذ البرنامج، والسيدة أسماء فهمى نائبة رئيسة للإشراف على وضع البرامج والسيدة وصفية شكرى، وحرم حسين «باشا» فائق أمينة للصندوق، والأستاذة زينب لبيب أمينة عامة، والسيدة إحسان عابد والسيدة نظلة الحكيم، وحرم متولى «بك» نور وحرم على «بك» صبور وحرم حنفى «باشا» محمود وحرم عبدالمنعم «بك» رشاد والسيدة فاطمة أثريى أبو العز والآنسة سعاد فريد أعضاء.

ونقف هنا. عند هذا الحد الذى سجلت فيه الأهرام أول وثيقة عن تأليف «اتحاد بنت النيل» بعد أن ظلت لجنته التحضيرية تعمل فى صمت طوال بضعة شهور، حاولت خلالها قدر المستطاع. أن تجمع شمل النساء المصريات جميعا وتحشدهن فى جبهة واحدة..

* * *

وهنا أشيد بزميلاتى السيدات الفضليات اللواتى أسسن معى اتحاد بنت النيل وأخذن على عاتقهن معى بذل الجهود العديدة فى سبيل استخلاص حقوق المرأة المصرية كاملة غير منقوصة:.

السيدة وصفية شكرى: «رئيسة جمعية رعاية الأحداث والآن رئيسة نادى اتحاد بنت النيل».

اتحدث أول ما أتحدث عن السيدة وصفية شكرى، وهى هذه السيدة التى أجدها دائما إلى جوارى فى الشدائد والصعاب، ولقد لمست فيها التفانى والتضحية يوم أن عرضت لى فكرة تأسيس اتحاد بنت النيل للمطالبة بحقوق المرأة الدستورية - وكان أى تفكير بحقوق المرأة السياسية فى ذلك الحين يقابل بهجوم عنيف وعاصفة من الشتائم - ولكن ما كدت أثير هذا ذات يوم فى مجلس إدارة جمعية المرأة الجديدة التى كنت عضوا فيه حتى أيدت السيدة وصفية شكرى فكرتى وتحمست بكل قواها لتأييدها وكانت أول من انضم إلى فى تأسيس اتحادنا ومازالت إلى الآن أول من يتقدم فى كل ظرف أو مناسبة فيها كفاح وتضحية فى نصرة قضية المرأة السياسية.

الأستاذة زينب لبيب المحامية: «وكيلة اتحاد بنت النيل وعضو مجلس إدارة بعض الجمعيات الأخرى».

والأستاذة زينب لبيب أيضا فى مقدمة السيدات اللائى أسسن معى اتحاد بنت النيل، ولمعت منذ نشأتها الأولى بالاشتغال بالمسائل الاجتماعية وكانت قدوتها فى ذلك السيدة والدتها «السيدة عزيزة الغازى» التى كانت فى مقدمة سيدات مصر اللائى اشتغلن بالحركة الوطنية والنسائية منذ سنة ١٩»

وقامت الأستاذ زينب لبيب بوضع القانون الأساسى لاتحاد بنت النيل، كما أنها كانت فى مقدمة السيدات اللائى اقتحمن البرلمان معى سنة ١٩٥١.

السيدة سنية عنان: رئيسة جمعية التحرير ووكيلة اتحاد بنت النيل لقد عرفت السيدة بمجهوداتها فى الحقل الاجتماعى كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهى أيضا من أوائل السيدات اللاتى شجعنى على تأسيس اتحاد بنت النيل وعاونتنى فى هذا التأسيس معاونة صادقة فعالة.

السيدة أسماء فهمى: عميدة معهد التربية العالى للبنات ووكيلة اتحاد بنت النيل».

لقد برزت السيدة أسماء فهمى فى ميادين التعليم وكانت القدوة الأولى للسيدات فى هذا الميدان، ونذكر بالفخر أنها وصلت إلى أعلى الدرجات فى

المناصب الحكومية وبرهنت بذلك، على قدرة المرأة المصرية وكفاءتها عندما تتاح لها الفرصة ويفسح أمامها المجال، وكان لهذه السيدة الجليلة دور كبير فى تأسيس اتحاد بنت النيل ولها فضل عظيم فى تجارب بنت النيل لمكافحة الأمية بين النساء.

السيدة نادر صبور: «الأمينة العامة لاتحاد بنت النيل وعضو مجلس إدارة بعض الجمعيات الأخرى».

وتمتاز السيدة نادر صبور بنشاط اجتماعى خارق للعادة ومجهودات جبارة فى جمعيات عديدة تعمل على رفع مستوى المرأة المصرية.

وانتخبت السيدة نادر صبور الأم المثالية فى مصر لعام ١٩٥٥.

السيدة زينب نور: «أمينة صندوق اتحاد بنت النيل».

مثل أعلى للسيدة التى تعمل فى صمت وتضحى تضحيات كبيرة فى سبيل خدمة المرأة المصرية ورفع مستواها وهى قدرة للمرأة المصرية فى أخلاقها وطباعها.

السيدة عزيزة رضوان: «أمينة الصندوق المساعدة لاتحاد بنت النيل».

وهى تكافح أيضا ليل نهار فى صمت ومثابرة ولا تدخر وسعا فى تحقيق أهداف قضية المرأة المصرية.

السيدة سميحة ماهر: «الأمينة العامة المساعدة لاتحاد بنت النيل».

دفعها الإيمان بحقوق المرأة إلى النزول فى المعترك السياسى يوم أن فجعت بخبر مصرع والدها المغفور له أحمد ماهر رئيس الوزراء السابق فانضمت لنا لتواصل رسالة والدها الراحل.

الأهــــداف

ويعمل الاتحاد على تحقيق الأهداف الآتية:

١ ـ السعى لتقرير حقوق المرأة الدستورية والنيابة عن الأمة لتمكنها من الدفاع عن التشريع الذى يكفل هذه الحقوق.

٢ ـ الدعوة الى نشر الخدمات الثقافية والصحية والاجتماعية بين الأسر المصرية الفقيرة والمحرومة والمساهمة فيها وإلى نشر الصناعات الصغيرة بين الأسر الفقيرة لزيادة دخلها.

٣ ـ الدعوة عن طريق المجلات والصحف والمحاضرات والإذاعة إلى العناية بشئون الأسرة وعلى الأخص الأمومة والطفولة واتخاذ جميع الوسائل التى تحقق حمايتها وعونها.

مطالب المرأة
على كل لسان

وكان طبيعيًا أن تبدأ القيادة الجديدة للحركة النسائية نشاطها بتنظيم «القاعدة» التى ترتكز عليها فى المطالبة بحقوق المرأة السياسة، فمضى «اتحاد بنت النيل» ينشر دعوته بين السيدات المصريات، من جميع الطبقات، فأخذن فى الانضمام إليه، وبدأت شعبة الفرعية تتألف هنا وهناك، وكانت فى مقدمتها بالطبع شعبة الإسكندرية برئاسة الزميلة ألفت السلانكلى.

فلم تمض سنة واحدة حتى أصبح اتحادنا قوة شعبية يعمل لها ألف حساب، وشهد ذلك العام ـ عام ١٩٤٩ ـ أكبر حملة للمناداة بحقوق المرأة السياسية.. لقد اتصل الاتحاد بكل الكتاب الأحرار الذين يناصرون قضية المرأة، وحشد جميع الكفايات فى هذه الحملة، ونظم فى الصحف ذلك الاستفتاء الكبير فى قضيتها بين جميع قادة الفكر فى البلاد، وفى طليعتهم الدكتور على ماهر، والسادة لطفى السيد، وعلوبة وغيرهم من الفقهاء والعلماء والساسة، وأصبحت «مطالب المرأة» هى موضوع الساعة بالنسبة لكل الصحف والمجلات، المصور توفد النجمة السينمائية راقية إبراهيم فى ٢٨ إبريل لتسأل الأستاذ الدكتور طه حسين عن رأيه في هذه المطالب ومجلة الإثنين تتطلع إلى المستقبل فتؤلف وزارة من النساء فى عددها الصادر فى ٢٣ مايو فترشح حرم بهى الدين بركات للمالية، ومنيرة صبرى للداخلية، وانصاف سرى للمعارف وسنية عنان للخارجية، وحرم عبدالحميد سليمان للدفاع، ودرية شفيق للدعاية. (بالنسبة لنجاح دعايتها فى قضية المرأة!) والحاج بابا سرى شيخ تكية المغاورى يتحدث إلى بعض الصحف فلا ينسى أن يسجل تأييده لحقوق المرأة السياسية تدليلا على عدم تعصبه أو تزمته أو ضيق أفقه.. والأساتذة سلامة موسى يكتب، وزكى عبدالقادر يكتب.. وفكرى أباظة مع أسماء فهمى يناظران عبدالله أباظة والدكتور محمد عوض محمد فى الاتحاد الثقافى فى موضوع

مطالب المرأة!.. ويصرح رئيس وزراء سابق يوم ٢٥ أغسطس فيقول «بإعطاء المرأة حق الانتخاب للنساء لأن نصف الأمة لايزال مشلولا - معطلا عن أداء هذا الواجب الوطنى».

ويتردد صدى هذه الحملة الواسعة فى خارج مصر أيضا فترسل خمس من الأمريكيات المشتغلات بالمسائل العامة هن مسز سامبسون مندوبة اتحاد الزنجيات، ومسز داى، ومسز ستراوس ورئيسة جمعية الناخبات، ومسز والترهوايت ومس ساديا ستوفسكى عن رابطة الجامعيات بأمريكا، ويرسلن تأييدا حارا لقضية المرأة المصرية فينشر فى مصر يوم ١١ أغسطس وتكتب مندوبة البورص إجيبسيان مقالا لمجلة الحياة فى بيروت فتقول «لقد أعلنت درية شفيق حربا صاعقة على الأمية بين النساء، وكانت نتيجة هذه الحرب أن تقرر فتح ثمانى عشرة مدرسة حرة ومجانية فى جميع انحاء مصر لتعليم النساء القراءة والكتابة وسيتم التعليم فى مدة ثلاثة اشهر بفضل طريقة جديدة، وفى هذا قالت لنا درية شفيق «فى كل مكان كنت أسمع معزوفة واحدة مؤداها أن نساء الطبقة العامة فى مصر لسن متعلمات كفاية ليدركن قيمة الحقوق السياسية وأخيرا ضاق ذرعى بهذه الحجة فقررت أن أعمل لإزالتها».

هكذا مضى عام ١٩٤٩ كله، والناس لا يتحدثون إلا عن مطالب المرأة المصرية وحقوقها، حتى أن الصحف كانت تنشر آراء المعارضين والمؤيدين صباح مساء، مما جعل الأستاذ عباس محمود العقاد يتساءل فى مقال له نشر يوم ٢٨ مارس: لا أدرى ما هى المناسبة التى دعت إلى نشاط حركة المطالبة بإعطاء حقوق الانتخاب والنيابة؟..

ويتسى الأستاذ المناسبة وهى ظهور قيادة الحركة النسائية الجديدة.. تأليف اتحاد بنت النيل، وما بدأ يقوم به من نشاط مباشر وغير مباشر.. على المسرح أو من وراء الستار، لقد كان هدفه السريع أن يبدأ نشاطه بحملة، بأكبر حملة للدعاية لمطالب المرأة السياسية.. حق الانتخاب، وحق الترشيح، وحق تولى جميع الوظائف، وجميع المناصب، ليشتركن فى تقرير مصائرهن ومصائر بلادهن، باعتبارهن نصف هذا الشعب، بل أكثر من نصفه!

وبدأت جميع الهيئات فى الداخل والخارج تعترف بالقيادة الجديدة، فمن حسن الحظ أننا حرصنا على تسجيل «اتحاد بنت النيل» فى يونيه ١٩٤٨ فى المجلس النسائى الدولى، وفى ديسمبر حضرت مندوبة عنه فى مؤتمر باريس الخاص بدراسات الأمية، واستطاع أن يثبت وجوده فى مجال العمل على مكافحة الأمية.. ثم مضى الاتحاد ينضم

إلى كثير من الهيئات النسائية الدولية، فى مختلف التيارات التى تمثلها أو تسيطر عليها، إذ كان هدفه الأكبرمن ذلك أن يربط كفاح نساء مصر بكفاح نساء العالم أجمع، وكان لهذا الموقف الحيادى الذى أبداه اتحادنا إزاء تلك المنظمات النسائية الدولية كلها أثره البعيد فى اهتمام العالم بأسره بقضية المرأة المصرية، ومنحها رعاية خاصة فى الجهود النبيلة التى تبذل لمساعدتنا فى كل المحافل، والمؤتمرات، والصحف الحرة فى كل أنحاء العالم، وهو ما سأعود إليه بالتفصيل..

وبعد فقد استطاع «اتحاد بنت النيل» وحده فى عام ١٩٤٩ أن يقيم الدنيا ويقعدها حول حقوق المرأة المصرية التى طال عليها الأمد ولكنه لم يشأ أن يبدأ بأية خطوة سياسية إيجابية قبل أن يستكمل هذه الحملة، وقبل أن يستلفت إليه الأنظار بوصفه القيادة الجديدة للنساء المصريات، وكانت الجهود الإيجابية التى بدأها فى ذلك العام لا تتصل بالسياسة اتصالا مباشرا، وأعنى بها مكاتب مكافحة الأمية التى انتظمت فيها مئات بل آلاف المصريات الشعبيات اللاتى أصبحن بعد تخرجهن جنود الصف الأول فى جيش التحرير النسائى فى مصر.

اقتحمنا البرلمان
ولم نعبأ بالرصاص

كان ذلك بعد ظهر يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٥١.

وكانت السيارة قد أخذتنى من البيت لتوصلنى إلى مكتبى فى إدارة بنت النيل، ولكننى قلت للسائق ونحن فى منتصف الطريق:

ـ اذهب بنا إلى دار البرلمان..

ولم تمض سوى لحظات حتى كنت هناك، وسألنى السائق: هل نقف هنا؟

قلت: له: بل لف حوله أولا...

ودهش السائق، ولكنه ظل يطوف حول دار البرلمان، وأنا أعيد عليه الطلب، ثم دخلت من الباب الخلفى ـ باب الشيوخ، وعاينت المبنى تماما، ودرست جميع أبوابه ومسالكه... وكل هذا والسائق يعبر عن دهشته بعينيه ويخجل أن يسألنى عن السبب، ولعله ظل إذ ذاك لا يفهم شيئًا أكثر من أننى أتفرج على البرلمان لا أكثر، ولا أقل.

لم يعرف السائق أننى كنت أقوم بعملية استكشاف، تاريخية، قبل أن ننفذ الخطة التى عرضتها على مجلس إدارة «اتحاد بنت النيل» قبل ذلك بثلاثة أو أربعة أيام، وظفرت فيها بالموافقة... ولم تكن تلك الخطوة شيئًا سهلا فقد أخرجت المصحف وقلت لزميلاتى سرا لا تبوح به إحدانا لأحد، مهما كان عزيزا عليها، حتى لو كان زوجها أو والدها أو أمها، فلنثبت أن السيدات لسن أقل من الرجال فى كتمان السر!!

وأقسمت الزميلات على المصحف... وبدأت أشرح خطتى فى ضرورة إقتحام دار البرلمان بجيش من النساء يعتصمن فيه ويرفضن الخروج قبل الاعتراف لهن بحق الاشتراك فيه، ليكون برلمانا شرعيا يمثل الشعب كله ـ بجنسيه ـ تمثيلا حقيقيا سليما...

وقلت: إن الخطة التى أراها هى أن نعقد مؤتمرا نسائيا فى قاعة يورت ـ لقربها الشديد من دار البرلمان ـ ولكن دون أن نذكر شيئًا عما نعتزم القيام به، ويكفى ان نعلن فقط أنه مؤتمر لمناقشة مطالب المرأة...

وقلت: إن هذا الموقف التاريخى ينبغى ألا ننفرد بشرف تنفيذه، ولكن إخلاصنا لفكرتنا يحتم علينا أن ندعو إلى هذا المؤتمر جميع الهيئات النسائية الأخرى، مهما كان موقفها منا، أو ماضيها معنا... يجب أن ننسى كل خلافاتنا فى هذه المناسبة الخالدة، لنكون صفا واحدا وكلما أحس الرأى العام باتحادنا وتضامننا، كان أكثر احتراما وتقديرا لنا... وكان بالتالى، أكثر استجابة لمطالبنا!

ولم يكن الأمر يحتاج إلى وقت طويل. فالمؤتمر المذكور كانت فكرته موجودة، وكانت الدعاية له تقوم على قدم وساق منذ أكثر من شهر.. وكل المطلوب هو أن يتحول من مؤتمر لبحث مشاكل المرأة، إلى نقطة تجمع لبدء الزحف النسائى لاستخلاص مطالب المرأة!

وخرجت أعضاء مجلس الإدارة من الاجتماع، وقد بلغت حماستهن للفكرة وإيمانهن بها درجة الغليان فانطلقت كل منهن تدعو صديقاتها وزميلاتها إلى حضور مؤتمر مشاكل المرأة فى قاعة يورت فى تمام الساعة الرابعة من مساء يوم الاثنين ١٩ فبراير، لمعرفتنا أن الجلسات البرلمانية تنعقد فى الساعة الخامسة مساء من كل يوم اثنين.

وبقيت طوال ذلك الأسبوع بين الخوف من تسرب هذا السر، أو من فشل المؤتمر.. وبالتالى من فشل الخطة كلها، وبين الأمل فى الانتصار والحق أن كفة التفاؤل كانت هى الأرجح فى نفسى، وكان إيمانى العميق بزميلاتى وبنفسى وبعدالة قضيتنا... كان ذلك يرفعنى إلى العمل بمنتهى النشاط لهذه الساعة المرتقبة...

وجمعت فى الليلة السابقة للمؤتمر بعض فتيات الاتحاد الفنانات وكلفتهن بكتابة لافتات ضخمة تحمل بعض الشعارات... المرأة نصف المجتمع، لا برلمان بلا نساء، يسقط البرلمان بدون نساء!

وكلفت إحدى الأعضاء التى تنتسب إلى أسرة برلمانية عريقة بإحضار ٢٠ تذكرة لحضور جلسة البرلمان فى اليوم التالى ـ يوم المؤتمر ـ وهو فى نفس الوقت يوم الاثنين الذى يعقد فيه البرلمان جلساته كل اسبوع!

وجاء اليوم المحدد... وحانت ساعة العمل، فما كادت الساعة تدق الرابعة مساء حتى غصت قاعة يورت بأكثر من ألف سيدة ومئات من انصار المرأة من الرجال الاحرار والصحفيين... ولم يكن بين الجميع من يعرف شيئًا عن خطتنا سوى أعضاء مجلس إدارة الاتحاد، اللاتى حفظن السر فلم يتسرب الخبر إلى البوليس، أو الصحف أو جمعية «شباب محمد» مثلا التى كانت تهاجمنا ليل نهار!!

وبدأ المؤتمر وصعدت إلى المنبر، وأنا أشعر باندفاع وقوة هائلة تهزنى من أعماقى... لعلها القوة التى كنت أستمدها من حماسة تلك الجموع الحاشدة لأقدم وأوضح قضية.. قضية الحرية والمساواة لنصف الشعب.

أول برلمان نسائى

وألقيت الكلمة التالية، أسجلها هنا بالنص:

إن هذا المؤتمر الوطنى الذى يضمنا الآن ـ نحن نساء الشعب.. نحن اللاتى نشارك حقيقة وفعلا آباءنا، وأزواجنا وأخواتنا، وأبناءنا، الجهاد اليومى فى الحياة.. .

«نحن اللائى ساهم الرعيل الأول منا، فى شجاعة وإيمان وتضحية، مع الرجال، فى حركات التحرير ضد الاستعمار فأيدن مصطفى كامل، ومحمد فريد، وساهمن فى عام ١٩١٩، بزعامة سعد زغلول فى كفاح شعبى من أجل الحرية والاستقلال والدستور، واختلط دم الشهداء الرجال بدم الشهيدات من النساء.

«نحن اللائى نريد أن ننطلق، فى تعاون وإخلاص، مع المواطنين الرجال، فنكافح على نفس الطريق من أجل استكمال حرياتنا وسعادتنا واستقلالنا وسلامتنا جميعا.

«نحن نصف الأمة ـ نصف القوة.. نصف الحياة.. ولقد بلغنا من الوعى القومى ما يجعلنا نعتبر إقصاءنا عن الاشتراك فى أجهزة السلطات الثلاث، حرمانا لبلادنا من نصف طاقتها الحيوية الإنتاجية..

نحن نريد حرية لنا وللجميع..

نحن نريد سعادة لنا وللجميع..

نحن نريد سلاما لنا وللجميع..

نحن نريد عدلا لنا وللجميع..

نحن نريد عملا لنا وللجميع..

نحن نريد مسئولية لنا وللجميع..

نحن نريد مساواة لنا وللجميع..

ومن مجموع هذه الإرادات أقترح أن تكون قراراتنا اليوم كما يأتى:

«أولا - العمل فورا على تعديل قانون الانتخاب على وجه يحقق حصول المرأة المصرية على كامل حقوقها السياسية التى كفلها لها الدستور...

«ثانيا - العمل فورا، على إصدار التشريعات اللازمة: لحماية الأم والزوجة، وضمان استقرار الحياة العائلية، خصوصا ما تعلق منها بتقييد حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات..

«ثالثا - تقرير المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة فيما يتصل بحرية العمل وظروفه وخصوصا فيما يتعلق بالمساواة فى الأجر..

سيداتى آنساتى:

«إن هذا المؤتمر هو برلماننا الأول.. برلمان نصف الأمة، ومن حسن الحظ، أنه ينعقد فى نفس الوقت والجهة التى ينعقد فيها برلمان النصف الآخر.. فهيا نذهب بجموعنا الفتية لنعلن إليهم فى عزم وقوة وتصميم، أن تمثيلهم للشعب، تمثيل ناقص مبتور، إن لم ينضم إليهم، ممثلات لنا، فيكون التعبير عن مصالح الشعب وآلامة وآماله تعبيرا صادقا أمينا..

«فإلى هناك.. إلى الأمام..!»

إلى الأمام... إلى الأمام..

وكأننى القيت قنبلة، فما كدت أفرغ من إلقاء الكلمة حتى تفجرت حماسة المدعوات وانطلق على ألسنتهن هتافات مدوية بعدالة قضية المرأة، ولكننى كنت حريصة على أن نوفر هتافاتنا حتى نصل إلى باب البرلمان بالفعل.. وخرجت الجموع الحاشدة لتفاجأ

بالأعلام التى أعددناها سرا قد رفعت، واللافتات التى كتبناها فى الليلة الماضية قد حملت..

واتجهنا إلى دار البرلمان ومعى زميلاتى أعضاء بنت النيل أذكر من بينهن: السيدة وصيفة شكرى والسيدة أسماء فهمى والسيدة نادر صبور والسيدة سنية عنان والسيدة زينب لبيب والسيدة زينب نور والسيدة هيام الشريف والسيدة سميحة ماهر والسيدة عزيزة رضوان والسيدة ليزا ميلاد والآنسة روحية القللينى والسيدة درية جمعة والسيدة أمينة رشاد..

الأمر بإطلاق النار

وسار الزحف النسائى إلى البرلمان..

وهناك عند الباب الرئيسى للدخول كانت إحدى الزميلات قد وقفت لتنفذ التعليمات التى صدرت إليها، وهى إعطاؤنا الإشارة إذا فتح الباب. ولم يكن الباب يفتح إلا عند حضور أحد النواب أو الشيوخ، ولا يكاد يفتح حتى يغلق من جديد، ومن هنا أصبح المطلوب هو انتهاز هذه اللحظة الخاطفة لنهجم!

وفى نفس الوقت كان ثمة فريق آخر من زميلاتنا قد سبقننا فحملن تصريحات الدخول واحتللن شرفات الزائرات لإلقاء ما أعددناه من المنشورات على حضرات النواب المحترمين.!

ووقفنا بجموعنا وأعلامنا عند منحنى الطريق فى صمت، فما كان النائب المحترم الأستاذ فريد زعلول يقترب بسيارته حتى فتح الباب، وفى نفس اللحظة لوحت لنا الزميلة بإشارة الهجوم فقطعنا المسافة عدوا، وألقينا بأجسامنا على سيارة النائب المذكور، وارتبك الحراس الواقفون.. وانطلقت صفارتهم طلبا للنجدة، وأقبل قائد الحرس يهدد، وصوبت البنادق إلى صدورنا وحذرنا من اقتحام الباب بالقوة وإلا فإن الرصاص سوف يصرعنا جميعا..

وصرخت فى قائد الحرس إذا أطلقت رصاصة واحدة فإنك ستحكم على نفسك بالإعدام..

ولا أدرى كيف ولماذا قلتها، ومع ذلك فقد فزع الرجل وتراجع، بينما اندفعنا نحن إلى الداخل فاستطاع نصفنا أن يتسرب إلى الفناء الداخلى، بينا بقى النصف الآخر يتجمع وراء الأسوار..

وانطلقت الهتافات من الداخل والخارج فى وقت واحد وبدأ الإجراء الثانى للقوة الغاشمة فأغلقت الأبواب الداخلية فى وجوهنا ولكن الزميلات المتحمسات أخذن فى دقها بقوة، وانطلقت بعض الاقتراحات العنيفة بتحطيمها وبتمزيق إطارات مئات السيارات المحتشدة فى الفناء ولكنى أمهلتهن ريثما نتفاوض مع رئيس الحرس بالتى هى أحسن!

وأسفرت المفاوضات عن السماح لوفد منا بالدخول لصعوبة وخطورة هجوم الخمسمائة سيدة على القاعات الداخلية، فدخل ثلاثة منا هن.. السيدتان سيزا نبراوى وزينب لبيب وأنا، وطلبنا مقابلة رئيس مجلس النواب، فاستقبلنا وكيل المجلس - الأستاذ جميل سراج الدين فى مكتبه معتذرا بعدم وجود الرئيس، ولعله آثر الهروب من مظاهرتنا فقصدنا إلى مكتب رئيس الشيوخ، وطلبنا مقابلته، ولم يكن موجودا هو الآخر لمرضه، فاتصلت به تليفونيًا فى منزله وقلت له.. إننى أتحدث إليك من مكتبك بمجلس الشيوخ، وتوجد هناك ألف سيدة يعتصمن بالبرلمان ويرفضن الخروج منه، قبل أن يأخذن وعدا قاطعا صريحا بالاعتراف بحقوقهن الانتخابية كسائر المواطنين..

وأذهلت المفاجأة الرئيس الدكتور على زكى العرابى وناشدنى العمل على تهدئة الحالة ودعوة المعتصمات إلى الانصراف، بعد أن أعطى كلمة شرف بأنه سيبذل المستحيل فى سبيل تحقيق هذه المطالب، العادلة، وقال: إنه من رأيه أن الدستور يبيح للمرأة حقى الانتخاب والترشيح وأن له مذكرة فى هذا المعنى، ولكنه سيجدد محاولته، فإذا كنا نثق فى شرفه فعلينا أن نعتمد عليه وننصرف، فقلت له: اذًا فلتكن حركة اليوم إنذارا فإذا لم تحققوا وعودكم لنا فإن لنا عودة إلى العمل الإيجابى، وبأسلوب قد يكون أكثر قوة من هذا الأسلوب.

فخرجت أعلن للزميلات نص هذا الحديث.. وتعالت الهتافات مرة أخرى، وعادت المتظاهرات حوالى الساعة العاشرة مساء إلى دار اتحاد بنت النيل يتبادلن التهانى

والقبلات بما أحرزناه من نصر.. ولم يكن النصر الذى نعنيه هو الوعد الذى قطعه رئيس الشيوخ على نفسه، كلا، بل هو النصر الذى تجلى فى نجاح خطتنا.. فى تحقيق أول هجوم نسائى.. أول حركة إيجابية تشترك فيها جميع الهيئات التى تمثل نساء مصر على اختلاف ميولهن وآرائهن..

وفى اليوم التالى، كانت صحف مصر.. بل كانت صحف العالم أجمع تروى قصة هذا الزحف النسائى الأول من نوعه.

وكيل النيابة
يشيد بالمتهمة

وفى اليوم التالى لانتصارنا فى اقتحام البرلمان بجموع النساء المصريات اللائى يمثلن جميع الهيئات والمنظمات النسائية.. وبينما صحف العالم كله تتحدث عن ذلك الحدث التاريخى، وتقول إنه كان مفاجأة أذهلت الجميع، وأثارت عطف الكثيرين.

فى ذلك اليوم فوجئت بإخطار من نيابة عابدين، تدعونى فيه لحضور التحقيق الذى سيجرى معى!

وفى النيابة عرفت أن التحقيق يدور حول المظاهرة التى توليت قيادتها بالأمس.

وسئل السيد (سقراط ينى) الموظف المشرف على قاعة «يورت» أولاً: كيف سمح لنا بعقد اجتماع دون تصريح من الجهات المختصة.. وقال الموظف - كما ذكرت جريدة آخر لحظة فى عددها الصادر يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٥١ - أنه رأى صورة كبيرة للمغفور لها هدى هانم شعراوى فى صدر القاعة فظن أن المقصود هو إقامة حفل تأبين لها!

ثم دعيت لاستجوابى فقررت أننى المسئولة الوحيدة عن كل ما حدث وأن المظاهرة قد دبرت قبل دخولنا القاعة ونفذت بعد خروجنا منها فلا مسئولية مطلقًا على ذلك الموظف ولا على أصحاب القاعة، وسألنى المحقق وكيف أعقد اجتماعًا بدون تصريح؟ فقلت إنه اجتماع خاص بالهيئات النسائية. وهو غير الاجتماعات العامة التى نص القانون على ضرورة إخطار السلطات بها!

ثم سألنى ـ وكيف أنظم مظاهرة بدون إخطار مع تعارض هذا مع القانون..؟ فقلت إنها لم تكن مظاهرة بالمعنى الذى قصده القانون، بل كانت وفدًا يمثل نصف الأمة، وقد ذهب يرفع صوته لممثلى النصف الآخر.. أعضاء البرلمان!

ولم يقتنع وكيل النيابة المحقق بهذا المنطق وقرر تقديمى فورًا إلى محكمة جنح عابدين بتهمتين ـ التظاهر وعقد اجتماع بدون ترخيص.. وجاءنى إعلان بالجلسة فرفضت استلامه لوصوله بعد الموعد القانونى الذى يحتم إخطارى بموعد الجلسة قبلها بثلاثة أيام على الأقل، وعلى ذلك قررت المحكمة ـ فى غيابى ـ تأجيل نظر القضية من يوم ٥ مارس إلى يوم ١٠ أبريل.

وفى ذلك اليوم احتشدت محكمة عابدين بمئات السيدات اللائى حضرن قضية تعتبرها كل واحدة منهن قضيتها الخاصة.

وكان عشرات المحامين والمحاميات قد أبدوا تطوعهم للدفاع عنى، وقد حضر عدد كبير أذكر منهم المحاميات الأستاذة مفيدة عبدالرحمن والآنسات ليلى تكلا وكوكب إلياس ونرجس نصيف.

وعقدت الجلسة فأعلن الرئيس فى بدايتها أن قضيتى رقم ٣١ ستنظر فى الساعة الثانية عشرة تمامًا، ولذلك يطلب إلى السيدات الحاضرات الانصراف حتى يحين موعدها.

وفى الموعد المحدد أراد القاضى أن ينظر القضية فى جو هادئ فأرسل يطلب «المتهمة» والمحامين فى حجرة المداولة، ولكن السيدات ما كدن يعرفن ذلك حتى اقتحمن حجرة المداولة أيضًا وملأنها عن آخرها..

ووقف الأستاذ يحيى راشد ممثل الاتهام وقال بالحرف الواحد: «إن النيابة العمومية تطلب تأجيل الدعوى إلى أجل غير مسمى، حيث يعتقد أن الدكتورة درية شفيق وهى عضو عامل فى الهيئة الاجتماعية لن تعود إلى ارتكاب ما يؤخذ عليها قانونًا».

وصفق البعض للمفاجأة، ولكن زميلتى الأستاذة مفيدة عبدالرحمن المحامية وقفت ترفض «عفو» النيابة قائلة: إن طلب النيابة تأجيل الدعوى لأجل غير

مسمى ظاهره فى مصلحة الدكتورة درية شفيق، ولكن الذى يهمنا هو الحصول على شهادة لتبرئتها لأن التهمة غير ثابتة فقد قامت الدكتورة درية شفيق بالإبلاغ عن اجتماعها بدليل أن الصاغ نجيب بسيونى حضره وأحاط المكان بجنوده، ومعنى هذا أنه كان يعلم كل شىء عن هذا الاجتماع.

وعادت مفيدة تقول: «إن الدكتورة درية شفيق يهمها أن تتم هذه المحاكمة وفورًا حتى تثبت للعالم كله براءتها من تهمة الخروج على القانون».

وهنا قرر الرئيس رفع الجلسة على أن يصدر الحكم فى طلب التأجيل بعد المداولة.. ولما عادت الجلسة للانعقاد نطق سيادته بالحكم وهو يقضى بتأجيل القضية إلى أجل غير مسمى..»

وهنا خرجت السيدات فى «مظاهرة» جديدة لم أكن أنا الداعية إليها فى هذه المرة. خرجن فى مظاهرة دعتهن إليها حماستهن وفرحتهن بهذا الانتصار.. نعم فقد اعتبر موقف النيابة مشاركة جديدة فى العطف على الحركة النسائية!

وقصدت المظاهرة إلى دار اتحاد بنت النيل، حيث أخذت الزميلة زينب لبيب توزع «الشربات» عليهن ابتهاجًا بهذا النصر الذى جعل النيابة ـ لأول مرة ـ تشيد بالمتهم.!

ولاأريد أن أتحدث هنا عن صدى هذه المحاكمة، بعد صدى المظاهرة نفسها، وحسبى ما قالته مجلة آخر ساعة فى ذلك الوقت من أنها انتهزت هذه المناسة وسألت عددًا من رجالات مصر فقال مكرم عبيد بالحرف الواحد (قلت دائمًا ولسوف أقول دائمًا إننى فى صف المرأة المصرية.. ولماذا نعطى الرجل الجاهل حق التصويت ولا نعطيه للمرأة؟ ولماذا تصبح المرأة فى الهند سفيرة ووزيرة ولا نسمح لها فى مصر بهذا الحق.. إن ما فعلته المرأة اليوم هو الكفاح.. وما أنجح الكفاح!»

وقال المرحوم «محمد محمود خليل» كيف توجهون سؤالاً كهذا.. إن ما فعلته المرأة شىء طبيعى أنا موافق عليه ألف مرة، فأنا لست إنسانًا بدائيًا ـ ثم إن الدستور لا يمنع ولا يفرق ونحن لم نعد فى عصر تهمل فيه المرأة وكل ما أستطيع

أن أقوله هو أن المرأة لم تعد تطيق حرمانها من حقوقها فانفجرت، وهكذا يفعل الجائع عندما يمر على مخبز، إنه يحطم الباب ليحصل على رغيف الخبز «وقال السيد أحمد علوبة» لقد تقدمت بمشروع لمنح المرأة المتعلمة حق التصويت، وما زال المشروع فى مجلس الشيوخ لم يبت فيه حتى الآن، وتقدمت بمشروع لتقييد حق الطلاق رفضته لجنة العدل فى الشيوخ، وما زال أيضًا معلقًا إلى هذه اللحظة»!

وقد ختمت المجلة تحقيقها الصحفى بهذا الخبر، قالت:

وفى صباح اليوم التالى فتحت درية شفيق عينيها على خطاب من قرينة سفير الهند فى القاهرة كانت السيدة تعتذر عن عدم حضورها لمرضها، وقالت: وكل ما أستطيع أن أقوله هو «برافو».. إن الله يساعد الذين يساعدون أنفسهم»!

المصريات
يحملن البنادق

فى سبتمبر سنة ١٩٥١ قررنا أن نثبت حقيقة مهمة تلك هى أننا لا نطلب حقوقًا متساوية فى مقابل لا شىء.. كلا، بل إننا ندعو لمساواة عادلة، تقوم على أساس المساواة فى الواجبات أيضًا!

أردنا أن نؤكد أن المرأة لا تتردد فى القيام بكل ما يلتزم به المواطنون من الرجال.. إننا ندفع الضرائب كما يدفعونها، ونعمل كما يعملون ـ فى شتى الميادين ـ فلماذا لا نساهم أيضًا فى الدفاع عن أرض الوطن..؟

إن قانون التجنيد يحرمنا من شرف الجندية، ويعزلنا عن جيش البلاد، ولكن ما الذى يمنعنا من أن نؤلف الكتائب التى تقوم بواجبها الوطنى فى حرب العصابات التى تدور رحاها هناك.. فى منطقة القنال؟

صحيح أن الذين يشرفون على تأليف الكتائب لم يوجهوا إلينا الدعوة، ولم يفكروا أبدًا فى إشراك النساء معهم فى هذا الشرف، مع ما تستطيع أن تؤديه المرأة فى مثل تلك الحروب العصابية بالذات.. ومع ذلك فلماذا لا نبدأ نحن؟ لماذا لا نفرض أنفسنا أيضًا على هذا الميدان النضالى، كما فرضناه على ميادين العلم، والعمل، والخدمة الاجتماعية.. وكما فرضنا أنفسنا وأثبتنا وجودنا فى الحركة الوطنية من أيام مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول؟

إن المرأة المصرية يجب ألا تنتظر بعد اليوم، بل عليها أن تحتل مكانها فى كل ميدان معتمدة على نفسها، وعلى إيمانها بحقها.. **لا أكثر ولا أقل!**

ولهذا يجب أن نشرع فى تأليف كتائب النساء لتنافس كتائب الرجال فى أشرف وأنبل وأعظم سباق.. سباق الموت من أجل الحرية.

ولم أكد أوجه الدعوة، حتى تألفت الكتيبة الأولى ـ كتيبة بنت النيل ـ من مائتى متطوعة، أكثرهن من فتيات اتحاد بنت النيل، وقد اخترن لهن زيًا للتدريب والميدان، وآخر للاستعراضات الوطنية التى قصدنا بها رفع معنوية الشعب، وإلهاب شعوره الوطنى..

وبدأت فتيات الكتائب تدريباتهن فى المعسكر الخاص الذى أقيم فى العباسية، وكان الضباط الذين يمرنونهن على إطلاق النار، وعلى فنون الحرب فى الشوارع وفى الصحارى، يشيدون ببراعتهن ووطنيتهن واستعدادهن الجاد للتضحية بأرواحهن فى سبيل الوطن..

ولم يلبث أن أصبح لدينا بعد شهور قليلة جيش احتياطى من بنات النيل الباسلات العظيمات.. وما كان أروع هذا الجيش النسائى وهو يتصدر المظاهرات الوطنية، ويتصدر حركات المقاطعة الاقتصادية، وأخيرًا وهو يسافر إلى القنال ليؤدى واجبه، حتى لا ينفرد الرجال بشرف الكفاح، وفخر الاستشهاد!

عشرة آلاف مصرية
فى جنازة الشهداء

وجاء شهر نوفمبر من ذلك العام المبارك - ١٩٥١ - والهيئات السياسية جميعًا تتأهب للاحتشاد فى مظاهرة صامتة تعبر بها عن احتجاجها على الاعتداءات البريطانية فى منطقة القنال.. مظاهرة صامتة نعلن فيها الحداد على ذكرى الشهداء الأبرار الذين جندلهم رصاص الإنجليز فى الإسماعيلية والسويس.

ومرة أخرى وجدت القوم يتجاهلون المرأة المصرية.. تلك الأخت التى لم تترك فرصة تمر دون أن تعبر لهم عن استعدادها لمشاركتهم البذل والتضحية من أجل الوطن الحبيب.

وتجاهلت التجاهل فى هذه المرة أيضًا، وقررت أن أتحرك لدعوة كل مصرية إلى الاحتشاد فى مظاهرة واحدة تمثل النساء المصريات على اختلاف هيئاتهن ومنظماتهن.

وبدأت فأخطرت المسئولين رسميًا بهذا الذى نعتزمه، فلم يكن الأمر يحتاج إلى تكتم بل كان الكل يتعاونون - حكومة وشعبًا - لتنظيم الصفوف وحشدها فى تلك المظاهرة، أو فى تلك الجنازة الصامتة كما كانوا يسمونها!

ورأيت لأهمية المناسبة، ألا نكتفى بنداء نوجهه على صفحات الصحف، قد يتوه فى زحمة عشرات النداءات الأخرى التى تزخر بها أعمدة الجرائد من شتى الطوائف والهيئات إن مظاهرتنا يجب أن تكون من الضخامة والنظام والروعة بحيث تكون عنوانًا على نساء مصر، وتعبيرًا دقيقًا عن قوتنا وتنظيمنًا ووعينا الجديد، وعلى ذلك طبعنا إعلانات حائط من الحجم الكبير، وأعددنا أربع

لافتات كبرى تحمل عبارة واحدة (أيتها المصرية انضمى إلى مظاهرة النساء المصريات) هذا إلى جانب ما رسمته فنانات اتحاد بنات النيل من لوحات لصور الشهيدات..

وحددنا مكانًا تتجمع عنده.. وهل هناك أنسب من شارع ضريح سعد حيث وقفت أول مظاهرة نسائية منذ أكثر من ثلاثين عامًا، تهتف بحق مصر فى الحرية والاستقلال؟

فليكن لقاؤنا إذن هناك عند ضريح سعد.. عند النقطة التى انتهت عندها مظاهرة الرائدات العظيمات اللائى سبقننا سنة ١٩١٩، ولنثبت هناك - من جديد - أن نساء مصر يتطورن دائمًا إلى الأمام..!

ومنذ الصباح، بدأت المصريات الوطنيات.. من السيدات والآنسات.. من المثقفات والعاملات، من الزوجات والموظفات.. بدأت تفد إلى المكان الذى حددناه عند ضريح سعد فما كاد جمعهن يلتئم حتى وقفن فى صفوف منظمة، تتقدمهن فرقة من كتائب بنت النيل بثيابهن الخاصة وبأعلامهن..

وكانت الترتيبات التى أعددناها تقضى بألا تزيد المسافة بين كل سيدة وأخرى عن نصف متر خوفًا من أن تتفرق بين مليون من المتظاهرين خرجوا فى ذلك اليوم الخالد يحيون ذكرى شهدائهم. ويعبرون عن تصميمهم على مواصلة نضالهم الباسل المجيد.

وتحرك موكب النساء المصريات يشترك فى الجنازة الوطنية الكبرى وكانت فرقة من الكتائب التى ألفتها قبل ذلك فى طليعة الموكب تتصدره فتستقبل بتصفيق لم أسمع له مثيلاً فى حياتى كلها.. إنها فرحة مصر - رجالها قبل النساء - بنهضة المرأة المصرية، هذا العملاق الذى حطم غطاء القمقم بنفسه، ليفاجئ المستعمرين والرجعيين بأن عدد الأبطال الذين يكافحونهم قد أصبح ضعف العدد الذى كان يكافحهم من قبل..

واخترقنا بموكبنا الحافل الرهيب شارع قصر العينى.. ثم شوارع مجلس النواب فالفلكى فعدلى.. حتى وصلنا إلى منتصف ميدان الأوبرا حيث تتجمع

الطوائف كلها عقب انتهاء طوافهم.. وكانت مئات بعد مئات يظهرن فجأة ويتسللن حتى يصلن إلى موكبنا للانضمام إليه، حتى لقد قدر عدد المشتركات فى تلك المظاهرة بأكثر من عشرة آلاف سيدة وآنسة.

وكان لابد ـ فى غمرة هذا الانتصار ـ من حادث يسلي عن نفوسنا إذ ذاك، ولم يكن ذلك الحادث سوى انسحاب الجمعية التى تسمى نفسها «شباب محمد» وعدم اشتراكها فى مظاهرة الوطن الكبرى.. انسحبت حرصًا منها على الدين ومكارم الأخلاق، كأن الدين ومكارم الأخلاق يمنعان الناس من أن يكونوا وطنيين، وأن يعبروا بكل وسائل التعبير ـ عن تضامنهم فى الكفاحَ.

المرأة
والتحرر الاقتصادى

كانت المتطوعات فى كتائب بنت النيل يلتهبن حماسة، ولكن كثيرًا من الأسر رفضت أن تسافر بناتهم إلى جبهات المقاومة فى القنال، وخشيت أن تندفع بعضهن فى تيار حماستها فتسافر على غير إرادة ذويها، وتضاف إلى قائمة الاتهامات التى توجهها إلى العناصر الرجعية تهمة تحريض الفتاة المصرية على التمرد على أسرتها!

وخشيت أكثر من هذا أن تتبدد هذه الحماسة وتنطفئ شعلتها، فيكون فى ذلك خسارة كبرى على وطن هو أحوج ما يكون إلى أن تبقى جذوة الوطنية فى قلوب بنيه حية ومتوهجة، ففكرت فى فتح جبهة ثانية للمعركة الوطنية.. هنا فى القاهرة!

ولم لا؟.. إن قصر المعركة على مدن القنال لا معنى له، وفى وسعنا أن نضاعف من ارتباك المستعمرين إذا عرفنا كيف ننقض عليهم ونطبق من جميع الجهات، وما دامت «بنت النيل» تدعو لمقاطعة البضائع الإنجليزية فلماذا لا نشرف على تنفيذ هذه المقاطعة بأسلوب الكتائب..؟ لماذا لا ننفذ المقاومة السلبية ولكن بطريقة إيجابية.. ثورية؟..

ولم أضيع الوقت فانتهزت فرصة وجود أغلب أعضاء اتحاد بنت النيل فى إحدى محاضراتنا، ودعوتهن إلى جلسة غير عادية، شرحت لهن خلالها فكرتى، واقترحت عليهن أن نعهد بتنفيذها إلى لفيف من الفدائيات المتطوعات فى الكتائب، على أن أكون معهن.

وقررنا فى هذه المرة أيضًا اعتبار الخطة سرًا لا يجوز لإحدانا أن تذيعه حتى لا يتخذ القوم احتياطهم.. وكانت هذه الخطة التى اقترحتها للتعبير عن مقاطعتنا الاقتصادية للمستعمرين، هى محاصرة «بنك باركليز» ومنع التعامل معه لمدة ٢٤ ساعة!

وبرهنت السيدات المصريات من جديد على أنهن يحفظن السر !!

وفى ذلك اليوم - يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٥٢ - رابطنا - زميلاتى الفدائيات وأنا - أمام بنك باركليز بشارع قصر النيل.. فى نفس الدقيقة التى فتح فيها البنك أبوابه ليستقبل العملاء.

لقد منعنا دخول العملاء البنك ولكننا حرصنا على تسهيل الخروج لمن يريد الخروج بترك البنك.

ولم تمض لحظات حتى اكتظ الشارع حولنا بالجماهير المتحمسة.. وكان العملاء يعودون أدراجهم بمجرد أن نصدر إليهم الأمر بعدم الدخول.. بعضهم عن وطنية واقتناع، وبعضهم عن تسليم بالأمر الواقع وخوفًا من الجماهير التى تجمعت لتعلن تضامنها مع كتيبتنا فى هذه الحركة الوطنية...

فى ساعة واحدة تكهرب الجو، وبلغ من حماسة بعض الشبان الوطنيين أن أحضروا الميكرفونات ليشرحوا فكرة المقاطعة الاقتصادية للمارة الذين كانوا يسألون عن هذا التجمهر.. وحاول محضر محكمة عابدين أن يدخل ليوقع حجزًا فرفضت، ولما قال إن المسئولية ستقع عليه إذا لم ينفذ هذا الواجب فقلت له سجل فى محضرك إننى منعتك من التنفيذ بالقوة، وأنا أوقع لك على هذا المحضر!

وكانت تطورات الموقف تبلغ لوزير الداخلية أولاً بأول..

وجاءنى مأمور قسم عابدين، وحاول أن يقتحم الحصار فقلت له قف مكانك ولا تتقدم خطوة واحدة أكثر من ذلك!

ودهش الرجل وسألنى: كيف ذلك وهو ممثل السلطة التنفيذية جاء يتفاهم معى بالحسنى لفك هذا الحصار الذى يعطل حركة البنك، ويوشك أن يصبح شرارة لاضطراب الأمن فى العاصمة كلها.

وأخيرًا قلت للمأمور فى لهجة حاسمة: عد من فضلك ولا تجعلنى ألجأ إلى القوة.. ستكون أنت المسئول إذا اضطرب الأمن.

وعاد المأمور يقول: ولكن الأمن مسئول منى لا منك.. هذه وظيفتى أنا..!

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف وصلت إلى المأمور نجدة من بلوكات النظام.. لقد أرسلت إليه الحكمدارية أربعة لوريات تحمل نحو مائتى جندى ببنادقهم وهراواتهم.. وهنا قال المأمور ـ سوف نقبض عليكن إذا لم تنصرفن فورًا.

قلت له: اعتقلنا.. افعل ما تشاء وما تستطيع ولكنا لن نفك الحصار.

وهنا أصدر الرجل الأمر إلى جنوده بالقبض علينا فأودعنا أحد اللوريات ثم أصدر أمرًا آخر بالقبض على ٢٥ شابًا من المتجمهرين حاولوا التصدى لمنع اعتقالنا.. وكانت الساعة قد بلغت منتصف الثانية عشرة ظهرًا، وكنا قد تمكنا فى خلال تلك الفترة من منع عمليات قدرت بـ ٣٤ ألفًا من الجنيهات!

وأودعنا جميعًا قسم عابدين، ريثما يقرر وزير الداخلية ما يراه بالنسبة إلينا، ولما كان الوزير لا يستطيع أن يتصرف قبل معرفة رأى البوليس السياسى فقد بقينا هناك إلى قبيل الغروب، وكانوا فى خلال ذلك يعرضون علينا تسليم اللافتات التى كنا قد أعددناها بشعارات المقاطعة ولكن الفدائيات رفضن تسليمها!

وأخيرًا.. بعد مفاوضات ومشاورات، اشترك فيها الوزير مع حكمدار العاصمة ـ اللواء مراد الخولى وقتذاك ـ مع رجال البوليس السياسى صدر الأمر بإطلاق سراحنا..

وصدرت الصحف فى اليوم التالى تتحدث عن الحركة التى قامت بها كتائب بنت النيل للتعبير عن دعوتها إلى المقاطعة.

إن الفكرة فى حصار كتائب بنت النيل لبنك باركليز كانت رمزية لا أكثر ولا أقل، هدفها الأول كان التعبير عن حماسة المرأة المصرية للدفاع عن حرية البلاد سواء كانت حرية سياسية أو حرية اجتماعية أو حرية اقتصادية..!

نزلنا
إلى الميدان الانتخابى

وكان لذلك الاشتراك الفعلى الذى ساهمنا به فى ميدان النضال الوطنى أثره العميق فى تحريك وجدان الشعب بعدالة قضيتنا، وأصبح الإحساس العام فى البلاد أن المرأة ستظفر بقضيتها وكان هذا الإحساس واضحًا إلى الحد الذى جعل الشيخ السابق محمد خطاب يعلن فى محاضرة له ألقاها يوم ١٧ مارس «أنه يراهن من يشاء على ما يشاء، إن المرأة المصرية ستعطى صوتها فى الانتخابات القادمة» وكانت الانتخابات القادمة بعد أسابيع!

ولم لا؟ إن الإجماع يكاد ينعقد على عدالة هذا المطلب القانونى البديهى الطبيعى، وهو مساواة المواطنين جميعًا أمام صندوق الانتخاب.. أمام حقهم المقدس فى تقرير مصيرهم، وها هو ذا الدكتور سيد صبرى أستاذ القانون الدستوى بجامعة القاهرة يخطب فى نقابة الصحفيين فيقول إن الدستور يبيح للمرأة حق الانتخاب، وأن اللجنة الدستورية التى حرمتها هذا الحق قد ناقضت نفسها.. وها هم أقطاب اللجنة الدستورية فى الشيوخ (زكى العرابى ومحمد على علوبة وأحمد رمزى) يقدمون مذكرة جديدة يؤيدون مذكرة العرابى فى ضرورة منح المرأة المصرية حق الانتخاب بعد أن وقعت مصر على ميثاق هيئة الأمم المتحدة الذى يحتم على كل بلد موقع عليه بعدم التفرقة بين الجنسين فى الحقوق السياسية.

ولكن وزارة الهلالى قررت الدعوة لإجراء الانتخابات وفتحت جداول القيد وسئل ذلك المصدر الرسمى الذى طالما تكلم باسم تلك الوزاة فأكد أن المرأة

المصرية ستُعطَى حق الانتخاب والترشيح.. سئل ذلك المصدر الرسمى فى هذه المرة فلاذ بالصمت!

ثم فتح باب الترشيح، وأهملت المرأة وتجاهل المسئولون مطالبها بعد أن ظلوا يتصايحون بحقها فى الانتخاب والتصويت.. وكنت إذ ذاك أقيم فى مستشفى الدكتور مورو لإجراء جراحة فأعجب من هذه السياسة الملتوية، ذات الوجهين..

وفى المستشفى حضرت بعض أعضاء مجلس إدارة اتحاد بنت النيل لزيارتى فقلت لهن:

ما رأيكن فى حركة نعبر بها عن تصميمنا على خوض المعركة الانتخابية.. ما رأيكن فى ترشيح عدد منا فى بعض الدوائر الانتخابية، وتتقدم لدفع التأمينات بالفعل؟

وسألت إحداهن ـ وإذا رفض المسئولون استلام هذه التأمينات؟

قلت ـ لماذا نسبق الحوادث؟ سنرى.. وسنعرف على الأقل منطقهم فى هذا الرفض كما نعرف ويعرف العالم أجمع كيف يقابل الرأى العام موقفنا وموقفهم.

وتحمست الزميلات فقررن الذهاب فى اليوم التالى لدفع التأمينات فى خزينة محافظة مصر، وخزائن المديريات الأخرى التى تقرر الترشيح فيها، وكانت القائمة التى أعددناها تتضمن أسماء عشر من السيدات عن دوائر المعادى وفُم الخليج ومصر الجديدة وعابدين بالقاهرة والرمل والعطارين والمنشية بالإسكندرية ومحلة روح ودسوق.

وقد ذهبت الزميلات لدفع تأميناتهن ظهر يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٥٢ فرفض الموظفون المختصون استلامها بحجة إن قانون الانتخاب لا يسمح بالترشيح لغير الرجال!

وكنت لمرضى لم أستطع الذهاب بنفسى فأرسلت حوالة بريدية بقيمة تأمين ترشيحى عن دائرة عابدين مع خطاب بهذا المعنى إلى محافظ العاصمة ـ وكان الأستاذ كامل القاويش فى ذلك الوقت ـ فلم يشأ أن يعيده إلىّ إلا يوم ١٥ مارس

أى بعد موعد قفل باب الترشيحات بثلاثة أيام وذلك تفاديًا من القضية المستعجلة التى عرفت وزارة الداخلية أننا سنرفعها فى مجلس الدولة للمطالبة بوقف تنفيذ قرار الرفض لتعارضه مع الدستور.. وهى المعركة التى حرصت الحكومة على أن تهرب منها، ولا تلتقى فيها معنا أمام هيئة قضائية محايدة كمجلس الدولة!

لقد أعاد إلىّ الأستاذ كامل القاويش قيمة التأمين مع خطاب يقول فيه إن المرشح لابد أن يكون مقيدًا فى جداول الانتخاب ـ وما دمنا غير مقيدات فى تلك الجداول فإن قبول أوراقنا يصبح باطلاً من الناحية القانونية.. أو هكذا قال!

ولكن هل قنعنا من الغنيمة بالإياب.. كلا، فقد بادرنا برفع قضية مستعجلة أمام محكمة القضاء الإدارى حددت له جلسة يوم ١٠ إبريل، لولا أن تأجلت الانتخابات كلها أو عدل عنها حتى يتم تعديل قانون الانتخاب.. واستبشرنا خيرًا، إذ حسبنا أن هذه الفرصة لن تفلت من المرأة المصرية، فإن التعديل سوف يشمل قطعًا الاعتراف بما للمواطن من حقوق، وقال أحد الوزراء مداعبًا ـ يوم أجلت الانتخابات ـ لا تغضبى إذا كانت الحكومة لم تساويكن بالرجال.. فقد ساوت الرجال بكن.

إشارة من (معاليه) بتأجيل الانتخابات!!

وقال لى وزير آخر وهو يسخر من الأحزاب الأخرى.. إن الحزب الوحيد الذى نجح فى هذه الانتخابات التى لم تتم هو حزب بنت النيل!

ومع ذلك فقد كسبت (بنت النيل) المعركة فعلاً، وهى حقيقة يلمسها كل الذين يذكرون تلك الضجة التى أحدثتها حركتنا، لقد كان لها دويها الهائل فى مصر..عندما وجدت مئات من المناضلات الشعبيات صاحبات الملايات السوداء.. زوجات وبنات وشقيقات أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين أيدوا سعد زغلول، عندما وجدت هؤلاء المكافحات الباسلات يحضرن فيما يشبه المظاهرات ليعبرن عن تأييدهن لنا فى هذه الحركة الجديدة، وتقترح بعضهن، أن يذهبن إلى اللجان الانتخابية ويقتحمنها بالقوة، لتدلى كل منهن بصوتها، وتفرضه كما نفرض نحن ترشيحنا فرضًا!!

خطابان للتاريخ :

وأحب قبل أن أختم هذا الفصل تسجيل وثيقتين مهمتين عن ذلك الحدث الضخم فى تاريخ الكفاح النسائى المصرى، وأولها خطاب أرسلته إلى رئيس الوزراء فى يوم ٥ من أبريل ونشرته أخبار اليوم بنصه وهو:

من مرشحة دائرة عابدين إلى رئيس الوزراء!

بعثت إلى محافظة العاصمة تأمين الترشيح لعضوية مجلس النواب، وقد تسلمته المحافظة منذ أسبوع، بكتاب مسجل ولم ترده إلىّ.

وأفهم من ذلك يا دولة الرئيس أن محافظة القاهرة قد ردت الأمور إلى نصابها واقتنعت آخر الأمر بأن المراة المصرية يجب الا تتخلف عن زميلاتها فى العالم المتحضر، وهذه علامة طيبة على تطور المشرفين على الانتخاب.

وإننى لسعيدة أن أشعر اليوم، أن تأمين الترشيح قد قبل، وسوف أبدأ وزميلاتى الفضليات الدعاية الانتخابية فورًا، وأملى أن يستمر المسئولون عند موقفهم، مؤمنين حقًا، بأن الدستور قد سوى فى الحقوق الدستورية جميعًا، بين الرجال والنساء على السواء

درية شفيق

رئيسة اتحاد بنت النيل

والوثيقة الثانية هى نص الخطاب الذى أرسله إلى مصحوبًا بنفس الحوالة البريدية التى سبق أن بعثتها إليه بقيمة التأمين!

حضرة المحترمة الدكتورة درية شفيق :

تلقينا كتابك الوارد إلينا فى ٣٠ مارس الماضى ومعه حوالتا بريد رقم ١٨٠٨٧ بمبلغ مائة وخمسين جنيها قيمة التأمين لعضوية مجلس النواب عن دائرة عابدين.

ونعيد مع هذا الحوالتين لأن حق الانتخاب مقصور على الذكور دون الإناث عملاً بنص المادة الأولى من قانون الانتخاب الصادر بالمرسوم رقم ١٤٨ لسنة

١٩٢٥، كما أن حق الترشيح لعضوية مجلس النواب مقصور كذلك على الذكور عملاً بنص المادة ٢٣ من القانون السالف الذكر والتى اشترطت أن يكون اسم المرشح مدرجًا بأحد جداول الانتخاب، أى أن يكون المرشح ذكرًا متمتعًا بحق الانتخاب.

ولهذا نأسف لعدم إمكان قبول تأمين الترشيح المقدم من حضرتك أو إدراج أسماء فى كشف المرشحين.

وتفضلى بقبول وافر التحية..

محافظ القاهرة

محمد كامل القاويش

وبالرغم من أن خطاب المحافظ كان مؤرخًا بـ ٩ من أبريل إلا أنه لم يسلم إلىَّ فعلاً إلا فى يوم ١٥ .. بعد قفل باب الترشيح بثلاثة أيام كما قلت وهو ما يؤيد أنها كانت مناورة لتفويت فرصة الالتجاء إلى القضاء المستعجل على المرأة المصرية.

الملك يقاوم
الحركة النسائية

وبدأت الصحف والناس تتحدث عن تعديل قانون الانتخاب، وكان أهم ما يشغل الصحف والناس هو موضوع الاعتراف بحقوق النساء فى هذا التعديل!.

وكان هناك شبه تسليم من الجميع بهذه الحقيقة وخاصة بعد أن نشرت الصحف (مانشيتات) ضخمة عن القضية التى قررت رفعها أمام مجلس الدولة، ووكلت فيها الأساتذة محمد على علوبة وفكرى أباظة وزهير جرانة والسيد صبرى و«المرحوم» عزيز فهمى ونور الدين رجائى وأحمد الخادم.. وعادت جريدة الأهرام فأثارت الموضوع حين سألت الدكتور زكى العرابى عن رأيه فيما يقال من أن منح المرأة حق الانتخاب يتطلب حتمًا إدخال تعديلات كبيرة على الدستور نظرًا لأن مواده منصبة على الذكور دون الأناث فقال سيادته بأن «مثل هذا القول بعيد جدًا عن الحق والصواب فإن الدستور وضع للمصريين جميعًا نساء ورجالاً، ولهذا قرر فى بحثه الدستورى أن قانون الانتخاب مخالف للدستور إذ ورد فى المادة الأولى منه:

«لكل مصرى من الذكور حق انتخاب أعضاء مجلس النواب الخ.. وقالت الأهرام إذ ذاك «وقد سبق لسعادته أن اقترح بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٤٧ مشروع قانون أساسه أن الدستور خول حق الانتخاب للرجال والنساء على قدم المساواة بنص صريح، وحينئذ فالمرأة ليست فى حاجة إلى أن يصدر قانون جديد يمنحها هذا الحق، وإنما قانون الانتخاب قد جاء مخالفًا للدستور بأن سلب من المرأة حق الانتخاب المخول لها بمقتضى المادة ٣ من الدستور واقترح سعادته بناء على ذلك تعديل المادة الأولى من قانون الانتخاب بالنص على أن يكون للمصريين من ذكور

وأناث حق الانتخاب حتى لا تظل هذه المادة غير دستورية وتصحيحها على هذا الوجه يستوجبه الدستور».

وصرح أحد كبار رجال الدين لمندوب الأهرام بأنه وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تنصب على المؤمنين كافة ـ نساء ورجالاً على السواء ـ مثل الاية الكريمة ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾..

وظلت الصحف جميعًا تؤكد أن النية تتجه إلى منح المرأة حق الانتخاب، وفيما يلى بعض عناوين الأهرام ـ وصلتها بالدوائر الحكومية معروفة:

(أبحاث لجعل الانتخاب اجباريًا وإباحته للمرأة إلخ) ١٣ إبريل سنة ١٩٥٢.

(رجحان كفة منح المرأة حقوقها الانتخابية بشروط فى التعديل الجديد) ١٤ إبريل سنة ١٩٥٤.

(الدستور يسوى بين الرجال والنساء إلخ).. ١٧ إبريل سنة ١٩٥٢.

وهكذا كانت الصحافة كلها تجمع على أن المسئولين قد سلموا بمساواة المرأة فى الحقوق البرلمانية.. وفجأة.. فجأة تغيرت لهجة الصحف ولهجة المصدر الرسمى الذى يتكلم باسم الحكومة!.

وصرح الأستاذ فريد زغلول وزير الدولة إذ ذاك بأن موضوع منح المرأة حقوقها السياسية «لم يبحث بعد»!.

ونشرت جريدة النداء خبرًا خطيرًا ـ بل هو بالغ الخطورة ـ ففى يوم ٢٢ من ذلك الشهر نفسه ـ إبريل ـ قالت فى مكان بارز وبطريقة واضحة هذه السطور القليلة التالية:

«أبدت إحدى الشخصيات الكبيرة رأيًا خاصًا فى موضوع منح المرأة حق الانتخاب ويدرس هذا الرأى الآن بعناية كبيرة».

وقرأ الأحرار مما بين السطور، وفهموا كل شىء، وأدركوا أن الرجعية قد وجدت حليفًا للاتحاد معها فى جبهة واحدة ضد قضية المرأة.. قضية نصف الشعب الذى يناصبهم، ويناصبونه العداء!.

ولم يكن ذلك الحليف ـ كما أدرك الأذكياء جميعًا ـ سوى فاروق واتصل بى شخص معروف من بطانة ذلك الملك الذى أسقطته إرادة الشعب.. إننى أنصحك بحل هذا الاتحاد أو تحويله إلى جمعية خيرية مثلاً، فإن المرأة لن تصل إلى حقوقها الآن!.

قلت له ـ أهذا هو رأيك؟.

فأجاب فى لهجة حاسمة، ليس هذا رأيى، ولكن هذه هى السياسة التى وضعت نهائيًا!.

قلت له ـ ولكن البرلمان لم يضع مطلقًا أية سياسة من هذا النوع، وهو مع ذلك لم يجتمع منذ بضعة شهور.. فمن الذى وضع هذه السياسة؟.

فأجاب وهو يضع السماعة:

ـ أنت تعرفين كل شىء!.

وفى بادىء الأمر كنت أحسب أن صاحبنا يداعب أو «يهوش» ولكنى لم ألبث أن وجدت حملة مفاجئة.. حملة واسعة ضخمة على حقوق المرأة بلا مناسبة وبلا مقدمات..

وافتتح تلك الحملة الشيخ حسنين مخلوف وكان يشغل منصبًا دينيًا خطيرًا هو «مفتى الديار المصرية»!.

افتتح الحملة بإصدار بيان فى ٦ مايو سنة ١٩٥٢ أفتى فيه ـ دون أن يطلب إليه أحد! ـ بأن الدين الإسلامى يتعارض مع منح النساء حق الانتخاب، ولم يكن ذلك هو كل ما تجلى فى موقف صاحب الفضيلة بل العجب حقًا ان «يتبرع» بفتواه هذه فى الوقت الذى كان اثنان من أكبر علماء الإسلام فى العالم يدفعان عن الإسلام وصمة الوقوف فى وجه التحرر والتطور.

وفى نفس الوقت كان مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف بالهند وناقل القرآن الكريم من اللغة العربية إلى الأوردية يلقى تصريحًا قاطعًا يقول فيه بالحرف الواحد «إن الإسلام منذ نشأته أنكر التفريق بين الرجال والنساء فى الحياة

السياسية والعامة، وقد تبين ذلك بجلاء من النضال الذى تلا استشهاد عثمان ثالث الخلفاء الراشدين فإن الصحابة الذين كانوا أحبابًا وأولياء انقسموا واختلفوا، وبلغ الخلاف أشده بينهم حتى قامت موقعة الجمل التى كانت أول نزاع مسلح بين المسلمين، وكان الإمام على رابع الخلفاء يتولى خلال هذا الخلاف أحد الفريقين بينما تتولى السيدة عائشة رضى الله عنها قيادة الفريق الآخر، وأخذ أنصار الإمام على يوجهون النقد اللاذع لخصومهم، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على إنكار حق السيدة عائشة فى القيادة لمجرد أنها امرأة».

وفى نفس الوقت كذلك كانت سكرتيرة المؤتمر النسائى «الإسلامى» فى لاهور ـ كانت تذيع القرارات التى أصدرها فى ٢٩ مارس وفى مقدمتها النص على رد الحقوق السياسية المغتصبة من النساء والمسلمات..

بل فى نفس الوقت الذى كان عشرات من أفاضل العلماء المسلمين فى مصر يكتبون فى مختلف الصحف مؤيدين هذه الحقوق مؤكدين أنها لا تتعارض مطلقًا مع الإسلام، بل إن حرمان النساء فيها هو الذى يتعارض مع الإسلام آخر الأديان، وأكثرها تطورًا وتحررًا، وكان من هؤلاء العلماء الذين تحفظهم ذاكرتى إلى اليوم فضيلة الشيخ دسوقى على دسوقى، وفضيلة الشيخ منصور رجب الأستاذ بكلية أصول الدين وقد كتب فى أهرام ٣١ مايو يقول فيها على التوالى:

«أصابت امرأة وأخطأ عمر..» هو الديمقراطية عينها بكل ما تحمله من مدلول..».

والأخبار متواترة أن كبار الصحابة كانوا يسألون عائشة عن الفرائض حتى قال عطاء بن رباح: كانت عائشة من أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا فى إصابة..

«وكان يجاز للمسلمة بالتدريس والافتاء..».

بل فى نفس الوقت الذى كان زعماء المسلمين ـ فوق علمائهم ـ يقولون فيه ما هو أقطع وأصرح فيدلى السيد عبد الرحمن عزام بحديث إلى مندوب روزاليوسف يقول فيه بالنص:

«لم أكن أجد حرجًا ـ خلال رحلتى الأخيرة فى أوروبا ـ إلا عندما كنت أسأل عن المرأة فى مصر وأسباب حرمانها من حقوقها السياسية وأوكد لك أن مصر ستظل أضحوكة العالم ما دامت تنفرد بمناهضة المرأة هذه المناهضة الشديدة».

كلا.. كلا، بل أكثر من ذلك كله أن تجىء فتوى فضيلة الشيخ مخلوف متعارضة ومتناقضة تمامًا مع فتوى فى نفس الموضوع أدلى بها سلفه العظيم الشيخ علام نصار، قبل تصريح الشيخ مخلوف ببضعة شهور فقط، وقطع فيها بأن الإسلام يمنح المرأة تلك الحقوق ولا يسلبها منها.. فكان تناقض الشيخ مخلوف لسلفه الجليل هو مظهر التناقض الأكبر فى الفتوى المخلوفية!.

ولحسن الحظ، لم يغفل الرأى العام الواعى عن تلك المعانى كلها فانبرى المستنيرون والعلماء لمهاجمة تلك الفتوى وتفنيدها، ومن أولئك الذين تصدوا للشيخ المذكور، سيادة الدكتور أحمد زكى الوزير السابق والأستاذ توفيق دياب، وعشرات من أساتذة المعاهد الدينية وعلماء الأزهر، وشعر الجميع، وفى مقدمتهم طبعًا أولئك الذين كانوا يحركون الحملة ضد المرأة من وراء ستار.. أحس الجميع أن الفتوى المخلوفية قد «تخلخلت» وأنها تنهار فوق رءوسهم، وكأنهم أرادوا عمل إسعاف سريع لها فصدر بيان جديد بتأييد وجهة نظر الشيخ مخلوف، وكان البيان بتوقيع عدد من العلماء بوصف أنهم «جبهة علماء الأزهر».

ولقد سألتنى آخر ساعة فى عدد ١٨ يونيه عن رأيى فى ذلك المؤتمر الذى نشرت عنه تحقيقًا كاملاً بعنوان (امرأة واحدة أمام الطوفان) فقلت باختصار:.

ونحن نطالبهم بأن يؤدوا واجبهم نحو الدين الذى يزعمون أنهم حملة رايته.. هذا الدين الذى لا يتمشى فى روحه وتصريحاتهم.

وبعد أن أدليت فى الصحف بتصريحات كافية لإطفاء هذه النار التى حاول الرجعيون أن يشعلوها ضد المرأة، مع ذلك فقد رأيت أن أصدر كتابًا أبيض «ضد هذه الحملة الرجعية التى تضع على وجهها قناعًا زائفًا، حتى يكون ذلك الكتاب مرجعًا لكل من ينشد الحقيقة عن هذا الموضوع، وقد ضمنته كل الوثائق والتصريحات والأحاديث الشريفة والآيات القرانية، والفتاوى التى صدرت لوجه الله.

ولا يكاد يوجد اليوم فى مصر، رجل واحد يحترم نفسه ويحترم عقلية الشعب فى نفس الوقت، يجرؤ على اقتحام الدين فى هذه المسألة، أو يلصق بديننا الحنيف تهمة الدعوة لاستعباد المرأة أو اعتبارها جارية ومحظية، لا أكثر ولا أقل!.

وقد سقط فاروق من تلك الحملة الزائفة، كما نكثت الحكومة بوعودها استجابة لضغطه فسحبت تصريحاتها السابقة عن حق المرأة فى الانتخاب والتصويت، وكلفت مندوبها فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى بهيئة الأمم المتحدة أن يمتنع عن التصويت عند أخذ الرأى فى إلزام الدول الأعضاء بإعطاء المرأة حقوقها السياسية، فلم يسعه إلا أن ينفذ ذلك فى جلسة ٢٧ مايو سنة ١٩٥٢ وسجل على حكومة مصر، أنها لا تزال تعتبر نصف الشعب منبوذات لا حق لهن فى الحياة المتحررة الكريمة..

انتهى أولئك وهؤلاء وبقيت قضية المرأة المصرية تتقدم كل يوم خطوة جديدة نحو النصر..

بنت النيل
مع بنات العرب

وإذا كانت المرأة المصرية قد أدركت ـ خلال تجاربها الطويلة فى الذود عن حقوقها ـ أهمية ربط كفاحها بكفاح نساء العالم أجمع فلم يقنع اتحاد بنت النيل بالانتساب إلى منظمة واحدة من سائر المنظمات النسائية الدولية بل ظفر بعضويتها جميعا على مختلف ألوانها وطوائفها ومهما كانت التيارات التى تتجاذبها من اليمين أو من اليسار.. فعن طريق التكتل مع كل هذه الجبهات العالمية ومن نوافذ مؤتمراتها السنوية استطاعت المرأة المصرية أن تكسب الرأى العام إلى جانبها فى كل مكان..

وبهذا الفهم العميق نفسه كنت أجدنى مدفوعة بوحى من نسائنا المناضلات إلى العمل السريع لتوثيق الروابط بين نساء العرب بصفة خاصة لمختلف الصلات التى تربطنا بهن.. صلات اللغة والدين والعادات والجوار وقبل ذلك كله صلة الآلام الواحدة والآمال الواحدة..

وكما كنت أستوحى فكرة ربط الكفاح النسائى العربى من مصر كنت أستوحيه كذلك من رسائل قارئات «بنت النيل» فى مختلف بلاد العرب.. إن أصوات الأردنيات والعراقيات واللبنانيات والسوريات والفلسطينيات كانت تهمس فى أذنى من خلال مكاتباتهن بضرورة العمل على توحيد نضالنا المشترك فى سبيل الهدف المشترك. ومن هنا انتهزت فرصة الدعوة التى وجهتها الى صديقتى الدكتورة زاهية قدورة زعيمة الجامعيات اللبنانيات.. انتهزت فرصة الدعوة التى وجهتها إلى بإلقاء بعض المحاضرات فى بيروت حتى هرعت إلى هناك بالطائرة فى

صباح ٢٧ يناير سنة ١٩٥٤ ومن اللحظة الأولى لوصولى إلى المطار أحسست مدى التجاوب العميق لحركتنا النسائية فى القطر الشقيق من ذلك الاستقبال الضخم وتلك الحفاوة البالغة التى كنت أعرف أنها ليست موجهة إلىَّ بل هى موجهة إلى المصريات المناضلات جميعا فى شخص واحدة منهن لا أكثر ولا أقل..

ومن خلال المحاضرات التى ألقيتها فى العاصمة اللبنانية والمقابلات التى سعدت بها لأقطابها من النساء والرجال على السواء والمؤتمرات التى تحدثت فيها إلى صحافتها.. من خلال ذلك كله خرجت بفكرة واحدة أن الكلام عن حقوق المرأة العربية لم يعد هو الموضوع الذى يحتاج إلى جهد أو تكرار فقد أصبحت قضيتها فوق الجدل والمناقشة ولم تعد هناك عقبة حقيقية فى سبيل حريتها سوى الاستعمار.. عدو الحريات جميعا بالتفرقة ولا استثناء !

ومن هنا فقد تحولت دعايتى بسرعة من دعوة إلى جمع صفوف النساء العربيات إلى الدعوة لجميع صفوف العرب أجمعين .. نساء ورجالا ولم يكن لى أى فضل فى هذا الاتجاه فقد وجدتنى أستوحى فكرة «جامعة الشعوب العربية» التى ناديت بها فى تلك الرحلة.. وجدتنى أستوحيها فجأة من هتافات الجماهير العربية وأسئلتها وإيمانها العميق بضرورة التكتل فى جبهة واحدة لاستخلاص حريتنا.

وقد غادرت بيروت لألبى دعوة نساء الأردن بل دعوة رجالها أيضا فوصلت إلى عمان مع بعض زميلاتى فى ضيافة الآنسة إميلى بشارات.. وهناك لم تتركنا جماعة من الجماعات إلا بعد أن تأخذ وعدا بقبول ما تقيمه لنا من المؤتمرات أو حفلات التكريم فظللنا بضعة أيام نطوف القدس ورام الله وبيت لحم.. حيث أدعى فى كل منها للخطابة والتحدث لا باسم المصريات فحسب، بل باسم العروبة كلها وهو ينطوى على معان هائلة بالغة الدلالة على أن المجتمع العربى بدأ ينظر إلى نسائه من زاوية جديدة.. بدأ يعاملهن فعلا على أساس المساواة والمشاركة الوجدانية فى الشعور بالمسئولية السياسية إزاء ما يتهدد أوطان العرب من الأخطار!

إننى أعترف هنا بلا تحرج أننى كنت أتوقع كثيرا من السخرية بنا كنساء يتصدين للعمل السياسى.. كنت أتوقع أن تنظر لنا بعض الجماهير كمخلوقات غريبة يمكن التفرج عليها لا أكثر ولا أقل بل كنت أتوقع أن نقابل بالهجوم لدخولنا فى الميدان السياسى الذى احتكر الرجال النزول إليه عبر السنين والأجيال !

ولكنى على العكس من ذلك تماما رأيت جماهير عربية واعية ناضجة مستنيرة لا تسلم بحقوقها وحرياتها فحسب بل تؤمن بأن اشتراك العربيات فى حلبات النضال سوف يحل كثيرا من المشاكل ويذلل كثيرًا من العقبات وكان هناك أكثر من ذلك من ينظر إلينا نحن النساء العربيات على أننا المنقذات تحركنا فى اللحظة الأخيرة لنحرر بلادنا وننهض بها بعد كل الذى سجله زعماء العرب من الفشل المبين.

ولست أذهب بالطبع إلى هذا المدى المتطرف من تفكير أصدقائنا والمتحمسين لقضيه تحررنا ولكنى أسوقها فى معرض التصوير الدقيق لما حققتها رحلتنا من نجاح.

لقد قابلت فى رحلتى إلى عمان وبيروت كثيرا من الحكام وقادة الرأى.. ابتداء من جلالة ملكة الأردن وفخامة السيد رئيس جمهورية لبنان ثم قابلت مئات من صميم أبناء الشعب ولمست إيمان الجميع ـ من السياسى الكبير إلى رجل الشارع ـ بأن قضية الحرية واحدة لا تنفصل ولا تتجزأ.. وأن الكل أيضا ينظر إلى حرية المرأة العربية على هذا الأساس وهو أنها جزء لا يتجزأ من حرية العالم العربى بكل حدوده وكل من فيه !

ولم يكن غريبا إذن أن أذهب إلى لبنان والأردن وفلسطين لأدعو لجامعة نساء العرب.. لأدعو إلى قيام جامعة الشعوب العربية وتبلغ بى الحماسة إلى حد الشروع فى تنظيم هذه الدعوة وبدء الحملة لها بإصدار كتابى الصغير عن تلك الفكرة فى أول مارس من ذلك العام.. أى بعد عودتى إلى مصر ببضعة أسابيع !

نعم.. لقد عدت إلى مصر وفى رأسى فكرة هى الدعوة إلى عقد أول مؤتمر للشعوب العربية.. مؤتمر يلتقى فيه المناضلون اللبنانيون والسوريون.. إلخ بالمناضلين المصريين والسعوديين والأردنيين واليمنيين ليرسموا معًا خطط الكفاح لتحقيق أمانيهم وأهدافهم الوطنية.

ثمانية أيّام
بلا طعام !!

وفى الوقت الذى كانت المرأة المصرية تتأهب فيه للمضى قدما فى سبيل تحقيق قيام «جامعة الشعوب العربية» فوجئت بصدمة جديدة لا أستطيع أن أتجاهلها!

كانت النية قد اتجهت إلى قيام جمعية تأسيسية منتخبة لبحث مشروع الدستور الجديد وكان المفروض أن لا تتجاهل الحكومة حقنا المقدس فى الاشتراك فى تقرير المصير فإننا نمثل أكثر من نصف الشعب وليس من الطبيعى فى سنة ١٩٥٤ أن تقصى أغلبية الشعب عند التفكير فى وضع الخطوط الرئيسية لمستقبل ذلك الشعب !

ومع ذلك فقد حدث ذلك الذى أذهلنا جميعا وبدأ الاستعداد لانتخاب الجمعية التأسيسية على أساس قانون الانتخاب القديم.. القانون الذى يجعل التصويت والترشيح حكرا على الرجال وحدهم!

وقد سجلت فى البرقية التى بعثت بها عقب نشر ذلك القرار.. سجلت موقف المرأة المصرية من مثل هذه الجمعية وقلت إننا لانعترف بأية جمعية تأسيسية لا تمثل كل الشعب برجاله ونسائه على قدم المساواة، ولكن هذه البرقية لم تشف غليلى فقد كنت أعرف أن مصير مثل هذه البرقيات التى لا يعقبها عمل سريع هو سلة المهملات لا أكثر ولا الأقل وأن نشر هذه البرقية على صفحات الصحف قد يذكر الرأى العام بقضيتنا ويثير عطف أصدقاء هذه القضية ولكن ذلك كله سيظل إجراء سلبيًا ما لم نتخذ نحن النساء صاحبات الحق موقفا يعبر عن

إرادتنا وتصميمنا على مزاولة حقوقنا الطبيعية الشرعية المقدسة.. ولكن ماذا نفعل ؟

لقد نظمنا قبل ذلك مظاهرات وعقدنا مؤتمرات ووزعنا منشورات ودربنا كتائب واقتحمنا البرلمان ولم يبق إلا أن تشتبك النساء مع الرجال فى حرب أهلية وهو ما لا يمكن أن يخطر على بالنا بطبيعة الحال ليس آباؤنا وأشقاؤنا وأزواجنا وأولادنا أعداء لنا مهما سلكوا ومهما بلغ بهم التمسك بالتقاليد البالية.

اذًا لم يبق إلا أن نضرب عن الطعام ولما كان من المستحيل بالطبع أن ينظم إضراب شامل تشترك فيه ١١ مليون نسمة من المصريات ولما كان الوقت ضيقا لا يسمح حتى بالدعوة إلى تنظيم إضراب تشترك فيه ألف سيدة مثلا فقد رأيت فى لحظة انفعال أن ابدأ هذا الاضراب بنفسى.. وفى الحال !

ولكن المسألة كانت تحتاج إلى ترتيب وإعداد وتكتم شديد فقضيت طول الليل ساهرة أفكر دون أن أخطر أقرب الناس إلى بما كنت أعتزمه فأنا أعرف أن أحدا منهم لن يشجعنى بالطبع على الانتحار.. سوف يحول خوفهم على دون اقتناعهم بالفكرة أو موافقتهم على تنفيذها وهم يعرفون أن ثمن هذا التنفيذ قد يكون حياتى !

وفى صباح اليوم التالى كنت أعد الترتيبات الأخيرة لإضرابى وقد اخترت الاعتصام فى نقابة الصحفيين طوال مدة الاعتصام لأسباب واعتبارات شتى فأنا من ناحية عضو فى نقابة الصحفيين وأنا من ناحية ثانية أضع نفسى خلال صيامى واعتصامى تحت رقابة الرأى العام كله ممثلا فى صحافته وأنا من ناحية أخرى لا أريد لإضرابى واعتصامى أن يكون دعاية لاتحاد بنت النيل فى الوقت الذى أقدم فيه على تضحيتى هذه باسم نساء مصر ولحساب قضيتهن جميعا ومن هنا فإننى أفضل الاعتصام فى مكان قومى عام لتتسم حركتى بهذه الصفة نفسها ولا تبقى محدودة بإطار اتحاد بنت النيل وحده دون سائر الهيئات النسائية الأخرى..

وحتى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة ١٢ مارس سنة ١٩٥٤ لم يكن هناك من يعرف هذا السر غيرى ولم يكن ثمة بد من أن يعرفه ثان ولم يكن

ذلك الثانى سوى الشخص الذى عهدت إليه بإعداد عشر نسخ من البيان الذى قررت توزيعه على الصحف ووكالات الأنباء فى نفس الدقيقة التى أبدأ فيها إضرابى عن الطعام !

والحق أن سكرتير إدارة بنت النيل ظل متحفظا بهذا السر حتى أخذ طريقه الطبيعى إلى الرأى العام عن طريق البيان فقد أغلق عليه الباب حتى أتم نسخ البيان على الآلة الكاتبة ثم خرج يشرف على توزيعه بنفسه !

وكان كل شئ يبدو هادئا وطبيعيا فى إدارة المجلة.. حتى هذا الخطاب المقفول الذى تسلمه الساعى لتوصيله إلى إدارات الصحف لم يكن يثير فضول أحد ففى كل يوم تخرج أمثال هذه الخطابات تحوى نشرة عادية عن إحدى المحاضرات أوالحفلات التى يقيمها الاتحاد من حين لآخر..!

وعندما خرجت من إدارة المجلة فى الثانية عشرة والنصف ظهرا كان الكل يعتقد أننى فى طريقى إلى المحطة لألحق قطار الإسكندرية فى مهمة تستغرق يوما أو يومين !

وما كدت أصل إلى دار نقابة الصحفيين حتى طلبت إلى السعاة أن يفتحوا لى مكتب النقيب ومن هذا المكتب طلبته تليفونيا وقلت له إننى قد اعتصمت منذ الآن فى مكتبك لأبدأ إضرابى عن الطعام حتى تظفر النساء المصريات بحقوقهن أو استشهد فى هذا السبيل..

ولم تمض دقائق حتى كان الخبر قد أذيع فى جهات مختلفة من القاهرة وهرعت إلى دار النقابة عشرات من المشتغلات بالحركة النسائية فأبت مروءتهن إلا أن يعبرن عن تأييدهن لهذه الحركة بطريقة إيجابية هى الاشتراك فيها.. وفى الوقت الذى كان الناس فى مصر يطالعون فيه نبأ إضرابى عن الطعام بمفردى فى جريدة القاهرة كانت هناك ثمانى من الزميلات يتأهبن للاعتصام معى لذات الهدف النبيل وبدأت أسماء السيدات والآنسات بهيجة البكرى ومنيرة ثابت وراجية حمزة ومنيرة حسنى وفتحية الفلكى والهام عبد العزيز وسعاد فهمى وأمانى فريد.

بدأت هذه الأسماء تأخذ طريقها إلى أنحاء العالم بأسره باعتبارهن طليعة هذا الإضراب الأول من نوعه.

وفى اليوم التالى - وكانت الصحف قد أشارت إلى حركتنا بعناوين ضخمة فى صفحتها الأولى امتلأت حجرات نادى الصحفيين وقاعاته وردهاته بمئات بل بآلاف الزوار وكانت أجراس التليفون لا تكف لحظة واحدة وكانت مصر من أقصاها إلى أقصاها تتحدث عن المعتصمات وتسأل عما تطورت إليه حالتهن الصحية ساعة بعد أخرى!

ولست أنكر أن إضرابنا أثار أعداء المرأة كما أنه كان مادة سخية للمجلات تحاول بها إثارة انتباه القراء ولو بحملات مفتعلة وغير صحيحة فى جوهرها وتفصيلاتها.

ولكن هل ينكر أحد أنها - إلى جانب ذلك - أثارت عطف الرأى العام فى مجموعه على قضيتنا؟

إن هذا المقياس وحده يكفى للتدليل على أن حركتنا نجحت فى كسب الرأى العام إلى جانب قضية المرأة أكثر من أى وقت آخر وقد اشترك قادة الفكر جميعا فى تأييد مطالبنا العادلة بتلك المناسبة وأذكر فى مقدمة هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور محمد صلاح الدين والدكتور على زكى العرابى والأستاذ فكرى أباظه.

ومنذ اليوم الثانى لإضرابنا وكبارالمسئولين يفدون لإقناعنا بوقف هذا الإضراب على أساس أن نضع القضية فى أياديهم الأمينة.. وأذكر أن الدكتور على ماهر رئيس لجنة الدستور ورئيس الوزراء السابق زارنى فى ذلك الصباح وطلب إلى وقف إضرابنا واعدا بأن يتولى الدفاع عن قضيتنا بنفسه! فقلت له إننا أقدر على الدفاع عن أنفسنا.. لا لأننا أعرف بالقانون ولا بفنون المنطق والبلاغة منك، كلا بل لأننا نحن أصحاب القضية باعتبارنا نحن أكثر إحساسا بما يقع علينا من ظلم وإجحاف!

وقال لى الدكتور العرابى أعدك بأن.. وقبل أن يتم جملته قلت له:

لا تنس إنك سبق أن وعدت ولا تنس أنك حاولت أن تحقق وعدك لنا بالفعل ولكن السراى تدخلت فى اللحظة الأخيرة فهناك إذًا قوى خفية قد تمنع أى مسئول من تحقيق وعده ولذلك فإن ما نريده فى هذه المرة ليس وعدا بالعمل بل عملا بالفعل! إننا على استعداد للإفطار فورا إذا صدر تشريع يعدل مادة واحدة فى قانون الانتخاب وهى التى تجعل الحق النيابى حكرًا على الرجال وحدهم!

وما كاد الزائران الكبيران يخرجان حتى كانت المضربات أكثر اقتناعا وأشد إيمانا بضرورة الإستمرار فى الإضراب عن الطعام حتى تجاب مطالبهن أو يستشهدن فى هذا السبيل فكتبن برقية إلى مختلف الصحف والجهات الرسمية يجددن فيها هذا العهد.. وهذا العزم!

وقبل أن ينتهى اليوم كانت أسلاك التليفون تحمل إلى نبأ انتصار جديد هو إضراب عدد من زميلاتنا أعضاء بنت النيل بالإسكندرية واعتصامهن فى نقابة الصحفيين أيضا بتلك المدينة وفى الصباح عرف قراء الصحف أسماء المضربات السكندريات.. أمينة شكرى وثريا العجيزى وأم هلال إلخ تشجعهن على الإضراب رئيسة شعبة بنت النيل بالإسكندرية السيدة ألفت السلانكلى واتسع نطاق حركتنا وبدأت إذاعات العالم كله تتابع أنباءنا وكانت أول برقية وصلتنى من الخارج برقية السيدة كوربيت آشبى رئيسة الاتحاد النسائى الدولى «بارك الله شجاعتكن» وتلتها برقية وزيرة التأمين الاجتماعى فى بريطانيا السابقة «سمرسكيل».

وأخيرا بعد إضراب دام ثمانية أيام كللت جهود المعتصمات بالنجاح وظفرت قضية المرأة المصرية بهذا الوعد التاريخى الذى أرسل به إلينا المسئولون بأن دستور مصر الجديد سيشمل حقوق المرأة المصرية كاملة غير منقوصة..

وفى الأيام التالية كان الساخرون من حركتنا قد خجلوا من أنفسهم فبدءوا يدخلون الشقوق مرة أخرى.. وكانت المنظمات النسائية كلها قد أجمعت على تأييد المعتصمات والالتفاف حول مطالبهن.. ولم تبق خارج الصف سوى ثلاث أو أربع من اللائى أردن الانتفاع بالقانون المعروف «خالف تعرف».. !

وبقيت نقابة الصحفيين طوال أسبوع كامل مقصد العاطفين على قضية المرأة من جميع الطبقات ومن النساء والرجال على حد سواء.. إنها حلقة دائمة

للمناقشة بل هو مؤتمر ضخم يشترك فى مداولاته مئات المتحدثين وآلاف المستمعين كل يوم.. ها هو السيد سليمان حافظ يخرج يائسا من إقناع المضربات بالعدول فيدخل السيد فكرى أباظه ليعيد المحاولة بطريقته وأسلوبه.. بل ها هى زميلتنا أسماء فهمى.. مديرة معهد التربية تحضر على رأس فرقة من طالباتها لتناشدنا لإفطار خوفا علينا بعد أن أفاضت الصحف فى نشر تقارير الأطباء عن تدهور صحتنا وميلها الى الهبوط الخطير وها هن طالباتها النبيلات يعرضن استئناف الإضراب بالنيابة عنا بعد ما لمسنه على وجوهنا من آثار الضعف والهزال.

وكانت هذه المحاولات المستمرة أقسى علينا من الجوع وأشد إيلاما ولعل أخطر ما أذكره فى هذا الصدد أن ناظرة المدرسة التى تلتحق بها كريمتاى عزيزة وجيهان اتصلت بى تليفونيا وقالت: إن المدرسات والطالبات جميعا مشغولات على حياتى بعد ما أذاعته الصحف عن خطورة حالتى وإنهن جميعا يرجوننى باسم عزيزة وجيهان - أن أقف إضرابى وذرفت عيناى بالدموع شفقة على الطفلتين الصغيرتين وخشيت أن تؤثر أخبار الصحف على أعصابهما المرهفة فطلبت أن أتحدث إليهما بنفسى ليطمئنا على صحتى..

وقالت لى جيهان الصغيرة لماذا لا تأكلين يا ماما ؟

قلت لها: حاضر ياحبيبتى سوف آكل قريبا !

وأغلقت التليفون قبل أن أفشل فى تمالك أعصابى لأستقبل بعض السيدات من الجنوب ولأناقش عددا آخر من المشفقين علينا من لذعة الجوع وما قد يترتب عليه من نتائج خطيرة..

وجاء اليوم الذى كان لابد فيه أن تنتقل بعضنا إلى المستشفى لخطورة حالاتهن ورأيت أن ننتقل إلى هناك بكامل هيئتنا إبقاء على مظهر تضامننا وإشفاقا على زوارنا من التعب والارتباك والحيرة بين النقابة والقصر العينى.

وفى المستشفى رأت السلطات منع الاتصال بنا - لأسباب صحية ! - ومع ذلك فقد بقينا هناك محافظات على روحنا المعنوية وعلى إرادتنا الحديدية فى التصميم على الإضراب حتى النصر أو القبر..

ومرت لحظات تخيلت فيها أننى قد أكون أول المستشهدات وخطر لى أن أكتب وصيتى ولكنى عدت فتذكرت أن استشهادى نفسه سيكون أعظم وصية عملية نقدمها إلى مواطناتنا المضطهدات لتقتدى كل منهن - بنور تضحياتنا - فى طريق كفاحها لاستخلاص ما يبقى مسلوبا من حقوقها..

ولكن هل كان وعد المسئولين هو كل ما أسفرت عنه حركة إضرابنا الذى استمر عشرة أيام كاملة ؟ اللهم لا بل كان النصر الأكبر لحركتنا فعلا - يوم خروجنا من المستشفى لنزور ضريح قاسم أمين - محرر المرأة فوجدنا وراءنا مئات من السيدات.. من مختلف الهيئات النسائية وقد اجتمعت إرادتهن فى ذلك اليوم على مواصلة الكفاح من أجل حقوق المرأة.

لقد أسفر إضرابنا عن الطعام عن نتيجة حساسة قد فاقت كل الوعود بأهميتها.. وهى الاتجاه الجديد الذى لمسناه فى الرأى العالم.. فمنذ ذلك اليوم بدأ الرأى العام ينظر إلى قضية المرأة بعين العطف وبدأ يدافع عن مطالبنا بحماسة لم نعرفها من قبل.

برقيات تأييد من أنحاء العالم

وقد تلقينا برقيات كثيرة من مختلف أنحاء العالم تؤيد مطالبنا من الهيئات والشخصيات التى تعطف على مطالب المرأة والتى تهدف إلى تحريرها نذكر منها هذه البرقيات :

- الليدى كوربت آشبى الرئيسة الفخرية للاتحاد النسائى الدولى (من لندن).
- السيدة جراف رئيسة الاتحاد النسائى الدولى (الدانمرك).
- المجلس النسائى الدولى.
- السيدة أليس بول رئيسة المجلس النسائى العالمى (الولايات المتحدة).
- رئيسة الاتحاد النسائى الأندونيسى (أندونسيا).
- رئيسة لجنة التنسيق النسائية ببومباى (الهند).

- السيدة لوكنوك رئيسة المؤتمر النسائى الكندى (كندا).

- السيدة كفينورس المعروفة بنشاطها النسائى استكهولم بالسويد.

- السيدة فرانسيس رئيسة هيئة السيدات المتزوجات بإنجلترا.

- السيد تكهاليا رئيس الكونجرس الهندى بجنوب أفريقيا.

- السيدة مانيطا وامتبى رئيسة إحدى الهيئات النسائية المعروفة بلندن.

- السيدة ماريابى عدنان رئيسة جمعية الشابات المسلمات بجاكرتا (أندونيسيا).

- السيدة نادية سوقيه رئيسة جمعية التقدم الإسلامى (بجزيرة موريس).

- السيدة كونكستن رئيسة الهيئات النسائية الإيرلندية.

- السيد روجيه بلدوين رئيس لجنة حقوق الإنسان بهيئة الأمم المتحدة.

- الجبهة النسائية الديمقراطية.

- السيدة شانتوف رئيسة الحركة النسائية الجزائرية.

- السيدة جلاديث سميث رئيسة الهيئة النسائية الديمقراطية بجنوب أفريقيا.

- رئيسة الحركة النسائية فى لبنان .

- رئيسة الحركة النسائية فى سوريا .

- رئيسة هيئة المطالبة بحقوق المرأة فى عمان (المملكة الأردنية الهاشمية).

- السيدة سرى مانجون سوركورو رئيسة الحزب النسائى بجاكرتا (أندونيسيا).

- السيدة كارولين هوسليت رئيسة الجبهة النسائية للسيدات العاملات بلندن.

- الهيئة النسائية للأخوات الفنلنديات (فنلندا).

كما وصلت برقية من السيدة أديث سمرسكيل الوزيرة العمالية السابقة وعضو مجلس العموم البريطانى. ومئات البرقيات من شخصيات من جميع أنحاء العالم مما يدل على ما أحدثته هذه الحركة من دوى عالمى وتقدير لكفاح المرأة المصرية.

رجال فى تاريخ المرأة

ويذكر فى تاريخ الحركة النسائية المصرية أعلام، لهم فى هذا التاريخ نصيب عظيم، فقد أفسح لطفى السيد وطه حسين وكامل مرسى صدورهم فى الجامعة واستطاعوا بالرغم من موقف الملك فؤاد أن يدخلوا الفتاة المصرية الجامعة ويسلكوها مع سائر الطلبة ويمكنوها من كل نواحى التعليم الجامعى.

ويذكر الدكتور محمد حسين هيكل فى ميادين الصحافة حيث استغل قلمه العظيم فى كل نواحى الحياة ونسجل للتاريخ أروع مواقفه حين هوجمنا من الناس عندما أضربنا عن الطعام للمطالبة بحقوقنا فكتب يدافع عنا ما يأتى:

الأهرام ١٦/٣/١٩٥٤

تشغل السيدات المعتصمات بدار نقابة الصحفيين بالقاهرة والإسكندرية والمضربات عن الطعام حتى الموت، تشغل بال الرأى العام فى مصر فالصحف كلها تتحدث عنهن كل يوم وتنقل أنباء اعتصامهن.

بل يظهر أنهن قد بدأن يشغلن بال الرأى العام خارج مصر بدليل الرسالة التى بعثت بها إليهن مسز كوربيت آشبى رئيسة الاتحاد النسائى الدولى تشجيعًا لهن فى موقفهن.

وسيزداد الرأى العام اهتمامًا بهن وحرصًا على حياتهن كلما انقضى يوم من أيام إضرابهن عن الطعام.

ولست أريد أن أحبذ تصرفهن أو أنقده ولست اريد كذلك أن أبدى رأيا فى مطلبهن الخاص بالاشتراك فى الجمعية التأسيسية التى كثر الحديث عنها فى

هذه الأيام فقد انقضى العهد الذى كانت المرأة تلتمس فيه معونة الرجل لتحقيق مطالبها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية وأصبح للسيدات رأى خاص فى هذه المطالب ووسائل خاصة لتحقيقها.. لكننى مع ذلك لا أملك إلا أن أبدى الدهشة مما هو حادث وإن لم أتجاوز الدهشة إلى إبداء الرأى.

فقد نشرت الصحف أن الرئيس الدكتور على ماهر بعث إلى السيدة درية شفيق وإلى زميلاتها المعتصمات بنقابة الصحفيين بيانا ذكر فيه أن المرأة المصرية شاركت الرجل فى حركة سنة ١٩١٩ وأنها «الآن تعمل معه جنبا إلى جنب فى دواوين الحكومة وفى المهن والأعمال الحرة بل فى ميدان الأستاذية بالجامعات ولم يبق أمامها سوى استكمال حقوقها السياسية وقد أقرت لجنة مشروع الدستور بما يقرب من الإجماع مبدأ تمتعها بهذه الحقوق» وفى هذا البيان أبدى الرئيس على ماهر ثقته بأن تقرر الجمعية التأسيسية هذا المبدأ.

لم تكتف السيدات المضربات عن الطعام حتى الموت بهذا البيان فإنهن يطالبن بأن يشتركن فى انتخابات الجمعية التأسيسية ناخبات ومرشحات كما يشترك الرجال ناخبين ومرشحين ولذلك قررن الاستمرار فى إضرابهن.

ومهمة لجنة الدستور لا تتجاوز وضع مشروع طلبت الهيئة الحاكمة اليوم إليها وضعه.

وقد نشرت الصحف ما يفيد أن قانون الجمعية التأسيسية الذى يتناول اختصاصها وقانون الانتخاب الذى يمهد لإنشاء هذه الجمعية التأسيسية ليس من عمل لجنة الدستور بل تتولى الحكومة اليوم مناقشتهما ووضعهما..

فهل تجارى الحكومة لجنة الدستور فتقرر مبدأ تمتع النساء بحقوقهن السياسية أم تترك ذلك للجمعية التأسيسية تفصل فيه بالرأى الذى تراه؟

يخيل إلى أن السيدات يرين أن اقرار الحكومة لحقهن فى الانتخابات للجمعية التأسيسية يشجع الجمعية المذكورة على إقرار ما ذكره الرئيس على ماهر من أن لجنة الدستور قررت تمتعهن بهذا الحق وأن منع الحكومة لهن من دخول الجمعية التأسيسية يؤدى إلى النتيجة العكسية ويشجع على رفض الجمعية إقرار حقوقهن السياسية.

ولا أحسب السيدات المحترمات مع ذلك يقدرن أنهن إذا دخلن انتخابات الجمعية التأسيسية سيفزن بعدد من المقاعد يؤثر فى أغلبية الجمعية..

فقد اعترف للمرأة بحق الانتخاب فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وغيرها من الدول ومع ذلك كان عدد النائبات قليلا فى هذه البلاد جميعًا ولم يكن لهن أثر ظاهر فى ترجيح كفة على كفة أو فى تغيير الأغلبية ونقلها من جانب إلى جانب آخر..

أم ترى تقدر السيدات المحترمات أن أى عدد فاز منهن سيكون بقوة حجته وعظيم بلاغته دليلا ناهضا أمام الشعب كله على أن وجودهن فى الهيئة النيابية يحقق للبلاد خيرًا كثيرًا وأنهن إلى ذلك سيدافعن عن حق المرأة فى الانتخاب بما لا يدافع الرجال بمثله؟

قد يكون هذا وذاك صحيحا. وقد يكون صحيحًا أيضا أن دخولهن الجمعية التأسيسية سيصرف المتحمسين من الرجال لحق المرأة فى الانتخاب عن تأييد رأيهم اعتمادًا على أن صاحبات الحق أولى بتأييده كما قد يدعو كثيرين من الرجال بدافع عن التعصب للوقوف موقفا لا ترضاه السيدات المحترمات عند التصويت.

هذه ومثيلاتها اعتبارات مرت بخاطرى حين تلوت فى الصحف رسالة الرئيس على ماهر إلى السيدة درية شفيق وزميلاتها المضربات عن الطعام إلى الموت.

وقد رأيت أن أعرضها على السيدات المحترمات وعلى من بيدهم مصير الأمور فى الوقت الحاضر يقدرونها حلا لمشكلة عويصة معقدة يبقى حلها على أرواح عزيزة على مصر كلها ويجنب الرأى العام المصرى والرأى العام العالمى هزات عاطفية من الخير تجنبها..

ولا يكون هذا الحل إلا بتفاقم بين من بيدهم الأمر والسيدات المعتصمات بنقابة الصحفيين.

لقد أدى السيد رئيس لجنة الدستور واجبه وأصبح الأمر الآن بين الحكومة والسيدات المعتصمات.

فلعل الله يمنح الجميع من التوفيق ما تطمئن له النفوس ويستريح له الرأى العام فى مصر وفى أرجاء العالم كله.

ولن تنسى الحركة النسائية مواقف السادة على ماهر ومحمد على علوبة ومحمد العشماوى وعشرات غيرهم فقد عاونونا وهم يلون مناصب الحكم فأتاحوا للمرأة التعليم والتوظيف ورعوا حقوقها كاملة وأنصفوها حين سووها بكل رجل فى الميادين التى زاملت المرأة فيها الرجال.

الجندية المجهولة

هذا هو كفاح المرأة المصرية فى مختلف الميادين، فى العلم، فى الثقافة فى السياسة، فى العمل، فى مقاومة المستعمر فى حرية بلادها، فى السعى لاستقلالها فى الخدمة الاجتماعية ورفع شأنها صفحة مشرفة مشرقة.

ولكن هناك كفاحًا من لون آخر جديرًا بالتسجيل والتقدير وجديرًا بأن تحنى له الهامات وأن يذكر بكل فخر وافتخار ذلك الكفاح هو كفاح «الجندية المجهولة» ذلك الكفاح الصامت الذى تؤديه المرأة المصرية فى صمت وذلك الدور الخطير الذى تضطلع به «الجندية المجهولة» فى محيطها فتحترق كالشمعة لتضىء النور فى جوانب المجتمع دون أن يدرك أحد ما تبذل من جهد وما تقدم من خدمات مشكورة لولاها لكانت الحال غير الحال والوضع غير الوضع.

فلدينا فى الريف المصرى على الأقل ٨ ملايين امرأة يحملن عبء الحياة كما يحمله الرجال، بل لا أغالى إذا قلت أن عبئهن أثقل ومشقتهن أشد وأصعب فالرجل هناك يعمل فى الحقل وحده ولكن المرأة الريفية عندنا تعمل فى الحقل مع زوجها كما يعمل، تشاطره كل صغيرة وكبيرة فى عمله وفوق ذلك المجهود المضنى الذى تنوء به كواهل الرجال ترعى منزلها ومطالب بيتها فهى ربة بيت تشقى فيه وحدها ثم إلى جوار هذا الشقاء نراها تسابق زوجها فى العمل ولاتهدأ ولا تستريح حتى تؤدى واجبها كاملا فى الميدان.

وكثيرات غيرها فى ميادين أخرى يضطلعن بمثل بمسئولياتها فيوزعن وقتهن بين مطالب بيوتهن وبين أعمالهن فى ميدان الحياة راضيات بهذا المجهود الضخم

الذى ليس مجهودًا فرديًا ولكنه فى الواقع ونفس الأمر مجهود من أجل الوطن فى مجموعه، ومن أجل مجد الجميع وإسعاد البلاد.

هؤلاء مثلهن تماما كالجندى فى ميدان الحرب، فى ميدان الدفاع عن بلاده ومجدها.

وكما يموت الجندى فى الدفاع عن بلاده مجهولاً ولا يدرى به أحد وكل الذى ندريه من أمره أننا نقدس تلك البطولة المجهولة ونحنى الرأس أمامها ونرمز لها بتمثال نحيى به ذكرى بطولته.

أقول كما يموت الجندى مجهولاً فى سبيل الدفاع عن بلاده فإن كثيرات من المصريات يمتن فى سبيل بلادهن وفى قيامهن بواجبهن إعياء وتعبا دون أن يدرى بهن أحد أو يذكرهن التاريخ.

هؤلاء المجهولات جديرات حقا بأن نقدس كفاحهن وأن نذكر بطولتهن وأن نحنى الرأس أمام كفاحهن الصامت وبطولتهن المجهولة.

كلمتنا الأخيرة

والآن، وقد أستعرضت فى إيجاز شديد، كفاح المصرية على مر العصور، والأجيال، مبتدئة بعهد «جدتنا» الفرعونية، منتقلة إلى «أمنا» العربية، منتهية إلى عهدنا نحن.. عهد المصرية الحديثة، بكل ما استكملت به عناصر شخصيتها الحالية من أخلاق موروثة، وذكاء مفطور، وثقافة مكتسبة، وكفاح طويل متأصل، له جذوره العميقة فى طموحها التاريخى البعيد.

الآن وقد فرغت من رسم صورة واضحة للمرأة المصرية ـ وأن أعوزتها التفاصيل التى لا تستوعبها صفحات هذا الكتاب ـ أرجو أن أكون قد وفقت إلى إعداد مرجع لمن يريد من الأحرار والمستنيرين ـ أصدقاء المرأة ـ أن يجد سفرًا يضم مجموعة الحقائق الخالدة عن نضالنا النسائى فى شتى الميادين، ليقيم منه دليلا جديدًا على أن المرأة المصرية يجب أن تظفر بحقوقها الطبيعية فى المساواة بسائر المواطنين، لا لمجرد أنه حق يفرضه المنطق والقانون والزمن، بل لأنها أصبحت جديرة فعلا بأن تتساوى بالرجال فى الحقوق، ما دامت قد تساوت بهم فى الواجبات والالتزامات..

لقد ارتفع صوت المفكر الحر ـ قاسم أمين ـ منذ أكثر من نصف قرن، ليعلن أن المرأة المصرية لا تقل عن الرجل ذكاء أو استعدادًا للعمل أو للعلم.. كما ارتفع صوته يؤكد أن السفور والاختلاط لا يفسدان أخلاقها ولا ينتهيان بها إلى التدهور والانحدار.. كما ارتفع صوته أخيرًا، ليؤكد أن تحرير المرأة لا يتعارض مع الدين، ولا مع تقاليد الإسلام بالذات!

والحق، أن مهمة قاسم أمين كانت صعبة مهمة فى ذلك الحين، فقد كانت تلك التجربة جديدة على كثير من دول العالم المتحضرة، ولم تكن مصر المتخلفة إذ ذاك ـ من جميع النواحى ـ لتقبل الاندفاع فى مثل تلك التجربة ـ تجربة المساواة التامة بين النساء والرجال ـ فلم يكن فى مصر من يفهمها أو يتخيلها.!

ولكن الزمن كان أكبر معلم وأكبر هاد لنا، فقد ضرب بكل الصيحات الرجعية المرتعشة عرض الحائط، ومد يده فرفع النقاب عن وجه المرأة المصرية ثم مد يده فرفع تلك الستائر المسدلة على نوافذ الحريم.. ثم مد يده فحطم ذلك الحريم تمامًا.. وساق النساء المصريات أمامه إلى المدرسة وإلى المصنع، وإلى النادى، وشيئًا فشيئًا بدأ الآباء والأزواج والأشقاء والأبناء يحترمون إرادة الزمن، وينحنون إجلالا لها.

كانت مهمة قاسم أمين صعبة منذ خمسين سنة، ولم يكن أحد يصدق دعواه فى أن المرأة يمكن أن تعمل وتنتج ـ سواء بعقلها أو بيديها ـ وإنها تخفف بذلك نصف العبء عن الرجال، أو تضاعف ما تخرجه أيدى أولئك الرجال من إنتاج، فلا يظل نصف المجتمع عيالا على النصف الآخر.. يشترك فى الاستهلاك، ولا يشترك فى الإنتاج.

وكانت مهمة قاسم أمين صعبة، ولم يكن أحد ليصدقه وهو يؤكد أن الفتاة المصرية لها من العقل والإدراك ما تستطيع أن تفهم به دروس القانون، والهندسة، والفلسفة، والطب، والآداب، وأن فى وسعها أن تتخرج فى الجامعات وفى المعاهد العليا، وأن تخرج من بين صفوفها دكتورات، وطبيبات، وعالمات، وأديبات، ومهندسات، وصحفيات.

وكانت مهمة قاسم أمين صعبة، ولم يكن أحد ليتخيل أن خروج المصرية وحدها إلى الطريق يمكن أن يتم بدون كارثة! ولم يكن أحد ليتخيل أن جلوسها إلى جانب زميلها فى الجامعة أو المكتب أو المصنع يمكن أن يتم دون أن ينتهى بضياع شرفها وعفتها..!

كانت مهمة قاسم أمين صعبة لأن الناس لم تكن قد رأت بعد هذه التجربة، ومن هنا فقد قوبل كتابه الخالد «تحرير المرأة» بعاصفة من الاستنكار،

والاحتجاج، والهجوم العنيف على دعوته التى وصفت إذ ذاك بالخطورة.. بل بالشذوذ.!

أما الآن، فقد ثبت بالتجربة التى تقطع كل لسان يعترض، أن الفتاة المصرية لا تقل عن الفتى استعداداً للعلم، بل أنها كثيراً ما تتفوق عليه! وثبت بالتجربة أن المرأة المصرية لا تقل استعداداً عن الرجل فى ميدان العمل، بل أنها كثيراً ما تكون أشد جلداً منه. وثبت بالتجربة أخيراً أن السفور والاختلاط لم يزيدا المصريات إلا خلقاً وأن الثقة التى يمنحها المجتمع للمرأة، هى أعظم ضمان لها، وأكبر عاصم من التردى والانحراف.. وأستطيع أن أتحدى واثقة من هذا التحدى بأن أخلاق العاملات السافرات المتحررات، أمتن من أخلاق المتعطلات المحجبات، المقيدات وراء النوافذ المغلقة، والأبواب المحكمة!!

هذه حقائق يستطيع كل مواطن فى مصر أن يلمسها بلا تعب ولا إرهاق وهذا ما يجعل مهمتى اليوم أسهل ألف مرة من مهمة ذلك الرائد العظيم قاسم أمين، فإذا كان هو قد تناول موضوع المرأة وحقوقها فى المساواة على أساس التحليل النظرى لإمكانية هذه المساواة، فقد جئت اليوم لأتناول الموضوع بما يتفق والمراحل التى قطعتها المرأة المصرية فى طريق تحررها.. جئت اليوم لأعلن الكلمة الأخيرة الفاصلة فى هذه القضية، على أساس ما حققته المرأة المصرية بالفعل من المعجزات فى مختلف ميادين العلم، والعمل، والاجتماع، والسياسة.

لقد انتصرت فى كل تلك الميادين وتفوقت، وإذا كانت حقوقها السياسية لم ترد إليها بعد من الناحية الشكلية، فقد أوضحت كيف فرضت المرأة المصرية نفسها على ذلك الميدان فاشتغلت بالسياسة فعلاً، ولن يستطيع أحد أن يحرمها ذلك الحق بعد اليوم.

وبعد، فلم يعد أمام بقايا الرجعية ما تتمحك به فى محاولة الوقوف دون عجلة الزمن.. لم يعد أمامها سوى التمسح فى الدين، وحسبى أن أرد على أولئك بكلمة واحدة هى أننا ننتظر أن يجمع السادة أصحاب الفضيلة ـ رجال الدين ـ أمرهم على رأى واحد فى قضية المرأة فهم حتى ـ كتابة هذه السطور ـ مختلفون لا

يتفقون.. بعضهم يؤكد أن تحرير المرأة ومساواتها لا يتفق مع أصول الدين، وبعضهم يؤكد أن الإسلام يمنح المرأة بعض هذه الحقوق دون البعض الآخر، وفريق ثالث يقف إلى جانب حرية المرأة ومساواتها على طول الخط.. ولا أريد حتى أن أسجل هنا أن الفريق الثالث هو الأكثر عددًا، والأوسع أفقًا، ولا أريد أن أتمسح أنا أيضا فى الدين، وحسبى أن أطلب إلى سادتنا العلماء أن يجمعوا أولا على رأى وأن يحاولوا أن يفسروا لنا الدين تفسيرًا جديدًا يتمشى وعجلة الزمن، ويتماشى وروح ديننا السمح الكريم الذى سوى بين المسلمين أجمعين.

وإلى أن يتم هذا الاتفاق بينهم، سنظل نحن عند موقفنا، مؤمنات بأن الدين يسر لا عسر وأن الله يلهم الناس الحق دائمًا والصواب، وقد قطعنا ما قطعنا من أشواط فى سبيل تحرير المرأة بذلك الوحى الإلهى الذى يلهم أصحاب الحق وينير لهم الطريق وسط العوائق والظلمات..

وبعد، فهذا تاريخ كفاح المرأة المصرية، لم أضمنه مناقشة نظرية، أو أطرح فيه رأيًا للبحث والمناظرة.. كلا، بل أردت به أن أجمع الحقائق كلها لتكون تحت أنظار الذين يلتمسون الحقيقة ويبحثون عنها، فمن شاء أن يناقشنا بعد اليوم على أسس موضوعية، وفى ضوء هذه الحقائق التى بسطتها فليتفضل، وأما الذين يريدون الرجوع بنا إلى الوراء، ليجادلونا فى بديهيات أو فى نظريات فليس لهم عندنا مكان.

إحصائيات

السكان فى تعدادات ١٨٨٢ - ١٩٤٧
والزيادة بين كل تعدادين متتاليين

سنة التعداد	عدد السكان	الزيادة العددية	الزيادة المئوية فى عشر سنين
١٨٨٢	٦٨٠٤٠٢١		
١٩٩٧	٩٧١٤٥٢٥	٢٩١٠٥٠٤	٢٨,٦
١٩٠٧	١١٢٨٧٣٥٩	١٥٧٢٨٣٤	١٦,٢
١٩١٧	١٢٧٥٠٩١٨	١٤٦٣٥٥٩	١٣,٠
١٩٢٧	١٤٢١٧٨٦٤	١٤٦٦٩٤٦	١١,٥
١٩٣٧	١٥٩٣٢٦٩٤	١٧١٤٨٣٠	١٢,١
١٩٤٧	١٩٠٢١٨٤٠	٣٠٨٩١٤٦	١٩,٤

عدد السكان مقدراً فى أول يوليه من كل سنة

السنوات	ذكور	إناث	الجملة
١٩٤٧	٩٤٤٤٠٠٠	٩٦٢٤٠٠٠	١٩٠٦٨٠٠٠
١٩٤٨	٩٦٦٢٠٠٠	٩٨٣٢٠٠٠	١٩٤٩٤٠٠٠
١٩٤٩	٩٦٨٢٠٠٠	١٠٠٢٦٠٠٠	١٩٨٨٨٠٠٠
١٩٥٠	١٠١٢١٠٠٠	١٠٢٧٢٠٠٠	٢٠٣٩٣٠٠٠
١٩٥١	١٠٣٨٦٠٠٠	١٠٥٢٣٠٠٠	٢٠٩٠٩٠٠٠

توزيع السكان حسب الحالة الزوجية والنسبة المئوية لكل حالة إلى الجملة فى تعدادى ١٩٣٧ و١٩٤٧

الحالة الزوجية	١٩٣٧				١٩٤٧			
	ذكور	النسبة	إناث	النسبة	ذكور	النسبة	إناث	النسبة
لم يتزوج أبداً	١٢٤٩٢٤٤	٢٧,٤	٤٩٧٢٩٧	١٠,٦	١٥١٤٣٢٠	٢٧,٦	٦٦٢٥٣٣	١١,٥
متزوج	٣١٠٥١٤٦	٦٨,٣	٣١٧٩٣٧١	٦٧,٤	٣٦٥٢٦١١	٦٦,٥	٣٧٦٦٧٥٩	٦٥,٠
مطلق	٦٠٢٣٤	١,٣	٩٧١٣٤	٢,١	٦٩٦٢٠	١,٣	١٢٧٦٠٩	٢,٢
أرمل	١٢٩٦١٣	٢,٨	٩٣٢٣٢١	١٩,٨	١٣٨٤١١	٢,٥	١١٣٤٩٧٤	١٩,٦
غير مبين	١٠٦٨٠	٠,٢	٦٥٦٤	٠,١	١١٦٤٦٧	٢,١	٩٥٢٦٢	١,٧
الجملة	٤٥٥٤٩١٧	١٠٠	٤٧١٢٦٨٧	١٠٠	٥٤٩١٤٢٩	١٠٠	٥٧٨٧١٣٧	١٠٠

عقود الزواج وشهادات الطلاق حسب الديانة

السنوات	مسلمون		مسيحيون		إسرائيليون		عقائد أخرى		الجملة	
	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق	زواج	طلاق
١٩٤٦	٢٨١١٤٩	٨٠٠٥١	٦٠٢٣	٣٠٣	٧٥٦	٦١	١	—	٢٨٧٩٢٩	٨٠٤١٥
١٩٤٧	٢٥٤٦٧٣	٧٥١٠٤	٥٢٧٣	٢١٧	٦٤٠	٨٣	—	—	٢٦٠٥٨٦	٧٥٤٠٤
١٩٤٨	٢٦١٣٢٧	٧٥٧٠٩	١٠٢٨٢	٣٨٣	٥١٨	٦٢	١	—	٢٧٢١٢٨	٧٦١٥٤
١٩٤٩	٢٦٨٨٥٤	٧٣٣٨١	١٠٩٢٨	٣٥٥	٦٨١	٩١	—	—	٢٨٠٤٦٣	٧٣٨٢٧
١٩٥٠	٢٦٣٠٣٣	٧٤٦١١	٩٥٤٥	٢٥٣	٢١٧	١٧	—	—	٢٧٢٧٩٥	٧٤٨٨١

عقود الزواج وشهادات الطلاق ونسبتها لكل ألف من سكان

السنوات	عقود الزواج		شهادات الطلاق	
	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة
١٩٤٦	٢٨٧٩٢٩	٣١,٧	٨٠٤١٥	٨,٩
١٩٤٧	٢٦٠٥٨٦	٢٧,٢	٧٥٤٠٤	٧,٩
١٩٤٨	٢٧٢١٢٨	٢٨	٧٦١٥٤	٧,٨
١٩٤٩	٢٨٠٤٦٣	٢٨	٧٣٨٢٧	٧,٤
١٩٥٠	٢٧٢٧٩٥	٢٦,٩	٧٤٨٨١	٧,٤

المسلمون المتزوجون حسب عدد زوجاتهم والنسبة المئوية لكل فئة إلى الجملة فى تعدادى ١٩٣٧ - ١٩٤٧

عدد الزوجات	١٩٣٧		١٩٤٧	
	العدد	بنسبة	العدد	بنسبة
واحدة	٢٧٣٣٣٠٢	٩٦,٨٦	٢٩٧١٧٩٥	٩٦,١٤
اثنتان	٩١٧١٢	٢,٩٥	١١١٧٤٦	٣,٦٢
ثلاث	٥١٦٩	٠,١٧	٦٥٧٣	٠,٢١
أربعة	٥٢٠	٠,٠٢	٨٨٨	٠,٠٣
الجملة........	٢٨٣٠٧٠٣	١٠٠	٣٠٩١٠٠٢	١٠٠

الأزواج والزوجات
حسب حالتهم المدنية قبل زواجهم الأخير

الحالة المدنية		١٩٤٨	١٩٤٩	١٩٥٠
١ ـ الحالة المدنية للأزواج الذين لم يسبق زواجهم		١٨١٨٧٧	١٩٢٣٢١	١٨٧٦٧١
في عصمتهم	زوجة	٢٢٧٥٠	٢٢٦٢٨	٢٢٠٤٤
	زوجتان	١٢٣٤	١٢٢٦	١١٦٩
	ثلاث	٩٢	٩٠	٨٢
مطلقون		٤٥٢٧١	٤٤٨٣٩	٤٤٥٨١
أرامل		٢٠٩٠٤	١٨٣٥٩	١٧٢٤٨
٢ ـ الحالة المدنية للزوجات اللاتي لم يسبق زواجهن		١٨٧١٢٥	١٩٧٢٩٠	١٩١٦٣٧
مطلقات........................		٦٦٠٩١	٦٥٧٥٨	٦٥١٤١
أرامل..........................		١٨٩١٢	١٧٤١٥	١٦٠١٧
جملة الأزواج والزوجات.........		٤٤٢٥٦	٥٦٠٩٢٦	٥٤٥٥٩٠

عدد المشتغلين بالمهن الطبية في آخر كل سنة

المهنة	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١
أطباء	٤٦١٢	٤٧٩٧	٥١٥١
أطباء بيطريون	٥٩٦	٦٣٧	٩٦٠
جراحو أسنان	٥٨٤	٥٩١	٥٨٩
صيادلة	١٣٩١	١٤٨٧	١٥٥١
مساعدو صيادلة	٣٢٢	٣٢١	٣٢١
مولدات	٩٩٦	١٠٤٦	١١٩١

الطلبة والخريجون بجامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس

أسماء الكليات	نوع	١٩٤٩ ـ ٥٠		١٩٥٠ ـ ٥١		١٩٥١ ـ ٥٢	
		طلبة	خريجون	طلبة	خريجون	طلبة	خريجون
الحقوق	بنون	٣٩١٩		٦٠٦٢		٥٣٦٩	
	بنات	١٥٦	٣٨٨	٢٧٣	٣٩٦	١٧٩	٧٥٩
الآداب	بنون	٢٠٢٢		٢٧٧٠		٣١٨٨	
	بنات	٦٠٥	٤٠٥	٧٧٢	٣١١	٩٤٣	٥١٦
العلوم	بنون	١٢٧٩		١٩٠٨	١٢٩	٢١١٢	
	بنات	١٢٠	١٩٠	١٦٣		٢٣٣	٣٨٣
الطب	بنون	٤٢٦١		٤٩٤٥	٣٢٦	٥١٧٧	
	بنات	٣٥٧	٣٠٣	٥٦٤		٥٦٢	٣٩١
الصيدلة.......	بنون	٤٠٦		٤٥١	٥٥	٤٨٤	
	بنات	٥١	٣١	٥٧		٦٥	٧١
طب الأسنان...	بنون	١٣٧		١٧٩	٧	١٨٨	
	بنات	١٤	٥	٢٢		٢١	٥
الهندسة	بنون	٢٥١٣		٤١٧١	٢٦٣	٥٤١٣	
	بنات	٥	٣٥٥	٧		١٢	٤٦٠
التجارة.........	بنون	٤٨٢٠		٧١٥٤	٨٢٣	٧٨٤٠	
	بنات	١٧٣	٤٧٨	٢٢٢		٢٦٦	١١٠٥
الزراعة.........	بنون	١٨١٩		٢٠٧٥	٢٩٣	١٩٣٩	
	بنات	٧١	٢٧٤	٧٤		٧٨	٤٥٤
الطب البيطرى	بنون	٣٦١		٣٦٨	٣٠	٣٩٣	
	بنات	١٣	٤٣	١٨		٢٢	٥٥
دار العلوم......	بنون	٦٢٦		٦٠٥	١٨٧	٦٨٩	
الجملة	بنون	٢٢١٦٣	١٥٨	٣٠٦٨٨		٣٢٧٩٢	١٢٤
	بنات	١٥٦٥	٢٦٣٠	٢١٧٢	٢٨٢٥	٢٣٨١	٤٣٢٣

الأحداث فى جميع السجون
حسب الجريمة والنوع

		١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١
مخالفات	ذكور	٦٨	٢١٨	٢١٤
	إناث	١١٢	٥٦	٤٨
	جملة	١٨٠	٢٧٤	٢٦٢
جنح	ذكور	٢٠٢٣	٢٢١٥	٢٦٣٧
	إناث	٣٢٩	١١٨	١٣١
	جملة	٢٣٥٢	٢٣٣٣	٢٧٦٨
جنايات	ذكور	—	٤٤	٨٩
	إناث	٢١	١	٢
	جملة	٢١	٤٥	٩١
جملة عمومية	ذكور	٣٩٧	٢٤٧٧	٢٩٤٠
	إناث	٢١٥٦	١٧٥	١٨١
	جملة	٢٥٥٣	٢٦٥٢	٣١٢١

وفيات الأطفال الذين عمرهم أقل من سنة
حسب أسباب الوفاة فى الجهات التى بها مكاتب صحة

سبب الوفاة	١٩٤٨	١٩٤٩	١٩٥٠
١ ـ التشوهات الخلقية	١٦٤	٦٤	١٢٢
٢ ـ الضعف الخلقى	٢١٣٤٤	٢٠٩٠٢	٢٢٧٧٩
٣ ـ الولادة قبل الأوان	١٥٢	١٦٨	٢٣٦
٤ ـ نتائج الوضع	١١٥	١٤٠	٢٠٧
٥ ـ قتل الأطفال دون السنة	٨٢	٦٠	٨٠
٦ ـ حوادث عارضة	٥٩	١٠٠	٨٣
٧ ـ أسباب أخرى	١٢٠٥	١١٣٧	١١٧٧
الجملة	٢٣١٢١	٢٢٥٧١	٢٤٦٨٤
النسبة فى الألف من المواليد الأحياء	١٧٥,٤	١٧٤,٧	١٧٠,٩

المواليد والوفيات ووفيات الرضع

		مواليد أحياء		وفيات		وفيات الرضع		مواليد موتى	
السنوات	النوع	العدد	النسبة المئوية من السكان	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة فى الألف	العدد	النسبة فى الألف
١٩٤٨	ذكور	٤٣٣٨٧٨		٢١٢٢١٨		٦١٤٧٩		٣٣٩١	
	اناث	٣٩٨٨٥٠		١٨٥٧٥٨		٥٣٩٤٣		٤٢٢٩	
	جملة	٨٣٢٧٢٨	٤٢,٩	٣٩٧٩٧٦	٢٠,٥	١١٥٤٢٢	١٣٨,٦	٥٨٢٠	٦,٩
١٩٤٩	ذكور	٤٣٧١٨١		٢١٨١٠١		٥٩٧٣٤		٣٤٩٧	
	اناث	٣٩٩٣٣٥		١٩٢٤٢٣		٥٢٩٠٧		٢٤٧٧	
	جملة	٨٣٦٥١٦	٤٢,١	٤١٠٥٢٤	٢٠,٦	١١٢٦٤١	١٣٤,٧	٥٩٧٤	٧,١
١٩٥٠	ذكور	٤٧٢١٧٧		٢٠٧١٦٤		٦٢٢٠٧		٢٦٨٢	
	اناث	٤٣٢٧٦٤	٤٤,٤	١٨١٧٨٠		٥٥٠٧٦		٢٥٧٤	
	جملة	٩٠٤٩٤١		٣٨٨٩٤٤	٢٠,٦	١١٧٢٨٣	١٢٩,٦	٥٢٥٦	٦,٩

الفهرس

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل – رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة – ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك – نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا – القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو – القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان – السيدة زينب

أمام دار الهلال – القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو – القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو – حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف – القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة

١ ش مراد – ميدان الجيزة – الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى – التوفيقية – القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام – بالحرم الجامعى –

الجيزة

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر – الحسين – القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس

ش الهرم – محطة المساحة – الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة – الهرم
مبنى أكاديمية الفنون – الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول – الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك – المرحلة الخامسة – عمارة ٦
مدخل (أ) – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى – بكلية الزراعة –
الجامعة الجديدة – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ – بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى – أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية – أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب – المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا – المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة – عمارة سينما أمير – طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى – دمنهور

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة – المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. maktabetelosra. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذي يحياه ويحيا فيه، حين يفتح أفقًا أمام الحاضر والمستقبل، باستيعابه المعلوم، وإدراكه المجهول، وحين يقرأ نفسه، ويقرأ الآخرين، فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عقل الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات، وينتج الموارد وال[illegible]، ويصنع القوة، وتتسع أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أن نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة

سوزان مبارك






ISBN# 9789774204407
6 221149 008021

٢ جنيه



٢٠٠٨